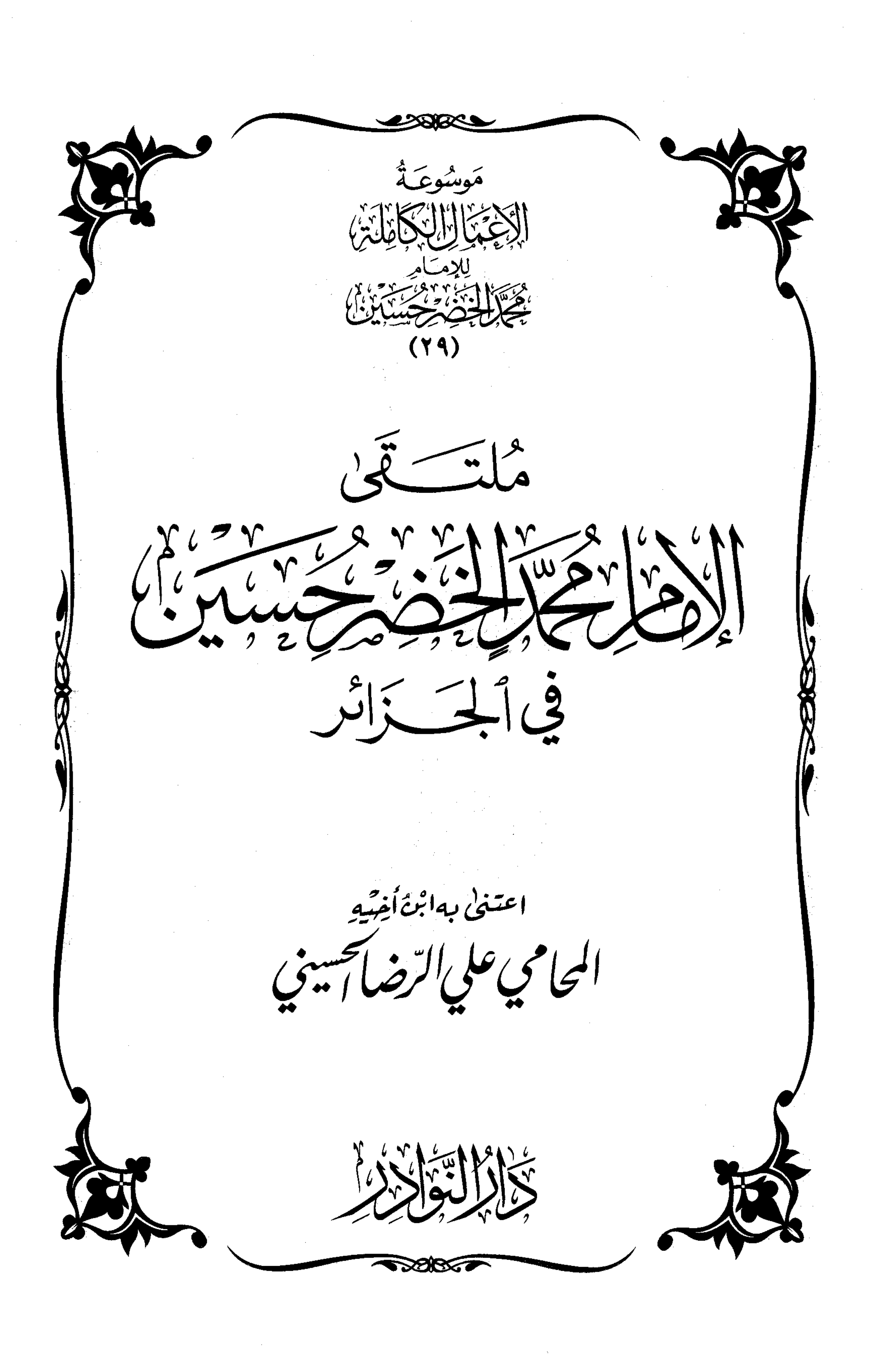
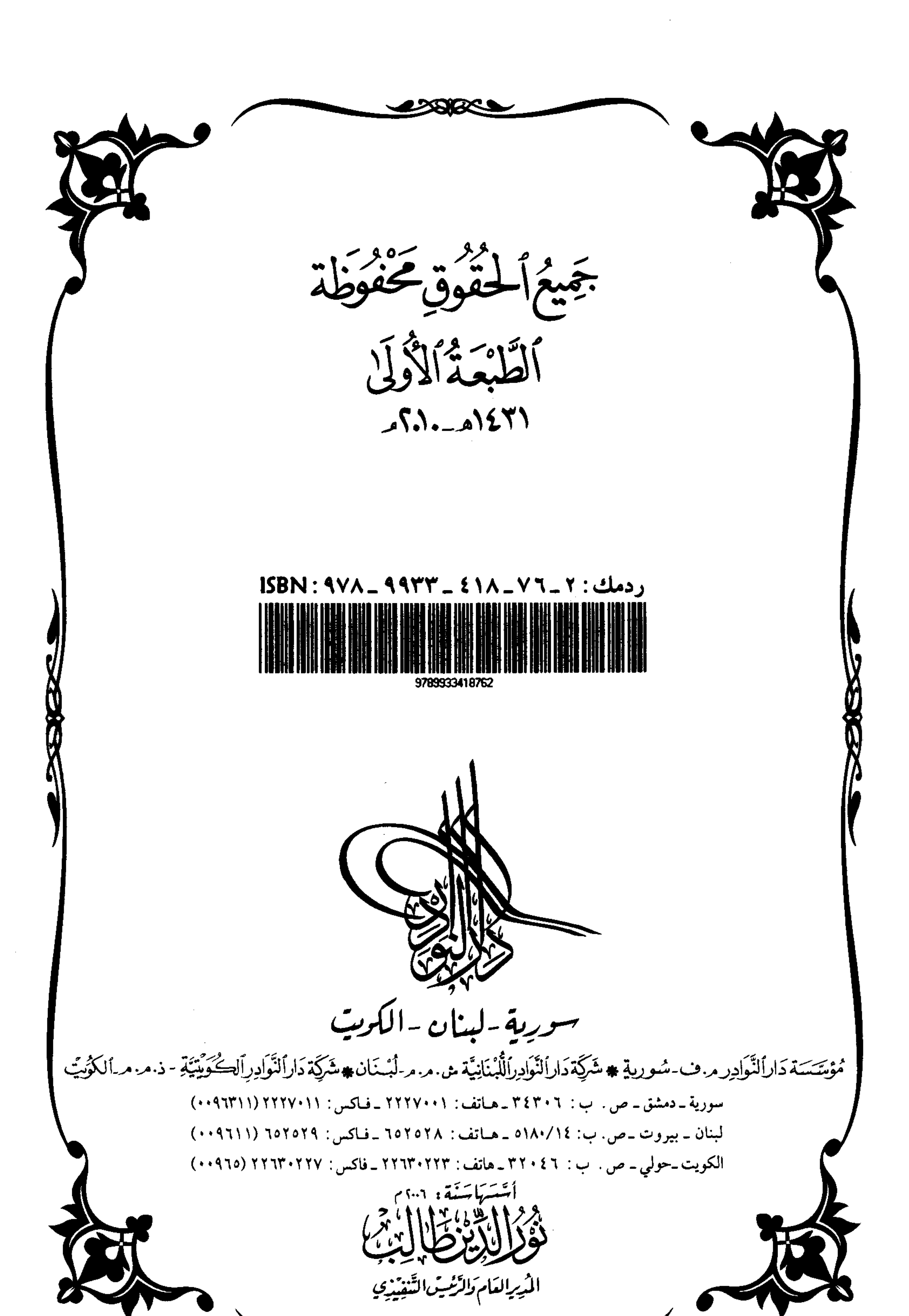


موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(٢٩)

ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك: ٢ - ٧٦ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ :ISBN
9789933418762

سورية - لبنان - الكويت

مؤسسة دار النوادر م.ف - سورية * شركة دار النوادر اللبنانية ش.م.م - لبنان * شركة دار النوادر الكويتية - ذ.م.م - الكويت
سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)
لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)
الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسسها سنة: ٢٠٠٦م
نور الدين طالب
المدير العام والرئيس التنفيذي



المقدمة

تزينت مدينة «بسكرة» عاصمة الزيبان في الجنوب الجزائري، وأسفرت عن وجهها الثقافي والإبداعي والمِضْياف خلالَ عيدها الفكري الرائع أيام ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ديسمبر كانون الأول من عام ٢٠٠٧م، واكتست أبهى حُللها وأجملَها عندما نظمت (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية) ملتقىً ثقافياً تحت عنوان: (ملتقى الإمام العلامة محمد الخضر حسين الطولقي الجزائري).

أعلنت ولاية «بسكرة» طَوال أيام العيد الثقافي الذي عاشته عن فرحها وسعادتها بهذا الحدث الهام، وامتلأت شوارعها بصور الشيخ الإمام، وانتشرت اللافتات التي غصّت بها أنحاء الولاية؛ لتعبر عن مكانته العلمية، والاعتزاز بانتمائه إلى مدينة «طولقة» التابعة لولاية «بسكرة»، وسطرت بالمداد الملون الزاهي على لوائحَ ضخمةٍ من القماش المتعدد الأشكال آيات الترحيب والمباهاة، وبعض المنتخب من أقواله؛ كما قام الرسامون ببذل جهد كبير في رسوم الإمام الزيتية المعلقة في أنحاء الولاية.

وأَمَّ المدينةَ من كافة أنحاء القطر الجزائري النخبةُ من رجال الفكر والتعليم الجامعي، ورجال الصحافة، وشاركت مؤسسات التلفزة والإذاعة، ووسائل الإعلام الأخرى في هذا الإطار الذي أحاط شخصيةَ هذا الإمام الجليل

بهالة من النور والطهارة والقدسية والاحترام.

وهو ـ في واقع الحال ـ يستحق كل هذا، وأكثرَ منه، وبما يليق ويتماشى مع رحلة حياته الإيمانية التي امتزج بها جهاد القلم مع جهاد النفس، وتنوعت فيها المواهب المتعددة التي اصطفاها الله ـ جلَّ جلاله ـ لهذا الإمام.

أليس هو: العالم، والمناضل، والمفكر الإسلامي، والمفسر، والمحدِّث، والخطيب، والداعية، واللغوي، والقاضي النزيه، والمصلح، والشاعر، والرحالة، والصحفي، وإمام مشيخة الأزهر؟ صفات وضعها الله فيه، فأحسن الإمامُ لها، وأخلص.

أتقنت (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية) إظهارَ هذا الملتقى بوجه مشرق ومشرّف، وهيأت له أسباب النجاح، فأعطى ثماره، وبذلَت الجهد المضني؛ ليكون صورة صادقة عن حياة الإمام.

هذه الجمعية الخلدونية، وبرعاية رئيسها الأستاذ الأديب فوزي مصمودي، وإخوانه من الأعضاء المنتخبين العاملين بإخلاص ودأب لدينهم ووطنهم، وهي تنشط في ميدانها نشاطاً لم نلحظه في جامعة أو جامعات، أو مؤسسات ثقافية أخرى إذا قيست بإمكانياتها. وهي بعملها المجيد المبدع هذا لها التحية والتقدير، وإن أجرها الأوفى والأسمى عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا يستطيع العبد أن يوفي حقَّ المحسن بالقلم واللسان.

أما عن كرم الضيافة، وحسن الوفادة، والاستقبال الصادق مع الوجوه الباسمة، فلا يمكن التعبير عنها بالكلمة. والمَشاهِد التي صورها الملتقى لا يمكن أن يرسمها حرف على الورق، فهي في الذهن منقوشة، وفي القلب محفوظة، وأُكرر: إن اللسان والقلم يعجزان عن بثّ عبارات الشكر والامتنان.

بادر العديد من كبار أساتذة الجامعات الجزائرية ـ وما أشرفَ وأجلَّ أولئك الأساتذة بعد أن عرفتهم عن قرب ـ إلى الملتقى بمحاضراتهم القيمة التي دلت على سَعَة في المعرفة، ودقة في التحقيق، ورغبة صادقة في بيان سيرة الإمام الخضر، والتعريف بآثاره.

ـ شارك من تونس: الأستاذ الفاضل، والمحبّ الوفي محمد مواعدة، الذي كان له الفضل الأسبق والأهم في إصدار أول كتاب ترجم وحقق في حياة الإمام وآثاره «محمد الخضر حسين حياته وآثاره».

ـ وشارك من مصر: أحد المدرسين في الجامع الأزهر الدكتور مجاهد توفيق الجندي.

ـ ومن دمشق: حضر وحاضر علي الرضا الحسيني ابن أخي الإمام محمد الخضر حسين.

وفي هذا الملتقى الذي تمَّ تحت إشراف وزارة الثقافة الجزائرية، واهتمام وعناية والي ولاية «بسكرة» الأستاذ ساعد أقوجيل، الذي رافق الملتقى من ألفه إلى يائه، وأبدى من المؤانسة وحسن الاستقبال والحضور المستمر طوال أعمال الملتقى ما لم نشاهده عند كثير من رجال السلطة.

أشرف على رئاسة الجلسة الافتتاحية: المؤرخ الجزائري الدكتور محمد عربي الزبيري، وكانت إدارة الجلسات موضع إعجاب وإكبار الحضور؛ لما تميز به الدكتور الزبيري من محبة رجال الفكر والثقافة له، واحترامهم، مع روح الدعابة الأدبية التي عُرفت عنه ضمن حدود الإدارة المنضبطة للجلسات.

وحفظاً على ما تضمنه الملتقى من محاضرات وتعليقات ذات مستوى علمي وتاريخي رفيع، وما أنجز على هامش الملتقى من ندوات ومحاورات

في الإذاعة الجزائرية بمدينة «بسكرة»، وما نشره بعض السادة الكتّاب من المقالات في الصحافة، كان من المفيد للباحث أن تجمع هذه الأعمال في كتاب يحتوي بين دفتيه كل محاضرات الملتقى، وما رافقه من نشاط إذاعي وصحفي.

وجرت أعمال الملتقى حسب البرنامج المخصص لها:

أ ـ اليوم الأول للملتقى الثلاثاء في ٢٥ ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٧م:

- الافتتاح بالنشيد الوطني الجزائري.
- كلمة السيد والي ولاية بسكرة.
- كلمة فضيلة الأستاذ عبد القادر عثماني شيخ (زاوية علي بن عمر) في مدينة «طولقة».
- كلمة فضيلة العلامة الشيخ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- كلمة رئيس الجمعية بتكريم الباحث علي الرضا الحسيني.
- كلمة الأستاذ الأخضر رحموني، وتضمنت: التعريف بالباحث علي الرضا الحسيني.
- الاحتفال بتكريم الباحث علي الرضا الحسيني.
- تحية شعرية لولاية «بسكرة» للباحث علي الرضا الحسيني.
- كلمة موجزة للدكتور مجاهد توفيق الجندي من علماء الأزهر.

ب ـ اليوم الثاني للملتقى الأربعاء في ٢٦ ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٧م:

- محاضرة الباحث علي الرضا الحسيني ـ من دمشق.

- محاضرة الدكتور كمال عجالي ـ أستاذ في جامعة «باتنة».
- محاضرة للأستاذ محمد مواعدة ـ خبير لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة ـ جامعة الدول العربية ـ من تونس.
- محاضرة الدكتور مجاهد توفيق الجندي ـ من علماء الجامع الأزهر ـ من القاهرة.

ج ـ اليوم الثالث للملتقى الخميس في ٢٧ ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٧م:

- محاضرة الدكتور عمار الطالبي ـ أستاذ بجامعة الجزائر.
- محاضرة الدكتور نجيب بن خيرة ـ أستاذ بجامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة.
- محاضرة الأستاذ محمد الهادي الحسني ـ أستاذ بجامعة الجزائر.
- محاضرة الدكتور مولود عويمر ـ أستاذ بجامعة الجزائر.

د ـ اليوم الرابع للملتقى الجمعة في ٢٨ ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٧م:

خصص هذا اليوم للقيام بجولة في ولاية «بسكرة»: زيارة مقام الشيخ عبد الرحمن الأخضري، مقام الشيخ محمد بن عزوز في «برج ابن عزوز»، مقام الشيخ علي بن عمر في مدينة «طولقة». . وأداء صلاة الجمعة في الزاوية.

وأقام الشيخ عبد القادر عثماني شيخُ الزاوية حفل غداء لأكلة جزائرية شعبية مشهورة (الشكشوكة) في داره العامرة.

وانتهت أعمال الملتقى، وودّع المشاركون بعضهم البعض بحرارة وشوق، وانصرف كل منهم إلى وجهته. والحمد لله.

*** على هامش الملتقى:**

ـ ندوة في الإذاعة الجزائرية بمدينة «بسكرة»، شارك فيها الأساتذة: مجاهد توفيق الجندي، علي الرضا الحسيني، كمال عجّالي مساء ٢٦/١٢/ ٢٠٠٧م.

ـ ندوة في الإذاعة الجزائرية بمدينة «بسكرة» شارك فيها الأساتذة: عمار الطالبي، محمد الهادي الحسني، نجيب بن خيرة، محمد مواعدة، مولود عويمر، مساء ٢٧/١٢/ ٢٠٠٧م.

ـ برنامج (أعلام من الزيبان) للأستاذ عبد الحليم صيد ـ في الإذاعة الجزائرية ببسكرة مع علي الرضا الحسيني.

ـ بعض عناوين الصحف الجزائرية حول الملتقى.

ـ مقالة (ملتقى الإمام محمد الخضر حسين) للأستاذ محمد الهادي الحسني.

ـ مقالة (في ذكرى الخمسين لوفاة العلامة التونسي محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق) للأستاذ محمد مواعدة.

ـ مقالة (بسكرة عاصمة الثقافة باحتفالها بالإمام محمد الخضر حسين، إمام العالم الإسلامي وأستاذ الشيخ ابن باديس) للدكتور عمار الطالبي.

ـ مقالة (ربيع في الشتاء) للأستاذ محمد الهادي الحسني.

ـ مقالة (تذكرة ـ ملتقى الإمام العلامة محمد الخضر حسين) للدكتور محمد أيمن سمينة.

إننا نسجل بأحرف من النور، وبكلمات من الذهب في سجل (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية) مبادرتَها الوطنية الصادقة، وإخلاصَها لعظماء الأمة، ودعوتَها إلى تنظيم ملتقى خاص بالإمام العلامة محمد الخضر

حسين، وتقديمه بشكل رائع.

وشكراً مجدداً لرئيسـها الأستاذ فوزي مصمودي وإخوانه من أعضاء الجمعية الماجدة، ووفّق الله خطاهم في البحث والدراسة التي يعدونها للمستقبل ـ إن شاء الله ـ، وهنيئاً للجزائر بهذه الجمعية، وهذه المؤسسة الجليلة القدر، العالية الهمة، الرفيعة المستوى.

وقد لمست من أساتذة الجامعة، والمثقفين الذين اجتمعت بهم خلال الملتقى رغبةً شديدة ومُلِحّة لتوفير الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين في المكتبات الجزائرية؛ لاقتنائها من الراغبين في الاطلاع والدراسة. وبرغم أني طبعتُ كل آثار الإمام، فالبشرى لهم أن الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، قد باشرت إحدى دور النشر الهامة والكبرى في دمشق (دار النوادر) لصاحبها العالم الفاضل الشيخ نور الدين طالب بإعادة طبع كامل التراث في حلّة فاخرة، وسيطرح ـ إن شاء الله ـ في الأسواق للتداول.

والحمد لله على ما هدى، والحمد لله على نعمة الإسلام.

علي الرّضا الحسيني





حفل افتتاح الملتقى

كلمة افتتاح الملتقى لوالي ولاية «بسكرة» الأستاذ ساعد أقوجيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

السيد رئيس المجلس الشعبي الولائي ـ السادة أعضاء البرلمان بغرفتيه ـ السادة الإطارات المنتخبون والمحليون ـ السادة الأساتذة الأجلاء ـ السادة أعضاء الأسرة الإعلامية ـ ضيوفنا الكرام ـ أيها السيدات الفضليات ـ أيها السادة الأفاضل!

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أود في البداية أن أرحب باسمي الشخصي، وباسم كافة سكان ولاية بسكرة ومواطنيها بالسادة الضيوف المشاركين في هذا الملتقى، وفي مقدمتهم: الأساتذة المحاضرون من داخل الوطن، وأخص بالذكر: الأساتذةَ المحاضرين من الدول العربية الشقيقة: تونس، مصر، سورية.

متوجهاً لكل من حضر معنا اليوم بأصدق عبارات الشكر والتقدير على أن شرفوا عاصمة الزيبان بهذه الزيارة، والتي جاءت ونحن نعيش أجواء مناسبة عيد الأضحى المبارك، وأغتنم المناسبة لأتقدم من الجميع بأخلص التهاني، وأصدق التمنيات بمناسبة سنة ٢٠٠٨م، راجياً المولى العلي القدير لكم

ولذويكم دوام الصحة والعافية، ولوطننا المزيد من الرقي والازدهار في كنف السلم والاستقرار.

أيتها السيدات، أيها السادة!

ها نحن أولاء نلتقي اليوم بمناسبة الطبعة السادسة من التظاهرة التي دأبت على تنظيمها الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، والتي خُصصت لعَلَم من أعلامنا الأفاضل، وأحد أبناء عاصمة الزيبان البررة، ومنارة من منارات علمائها الطيبين، الذين انطلقوا من ديارهم سائرين على درب طلب العلم؛ لإنارة وتبديد ظلمات الجهل: فضيلةِ الإمام شيخ الأزهر الشريف العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله، وتغمد ثراه ـ.

وبالمناسبة: أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ فوزي مصمودي ـ ومن خلاله كافة طاقم الجمعية الخلدونية ـ على المجهودات والمساعي التي تبذل من سنة لأخرى في سبيل ترسيخ الذاكرة التاريخية في أذهان أبنائنا، ونفض الغبار عن شخصيات خُلدت أسماؤها عبر التاريخ بأحرف من ذهب.

أيها الحضور الكرام!

إن الحديث عن سيرة الرجال العظام هي أقل ما يمكن تقديمه تقديراً وعرفاناً بما بذلوه خدمة لدينهم ووطنهم، ورفعة وسمواً بأسمائهم، فإذا كانت مشيخة الأزهر مرتبة ليست بالهيّنة ولا اليسيرة، فإن شرف نيْلها من طرف العلامة محمد الخضر حسين الطولقي، هي شرف للجزائر الوطن، ولبسكرة الأصل والمنبت على حد سواء. وفي ذلك شرف مضاعف له ولنا، وما ذلك إلا دليلٌ على مكانته العلمية والدينية.

وفي مقام آخر: فإن الإمام كان صورة لوحدة الأمة التي أراد الله أن تكون

موحدة؛ إذ حمل عِلْم الجزائر بطولقة، ونال عِلْم الزيتونة بتونس، فاستحق مشيخة الأزهر بمصر.

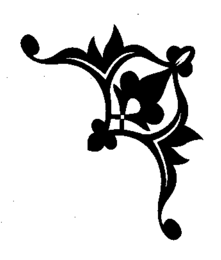
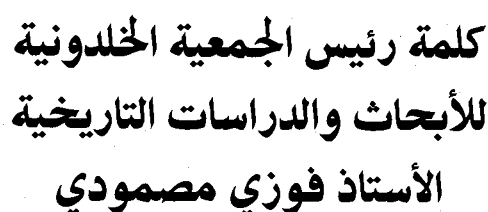
أيتها السيدات، أيها السادة!

لا يسعني - في الأخير - إلا أن أرحب من جديد بالسادة الضيوف، وأشكر الجمعية مرة ثانية على هذه المبادرة، متمنياً لأشغال ملتقانا هذا كل التوفيق والنجاح، وللجميع الإقامة الطيبة.

شكراً على كرم إصغائكم، وحسنِ انتباهكم، وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير والسلام.

تحيا الجزائر. المجد والخلود للشهداء الأبرار، وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر. شكراً لكم.



حفل افتتاح الملتقى

كلمة رئيس الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية الأستاذ فوزي مصمودي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أيها الجمع الكريم!

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

السيد والي ولاية بسكرة. السيد رئيس المجلس الشعبي الولائي. السيد رئيس المجلس البلدي ببسكرة. السادة المنتخبون في المجلس الشعبي الوطني والولائي والبلدي. فضيلة الشيخ عبد القادر عثماني ـ حفظه الله ـ. السيد الدكتور محمد عربي الزبيري رئيس الجلسة. السادة المحاضرون، والضيوف الذين لبّوا دعوتنا، وقدموا من مصر الكنانة، وسورية الشام، وتونس الخضراء، ومن كل فج عميق من جزائرنا الحبيبة بلدِ المليون ونصف المليون شهيد.

نقول لكم: حللتم أهلاً، ووطئتم سهلاً، في عاصمة الزيبان ولاية «بسكرة» مرقد الصحابة والتابعين، وعلى رأسهم: فاتحُ بلاد المغرب البطل عقبة بن نافع الفهري.

أهلاً بكم في بلدة العلم والعلماء، والمناضلين والشهداء، بلدة أحمد ابن نصر الداودي، أولِ شارح لـ «صحيح البخاري» في العالم الإسـلامي، والمحدِّثة أم الحياء البسكرية، والعلامة عبد الرحمن الأخضري، وسيدي خالد بن سنان العبسي، والشاعر محمد العيد آل خليفة، والصحفي القدير محمد سعيد الزاهري، والكاتب محمد الهادي السنوسي الزاهري، والمصلح الطيب العقبي، والشيخ عبد اللطيف سلطاني، والشيخ محمد بن عابد الجلاّلي، والشاعر عاشور الخنقي، والأبطال: محمد العربي بن المهيدي، ومحمد شعباني، ومحمد خيضر، وزيان عاشور، وسي الحواس، وغيرهم من أبطال الجزائر، ووصولاً إلى العلامة الشيخ محمد الخضر حسين العثماني، الطولقي، البسكري، الجزائري.

أيها السادة الأفاضل!

ها هي ذي الجمعية الخلدونيـة في موعدها السنوي، وتقليدها القارّ: (ملتقى بسكرة عبر التاريخ)، الذي اخترناه في الملتقى الماضي، الذي خصصناه للفاتح عقبة بن نافع الفهري، أن يكون محور هذه الطبعة خاصاً بالعلامة محمد الخضر حسين شيخِ الأزهر سابقاً، وصاحب التآليف الكثيرة، ومنشئ أول مجلة في تونس هي «السعادة العظمى» عام ١٩٠٤م، ورئيس تحرير مجلات: «الهداية الإسلامية»، و«نور الإسلام»، و«لواء الإسلام» بمصر، وممثل الدولة العثمانية بألمانيا، ورئيس لجنة تحرير بلاد المغرب وشمال إفريقية من الاحتلال، وأول عالم من خارج مصر يتبوأ منصب شيخ الأزهر الشريف، اخترناه ليكون المحور الرئيس في هذا الملتقى؛ ليتناوله نخبة من المؤرخين والباحثين: عالماً، ومصلحاً، وأديباً، وشاعراً، ولغوياً، وسياسياً، ومؤرخاً، وصحفياً،

وشيخاً للأزهر، فهو علامة موسوعي بكل جدارة واستحقاق.

واسمحوا لي ـ سادتي ـ أن أتذكر فارساً من فوارس الجزائر، كان دائماً حاضراً معنا هنا في «بسكرة» في ملتقياتنا الماضية، ولكنه لحق بربه منذ أسابيع معدودة، ألا وهو المؤرخ الجزائري الدكتور يحيى بوعزيز ـ رحمة الله عليه ـ، فتحية له. وقد قامت الخلدونية بتكريمه في الملتقى الثاني الخاص بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان، رفقة رفيقه الأستاذ والباحث والمحامي سليمان صيد ـ رحمة الله عليه ـ كذلك.

ولا يفوتني ـ في الأخير ـ أن أشكر كلَّ من أسهم معنا من قريب أو من بعيد، ووقف إلى جانبنا في مواصلة تنظيم هذا الملتقى، وأخص بالذكر: معالي السيدة وزيرة الثقافة، ووزارة الشؤون الدينية والأوقاف، والسيد والي ولاية «بسكرة» الذي ما بخل علينا بشيء، وظل متابعاً ومشرفاً على هذا الملتقى.

و ـ أيضاً ـ: بنك البركة، وبلدية بسكرة، ومديرية الثقافة، والمجلس الإسلامي الأعلى، والزاوية العثمانية بطولقة.

وكذلك: المكتبة الوطنية بالحامة، والغرفة الجهوية للصناعات التقليدية والخزف، ومؤسسة التلفزة الوطنية، وإذاعة بسكرة الجهوية التي تنقل هذا الحفل على المباشر، فلها جزيل الشكر ـ أيضاً ـ، وجريدتي: «الشروق» و«صوت الأحرار»، وكل الصحف الوطنية التي أسهمت وتفاعلت مع هذا الحدث.

و ـ أيضاً ـ: الوكالة العقارية، ومؤسسة عموري ومناني.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى حضرة المؤرخ الدكتور محمد عربي الزبيري الذي كان معنا منذ البداية، وقد ذلل لنا الكثير من الصعاب؛ كما

ننوه بمجهودات ضابط جيش التحرير الوطني المجاهد ابن عاشور محمد، فتحية لهما.

كما نرجو من الهيئات المعنية مستقبلاً اعتماد هذا الملتقى بصفة رسمية، وتخصيص الغلاف المالي، وخاصة وزارة الثقافة؛ لتمكيننا من مواصلة تنظيمه بصفة سنوية ومنتظمة مع طبع أعماله.

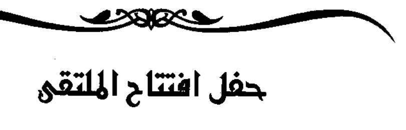
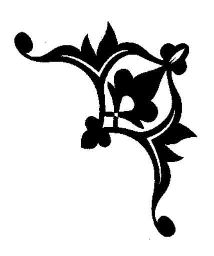
وبالمناسبة: فقد قمنا بطبع كتاب الشيخ أحمد خمّار «تحفة الخليل في نبذة من تاريخ بسكرة النخيل»، وقد طبع برعاية وتدعيم السيد والي ولاية «بسكرة»، كما وعد هو شخصياً السيد المرحوم أحمد خمّار، و ـ أيضاً ـ أذكركم أن هناك معرضاً لمخطوطات أعلام الزيبان، و ـ أيضاً ـ هناك معرض علماء الزيبان، ومعرض لمؤلفات العلامة محمد الخضر حسين بدار الثقافة (أحمد رضا حوحو).

مرة أخرى أشكر الجميع، ووفقنا الله لما فيه خير العباد والبلاد.

تحيا الجزائر، والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



كلمة الشيخ عبد القادر عثماني شيخ زاوية (علي بن عمر)

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيها الجمع الكريم المبارك.

في هذا اليوم المبارك، نلتقي فيه على ذكرى أمجادنا وعلمائنا، والذكرى - كما قال تعالى -: ﴿تنفع المؤمنين﴾ [الذاريات: ٥٥]، وإحياء الذكريات هو إحياء للقلوب، وإحياء للقيم، وإحياء لمجد الوطن ولأمجاده، وإحياء للعلم الذي هو بضاعتكم - أيها الشيوخ - وهو شعاركم وزادكم وزينتكم.

نلتقي في هذا اليوم المبارك برعاية وعناية السيد والي الولاية، والسيد رئيس المجلس الشعبي الولائي، اللذين يوليان مثل هذه الملتقيات كل عناية واهتمام، وإعانة ورعاية، فجزاهما الله خيراً.

وأشكر الجمعية الخلدونية التي نظمت هذا الملتقى، وعلى رأسها رئيسها الأستاذ فوزي مصمودي، وجماعته العاملة الناشطة؛ فقد قام بتنظيم هذا الملتقى بعزيمة صادقة، وصمود قوي.

نسأل الله له ولجمعنا هذا دوام التوفيق والنجاح في كل حال وعمل.

والسلام عليكم ورحمة الله.



كلمة الشيخ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

السيد والي ولاية بسكرة ـ السيد رئيس المجلس الشعبي الولائي ـ حضرات السادة المنتخبين ـ أيها الإخوة الباحثون العاملون في هذا الميدان، ميدان تاريخ عظمائنا وأمجادنا!

إنه ليسعدني أشد السعادة أن أحضر هذا الملتقى الذي يبحث في تاريخ الإمام محمد الخضر حسين، الذي جمع بين جوانب كثيرة في شخصه الواحد، فهو رجل قرآني، مؤرخ، صحفي، مفسّر، لغوي، جمع هذه الجوانب كلها، ودعا إلى الوحدة الإسلامية، وناضل في ذلك المجرى النهضوي التاريخي من جمال الدين الأفغاني إلى محمد عبده، إلى غيرهما من المصلحين الذين وهبوا حياتهم وعقولهم وأبدانهم ـ أيضاً ـ في سبيل النهضة الإسلامية، والنهضة العربية، والتحرر.

وهو رجل سياسي، ورجل مصلح، جمع هذه الجوانب الغنية كلها، فهو نور، انطلقت نشأته من هذا الشمال الإفريقي إلى الشام، إلى مصر، وأشع

(١) ألقاها نيابة عنه الدكتور عمار الطالبي نائب رئيس الجمعية.

على هذه المواطن كلها العلمَ والمعرفة، والصدق والكفاح؛ من أجل تحرر هذه الشعوب من رِبْقَة الاستعمار، فقد حُكم عليه بالإعدام، وسجن، ولكنه لم تلن له قناة، ولم يسترح له بال إلى أن أصبح شيخاً لأكبر جامعة إسلامية تاريخية في أرض الكنانة مصر.

وفي هذه المواقف السياسية كلها ـ بما فيها هذا المنصب ـ الذي لم يكن ليرغب فيه، ولم يكن يطمح إليه، بل جاءت السلطة الثورية في مصر، ورغبت منه أن يتولى هذا المنصب؛ لما يعرفون عنه من صدق وإخلاص، وثبات وجهاد، ولكنه ـ أيضاً ـ لم يرض عن هذا المنصب، واستقال منه؛ لأنه لم يرض عن أشياء كان يرجو أن لا تكون كذلك.

كما أنه تولى القضاء في «بنزرت» سنة وأربعة أشهر، ولكنه ـ أيضاً ـ رأى أن هذا المنصب لا يليق به، فاستقال منه، وحنَّ إلى موطنه الأصلي العلمي، وهو الزيتونة، التي أخذ يدرِّس بها. وأخذ يقوم بحركته الإصلاحية السياسية في البلاد التونسية؛ بإلقاء محاضرات، وإنشاء صحافة ومجلات، وكان يشارك في هذا النشاط الحي القوي في البلاد التونسية التي سبقت البلاد الأخرى في هذا الميدان، ونحن في الجزائر كنا نطبع الكتب في تونس، وأغلب المؤلفين في الجزائر يذهبون إلى تونس لطبع مؤلفاتهم، فكانت تونس، وكان جامع الزيتونة موئلاً للدارسين والباحثين، والطلبة الذين يهبون أنفسهم للدرس، لا من أجل تولي منصب؛ لأنهم إذا رجعوا للجزائر، فلا منصب لهم، ولا حظ لهم، وإنما يكافحون من أجل العربية، ومن أجل الإسلام؛ ليحافظوا على هذا التراث الذي أخذت السلطة الفرنسية ـ في ذلك الوقت ـ تطمس معالم هذا الدين، ومعالم هذه الثقافة، وأخذت العربية تندرس في هذه البلاد،

وأصبح الناس في ظلام حالك، لولا هذه النهضة التي قام بها هؤلاء، وأشعت أيضاً على الزيبان، فكان الطلبة في هذه المناطق: الزيبان الشرقية، والغربية يطالعون «العروة الوثقى» سراً، يتداولونها بينهم، ويتابعون هذه النهضة التي يقوم بها كبار المصلحين في المشرق الإسلامي، وفي مغربه، فكان هناك أنصار حركة محمد عبده في الزيبان، وكذلك في العاصمة الشيخ عبد الحليم بن سمّاية، ومحمد مضرَّبة، ومن إليهم.

وكذلك هنا في هذه المنطقة ابن ناجي وغيره، كانوا يتابعون هذه الحركة، ويتدارسون أمرهم في هذه البلاد، فنهضت نهضة جديدة في الجزائر، وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ وأصحابه.

وإني هنا أعتذر لكم عن عدم حضور فضيلة الشيخ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذي كلفني أن أعتذر لكم باسمه، وأن أنوبه في هذه الكلمة، التي أرجو أن تكون نافعة لشبابنا هذا: أن يتوجه إلى دراسة هذه الأمجاد ـ كما تفضل الشيخ عبد القادر ـ التي غفلنا عنها، وشبابنا لا يُعنى كثيراً بدراسة العظماء من رجالنا؛ فإن الأمة إذا نسيت رجالها وأبطالها وأمجادها، فقد نسيت تاريخها، ونسيت جذورها، فهذه الأعلام التي ناضلت من أجل حياتنا اليوم حياةِ الحرية التي نعيش فيها باستقلال وطننا، هذا كله بفضل هؤلاء، فلا بدّ أن نسجل حياتهم في قلوبنا قبل أن تُسجل في طروسنا وصحائفنا الورقية أو غير الورقية، فالشباب اليوم مدعو لأن يسلك هذا المسلك، وأن يدرس تراثه وأمجاده، وأن لا يكون عنها من الغافلين.

وكذلك في هذا الجنوب الصحراوي، أنتم تعلمون الشيخ الطيب العقبي كيف بدأ في إنشاء جريدة «صدى الصحراء» في هذه المنطقة، ثم انتقل بعد

ذلك إلى الجزائر، وغيَّرها تغييراً، حوَّل أولئك المجرمين في العاصمة إلى أناس مصلحين، وغيَّر وجه الجزائر العاصمة من حيث العادات الاجتماعية والأمن الاجتماعي.

وكذلك ـ كما لا يخفاكم ـ إخواننا الإباضيون: إن الشيخ بيوض، وقبله الشيخ اطفيش، وغير هؤلاء الأعلام. إخواننا الإباضية قاموا بنهضة، وحافظوا على اللغة العربية، وعلى الإسلام، ولم يكونوا من دعاة العرقية، ولا البربرية، وما إلى ذلك من نزعات ربما يدعو إليها بعض الناس، إنما حافظوا على هذه الثقافة التي عجنت العرب والبربر في بوتقة واحدة، فأصبحنا لا نستطيع أن نفرق أن هذا بربري أو عربي؛ لأن الدماء امتزجت، وامتزج التاريخ بهذه الأرض الطيبة، وتنازل الناس عن مصالحهم الشخصية.

فنسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتغمد برحمته شيخنا وإمامنا الشيخ محمد الخضر حسين، وأن يجزيه أحسن الجزاء؛ لما قدم لهذا الوطن، ولأوطان الإسلام كلها من خدمات، ومن علم وجهاد. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.



كلمة رئيس الجمعية
بتكريم الباحث علي الرضا الحسيني

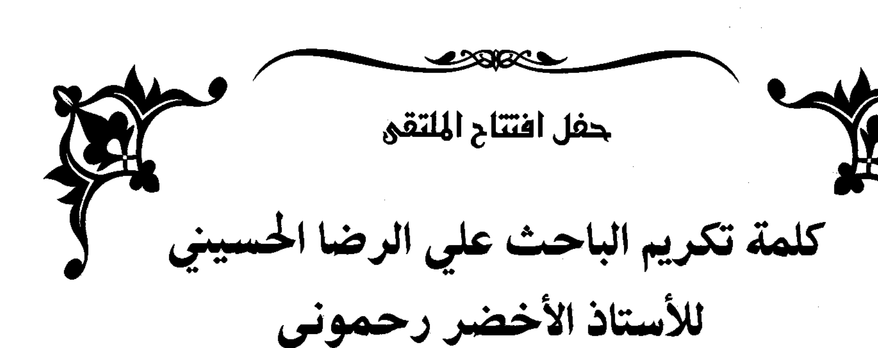
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

في هذا الملتقى ـ الذي خُصص لحياة ومسيرة العلامة الموسوعي محمد الخضر حسين الطولقي الجزائري ـ يسعد الجمعية الخلدونية أن تكرم واحداً من الذين أبلَوْا عناية فائقة وكبرى لجمع أعماله وأبحاثه ودراساته.

هذا الشخص البحاثة قام بجمع جميع أعماله، وقام بطبعها في أكثر من أربعين أو خمسين كتاباً، وهي موجودة في المعرض هنا، الأعمال الكاملة للعلامة محمد الخضر حسين، ومحمد المكي بن عزوز البرجي من برج ابن عزوز، و ـ أيضاً ـ قام بجمع أعمال والده الشيخ زين العابدين، ألا وهو الأستاذ البحاثة علي الرضا الحسيني ابن أخي الشيخ محمد الخضر حسين. فليتفضل مشكوراً.

ولكن هناك كلمة حول إنجازات هذا الباحث، يقدمها الأستاذ الأخضر رحموني عضو هيئة تحرير المجلة الخلدونية واللجنة العلمية، فليتفضل مشكوراً، ثم نعرض ـ إن شاء الله ـ على التكريم.

❑ ❑ ❑



كلمة تكريم الباحث علي الرضا الحسيني للأستاذ الأخضر رحموني

أيها الجمع الكريم!

إن اجتماعنا في هذا الحفل البهيج الذي تُزيِّن صفوفه نخبةٌ من رجال العلم والثقافة، والجهاد والسياسة، والتي تستحق منا كل الشكر والعرفان، تسعى من خلاله الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية إلى تكريم الأستاذ الباحث علي الرضا الحسيني كعربون وفاء، واعتراف بفضائل الأستاذ في إحياء التراث المغاربي، وخاصة إعادة بعثٍ لأعمال العلامة محمد الخضر حسين إلى النور.

وبرغم مشقة السفر، والابتعاد عن الأهل والخلاّن في سورية الشقيقة، فقد أبى إلا أن يكون حاضراً بيننا اليوم، ولبى إيجابياً دعوة الجمعية الخلدونية عندما علم أن ولاية «بسكرة»، ومن خلالها الجزائر ستحتفي بالعلامة محمد الخضر حسين، وقد خُصص له ملتقىً وطني يحمل اسمه. وليس هذا بالغريب عن رجل هو من ورثة الأنبياء؛ لأننا نكرم في شخصه صفة العالم الذي كرمه الله، وأوجب تكريمه وطاعته.

إن الأمة العظيمة هي التي تقدر أبناءها الذين بذلوا من أجلها الغالي، من أجل عزتها وكرامتها وحريتها، والتعريف برجالاتها، وتخليد مآثرهم، والأمة الهلوك هي التي تقلل من شأن من عظَّم شأنها، ورفع راية مجدها عالياً،

وحافظ على مقومات شخصيتها.

فبورك في كل من سعى إلى هذا التكريم، وخاصة أن الأستاذ علي الرضا الحسيني يستحق منا جميعاً كل التقدير والإجلال؛ فقد قضى سبعاً وثلاثين سنة في البحث والجمع والتحقيق، وطبع تراث عمه الإمام محمد الخضر حسين؛ حيث نشر أعماله الكاملة، ومنها: روائع مجلة «الهداية الإسلامية» التي عاش معها، وراجعها مدة خمسة وعشرين عاماً لقطف ثمارها. وكذا الأعمال الكاملة لوالده العلامة زين العابدين بن الحسين، وعمه اللغوي محمد المكي ابن الحسين، وخال والده النابغة محمد المكي بن عزّوز، والآخرين من السادة الفضلاء أهل التقوى والصلاح.

فقد نشر الأستاذ علي الرضا الحسيني أكثر من ستين كتاباً بين تحقيق وبحث، وإنتاج وإبداع شعري؛ تقديراً لجهود هؤلاء المصابيح الأعلام، وإثراء للخزانة العربية. والغاية من هذا الجهد الكبير، لا يهدف منه الترويج لاسم العائلة، بل تقريب أعمال هذه النجوم الساطعة إلى القارئ، والتسهيل على الدارس، وحفظ الآثار في كتاب، بدلاً من ضياعها متناثرة في الصحف والمجلات الدورية. وكيف لا؟! والأستاذ علي الرضا الحسيني من أسرة خَدمت، وعُرفت بخدمة العلم ونشره، وبالزهد والتقوى، وينسب فرعها إلى الدوحة النبوية الشريفة، فجَدُّ والده من جانب الأب هو الشيخ علي بن عمر مؤسس زاوية (طولقة) العريقة، والتي تُعد من القلاع العلمية في الجزائر، التي حافظت على لغة القرآن الكريم منذ تأسيسها؛ عن طريق نشر العلم الصحيح، والتربية، ومساعدة الفقراء والمساكين، وتعليمهم بالمجان، ولا تزال تواصل رسالتها الاجتماعية إلى يوم الناس هذا تحت إشراف فضيلة الشيخ عبد القادر عثماني ـ حفظه الله ـ.

وجَدّ والده من جانب الأم هو الشيخ مصطفى بن عزوز، الذي رفض الاحتلال الفرنسي للجزائر، وأرشده شيخه علي بن عمر بالذهاب إلى تونس، وفعلاً هاجر إلى بلدة «نفطة» بالجريد، وأسس بها زاوية رحمانية كبرى، تحولت بمرور الزمن إلى ملجأ وملاذ لكل الفارين من الاستعمار الفرنسي، والمهاجرين الجزائريين طوال القرن التاسع عشر والعشرين.

وقد أفرد الأستاذ علي الرضا الحسيني لكل من زاوية «طولقة»، وزاوية «نفطة» كتاباً قيماً.

ووالده هو العلامة زين العابدين بن الحسين الذي ولد في تونس، وآثر مع كامل أسرته الفرار من الاستعمار الفرنسي، وكانت وجهتهم مدينة دمشق، عندما بدأت السلطات الفرنسية في ملاحقة أخيه الإمام محمد الخضر حسين، وحكمت عليه بالإعدام؛ لاشتغاله بالنضال الوطني، ودعوته المبكرة إلى تحرير أقطار المغرب العربي واستقلالها.

فاحتضنت سورية هذه العائلة، كما احتضنت عائلات جزائرية أخرى لعبت دوراً عظيماً ومؤثراً في التاريخ الحديث لسورية، وقاومت الاستعمار، وحررت الشعوب، وحافظت على الإسلام والعروبة في وجه الأعداء، وما الشيخ طاهر الجزائري إلا نموذج.

وفي سورية عمل الأستاذ زين العابدين في حقل التربية أربعين عاماً مدرساً للعلوم الإسلامية واللغوية في مختلف المدارس الرسمية، وكان يلقي الدروس الأسبوعية باستمرار طوال أيام حياته في مساجد دمشق، لا سيما في الجامع الأموي.

وفي دمشق ولد الأستاذ علي الرضا الحسيني في ١٧ نوفمبر ١٩٣٢م، وبها تلقى تعليمه.

أما عمّ المحتفى به، فهو العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين، الذي عَدّه بعض الدارسين بأنه جاحظ عصره، وكتبُه العديدة تؤكد تضلعه في اللغة، وتعمقه في الدراسة، وقدرة فائقة على الإحاطة بالموضوع، وتتبع تفاصيله.

أما عمّه الآخر، فهو شخصية هذا الملتقى الذي ستذكر فعالياته مجموعة من الأساتذة الجامعيين، نتعرف من خلالهم على محطات مهمة في حياته، ومسيرته العلمية والنضالية.

وأكتفي هنا بتهنئة الجزائر التي رفَعَتْها إليه عند تقلده مشيخة الأزهر الشريف، وهي قصيدة بتوقيع أمير شعراء الجزائر الشيخ محمد العيد آل خليفة، نشرها في جريدة «البصائر» العدد ٢٠٨ الصادر سنة ٥٢، ومن قوله:

هَنِّــئِ الأزهــرَ الــشَّريفَ بــشيخٍ ... طــابَ أُنْــساً بــه وزادَ انْــشِراحا

حازَ آلُ الحـسينِ بالخِـضْرِ الحـرِّ ... مَــدَى فَخْــرِهِمْ وفــازوا قِــداحا

أورثَ الله منـــه طولقـــة العِـــزْ ... قَ وَأَوْرَى بِنفْطَـــةَ المِـــصْباحا

تـــونسٌ تقبـــلُ التّهـــاني نَـــشْوَى ... وتُهـــادي الجزائـــرَ الأفراحـــا

وخالُ والد الأستاذ علي الرضا الحسيني هو العلامة محمد المكّي بن عزّوز، أحدُ العلماء الكبار الذين طرقـوا أبواب العلوم الشـرعية واللغويـة والأدبية، ولروحه الوطنية دعا الجزائريين إلى مقاطعة فرنسا اقتصادياً؛ مما دعا سلطات الاحتلال الفرنسي إلى مطاردته، فرحل إلى إستنبول؛ حيث عينه السلطان عبد الحميد مدرِّساً للحديث والتفسير في (دار الفنون)، وتوفي في

«الآستانة» تاركاً وراءه مجموعة من الكتب القيمة والرسائل.

أفلا يحق للأستاذ علي الرضا الحسيني سليلِ هذه العائلة المباركة، أن يفتخر بنسبه، والانتماء إلى هذه الكوكبة من العلماء الذين أضاؤوا بأعمالهم طريق الهدى:

ذاكَ عَمِّي (الخِضْرُ) و(الزَّيْنُ) أَبـي — والنَّـدى (المكِّـيُّ) بَحْـرُ الأدبِ

وجُـــدودي سِـــيَرٌ مَنْقوشَــــةٌ — فــي ذُرا المَجْـدِ بمـاءِ الـذَّهبِ

وخَـــؤول يُنْسَبُ العــزُّ لهــم — إنْ تَـسَلْ أهـلَ التُّقـى والنَّـسَبِ

لِـمَ لا أَمْـضي علـى مِنْهـاجِهمْ — ورِضـــا الله قُـــصارى مَطْلبـــي

وبرغم أن الأستاذ علي الرضا الحسيني مسكون بهاجس البحث، فإنه يمازج هذه الهواية المفضلة، مع مهنة المحاماة التي بدأ في ممارستها منذ ٢٦ أكتوبر ١٩٦٥م، وما زال حتى اليوم، إضافة إلى حبّه للأدب والشعر، فهو الشاعر الذي عانق في قصائده وجدانَ الفرد المسلم الذي ينبض قلبه بالاعتزاز والشعور العميق بالانتماء إلى هذه الأمة الماجدة، فعبَّر عن هموم الضعفاء في عصر العولمة، وانحطاطِ قيم حضارة الغرب.

فجاء شعره أصيلاً في منطلقاته، غنياً في مضمونه، حيّاً متدفقاً بالعاطفة النبيلة الصادقة، متوهجاً بالثقة المطلقة بأن القصيدة وحدها التي تقودنا إلى المجد والسؤدد، خاصة في قصائده التي رفعها إلى أبنائه وأحفاده ووطنه الكبير. وكان لفلسطين النصيبُ الأوفر من قصائده.

وقد أصدر من الدواوين الشعرية: «بثينة»، «زين»، «قلب شاعر»، «أناشيد الطفولة»، «ورد وأشواك»، وغيرها.

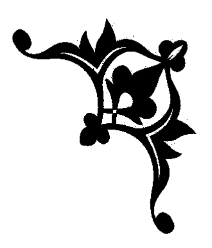
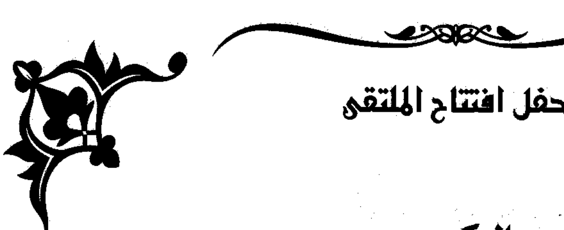
ومن قصائده في الشوق إلى الوطن:

وَطني نَشرْتُ على رباكَ حَياتي	وغَرَزْتُ في قَلْبِ العِدا راياتي
لا نَجْمَ يَعْلو فوقَ نجمِكَ عِزَّةً	أوْ مَنْعَةً وعَراقةَ الهاماتِ
وَطني أحِنُّ له حُنوَّ أمومةٍ	وأُبوَّةٍ وصَبابةِ النَّفَحاتِ
فيكَ الحَلاوةُ والمَرارةُ تُشْتَهى	والخيْرُ فيكَ بأطيبِ الثَّمَراتِ
إنْ غِبْتُ عنكَ أَهيمُ طِفْلاً شارداً	في غُرْبَتي وَترحُّلي وشَتاتي
قَلَمي وشِعْري والفُؤادُ وخَاطِري	لكَ تَنْتمي بالحبِّ والصَّبَوات

وعندما نتذكر تونس، يقتضي الواجب أن نشير إلى أن الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، قد وشَّح صدرَ الأستاذ علي الرضا الحسيني بوسام الاستحقاق الثقافي؛ تقديراً للخدمات الثقافية التي قدمها لتونس، وخاصة اهتمامه الكبير بآثار عائلة الحسين.

وإذا كان أستاذنا قد أهدى تونس ديوانه الموسوم «تونسيات»، فقد خصَّ ملحمةَ القرن العشرين الثورةَ الجزائرية الكبرى برواية تحمل عنوان: «الطريق إلى القمة»، تدور أحداثها حول ثورة أول نوفمبر. ومن الأعمال نتمنى أن تكلل أعماله الشعرية بديوان جديد يختار له من العناوين: «جزائريات».

شكراً أستاذنا، ونتمنى لكم موفور الصحة والعافية لمواصلة المشوار الأدبي والفكري، والمرابضة في خندق الكلمة المضيئة كدليل اعتراف للسلف، والإشارة إلى حمل المشعل الذي أناره علماؤنا في الماضي، فصنعوا به أقوى أمة لا تعرف الخلاف ولا الهوان في ظل الأخوة والوحدة، وشكراً للجميع. والسلام عليكم.

التكريم

افتتح الأستاذ فوزي مصمودي رئيس الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية التكريمَ قائلاً:

ومباشرة نشرع في تقديم بعض الهدايا لهذا البَحَّاثة الذي إن صح التعبير؛ اعترافاً بعلمه وثقافته وبكتبه، وما أخرجه لنا من نفائس ودرر خاصة بعائلته والعائلة الحسينية.

وليتفضل السيد المكرَّم علي الرضا الحسيني.

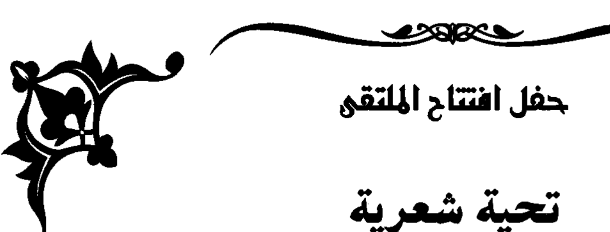
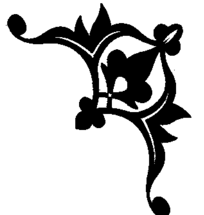
ونتشرف بالسيد والي ولاية «بسكرة» ليقدم له هاته الهدايا، وهي:

- لوحة آيات قرآنية مذهبة.
- (برنس)[1] أصلي من وبر الجمل من ولاية «بسكرة».
- شهادة شرفية باسمكم جميعاً، وباسم جميع سكان عاصمة الزيبان «بسكرة» بدون استثناء، نقدمها لأستاذنا البحاثة علي الرضا الحسيني.
- وسام منقوش على النحاس.

❒❒❒

---

(١) (البرنس): كل ثوب رأسه منه، ملتزق به.. وهو لباس تقليدي مشهور، وخاصة في المغرب العربي، والجمع (برانس).

تحية شعرية
لعلي الرضا الحسيني بعد التكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الحفل الكريم!

والله! إني عاجز عن شكر هذه الولاية العظيمة المجاهدة المباركة. وقد أوحت لي عند مجيئي بالطائرة إلى هنا بعد ظهر اليوم أبيات، فلتتقبل مني هذه الولاية الكريمة هذه الأبيات البسيطة:

تحية إلى بسكرة

لسانُ الوَفا نادى بصَوتٍ مُجَلْجلٍ ... بِسِكْرَةُ مـيلادي وأَهْلـي ومَنْزلـي

علـى بابِهـا يلقـاكَ وَجْـهُ بُطولـةٍ ... وفي ساحِها آيـاتُ نَـصْرٍ مُحَجَّـلِ

إذا نطقَتْ أحجارُها أوْقدَتْ لَظًـى ... وكمْ جَحْفَلٍ أفْنَتْه في إِثْرِ جَحْفـلِ

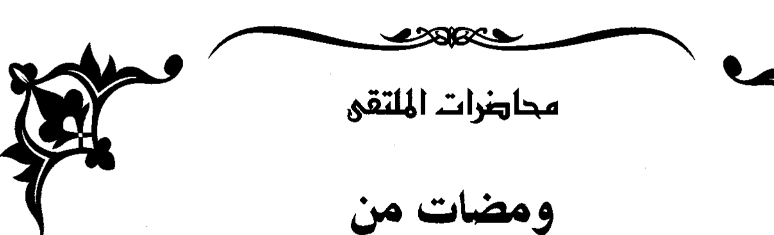
وفي ثَوْرةِ التَّحريـرِ هبَّـتْ طَليعـةً ... تذيقُ العِدا قَهْـراً بـأَكْؤُسِ حَنْظـلِ

وفي السِّلم دارٌ لِلـضيافَةِ والنَّـدى ... تعـــانِقُ روّادَ التُّـراثِ بمَحْفِـــلِ

وحَقّاً غَدَتْ للفِكْر مَرْقًى ومُلْتقًـى ... ومنبـرَ إلهـامٍ لأَعْــذَبِ مَنْهَـــلِ

بِـــسِكْرَةُ يـــا أُمَّ الكِـــرامِ تَحيَّـــةً ... وقُبْلَةَ شُكْرٍ في جَبينِكِ مِنْ (علي)

❑ ❑ ❑



ومضات من
حياة العلامة محمد الخضر حسين

الأستاذ علي الرضا الحسيني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الحفل الكريم!

مـاذا أُحاضِـرُ بينكم أو أَخْطُبُ	في مُلْتقَى الأَفـذاذِ أَمْرٌ يـصعُبُ
ومُحَمَّدُ الخِضْرُ الحُسَينُ شـعارُهُ	ذاكَ الإمـامُ المَغْربِـيُّ الكَوْكَـبُ
عُذْراً فقـد يكبـو الجـوادُ بفـارسٍ	إنَّ الحروفَ مِـنْ المهَابـةِ تَهْرُبُ

يقف المرء أمام بحر لا ساحل له، ويتساءلُ مع فكره وقلمه من أين يسبرُ غوْرَه، ويغوص في أعماقه، ويستطلعُ مكنوناتِه؟؟

هل يُقدِّمُ الإمامَ محمدَ الخضر حسين مفكراً مغربياً إسلامياً؟ أَمْ مفسّراً؟ أم محدّثاً؟ أو وطنياً مكافحاً؟ أم داعية؟ أم خطيباً؟ أم محاضراً؟ أم قاضياً؟ أم مصلحاً؟ أم لغوياً؟ أم أديباً شاعراً؟ أم رحّالة؟ أم صحفياً؟ أم إماماً للأزهر؟

كل هذه الصفات كان من عمادها، وانتمى إليها، وعَمِل لها بإخلاص، فقد أودعَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه من المواهب المتعددة التي قلّما نجدها في عَلَم من أعلام الإسلام.

فــي كــلِّ أَصْــقاعِ الــبلادِ مــآثِرٌ   تُنْبيــكَ أنَّــهُ شَمْــسُها لا تَغْــرُبُ

أمضيتُ ما يزيد عن أربعين عاماً بين آثاره وآخرين من أعلام الأسرة وغيرهم بحثاً ونشراً. وإذ ألتفتُ اليومَ إلى الماضي وما فعلتُ، أجدني مقصِّراً فيما أنجزتُ، وفي كُلِّ حالٍ ومآل، أحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمائه، بما استطعتُ أن أُثري المكتبة الدينية الإسلامية بهذا التراث القيِّم.

هذه وَمَضات من حياة الإمام تلمعُ كلمح البصر، وتظهرُ للعيان:

في مدينة «طولقة» الطاهرة، وشقيقتها «البرج» المباركة، تفتّحت عائلتان شريفتان، وتصاهرتا، وتفرعتا إلى شجرتين باسقتين، امتدت فروعهما في العالم الإسلامي، وضُرِبَتْ جذورُهما في أعماقِ التُّراب الجزائري المقدَّس، فأينعتا ثماراً طيّبة، منها: الإمام محمد الخضر حسين ـ رضوان الله عليه ـ.

أبوهُ التّقي الزاهد الحسينُ ابن الولي الصالح علي بن عمر، وأمه السيدةُ الفاضلة حليمة السعدية بنتُ الولي الصالح مصطفى بن عزّوز ابن الولي الصالح محمد بن عزّوز.

الجَدُّ والأبـوانِ مَنْبَتُ «طولْقَةٍ»   فترابُهـا مِـسْكٌ شَـميمٌ طَيِّـبُ

مَن كانَ في تُرْبِ الجزائـرِ جَـذْرُهُ   فإلى المعـالي والمفـاخرِ يُنسَبُ

وهنيئاً للإمام بأصوله الجزائرية.

* **الانتقال إلى تونس:**

انتقل الشيخ مصطفى بن عزّوز من «طولقة» إلى مدينة «نفطة» في الجنوب التونسي سنة ١٢٥٧هـ - ١٨٣٧م لتأسيس زاوية علمية فيها، بناء على توجيه شيخه علي بن عمر، وتزوج الشيخ الحسين بابنة شيخه السيدةِ حليمةَ السعدية. وقامت الزاوية بتعليم القرآن والعلوم الشرعية، وأعمال الجهاد ضد المستعمر، كما تشهد بذلك الوثائق التاريخية.

ولد الإمام في مدينة «نفطة» في ٢٩ من رجب ١٢٩٣هـ، وعرفت بالكوفة الصغرى، لما اشتهر بها من العلماء والفقهاء، واكتسب شرفَ الانتساب إلى الدوحة النبوية الطاهرة من الجهتين: أبيه، وأمه:

نالَ الوصولَ بآلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ ... شَرَفاً فما لي في صِفاتِهِ أُطنِبُ

بدأ في تعلّم القرآن وحِفْظِه في الخامسة من عمره، وتلقى العلوم الشرعية على أيدي كبار الشيوخ، وساهمت والدته في تربيته، كما يروى عن محفوظاتها في المعارف الإسلامية.

في دَوْحَةِ التّقوى وفي أَظْلالِها ... يُسْقى منَ العِلْم الرّفيعِ ويَشْرَبُ

انتقلت العائلة إلى مدينة تونس، ودخل الإمام الجامع الأعظم جامعَ الزيتونة في ٤ من شهر رجب ١٣٠٧هـ، وحصل على شهادة التطويع يوم الأحد ١٤ صفر عام ١٣١٦هـ، وأخذ عن كبار شيوخه؛ كالشيخ سالم بو حاجب، وعمر بن الشيخ، وأحمد بو خريص، وخالهِ الشيخ محمد المكي بن عزوز، والشيخ محمد بن يوسف، والطيب النيفر.

يـا قلعــةَ الإســلامِ يـا زيتونــةً وبِحِضْنِها شَمَخَ الإمـامُ الأَنجـبُ

وفي سنة ١٣٢٥هـ تولى وظيفة التدريس فيه، وفي نفس العام عُيّنَ مدرساً في الصادقية لدرس الإنشاء.

وعُيِّنَ عضواً في لجنة لتأليف كتابٍ شامل لتاريخ المملكة التونسية.

وأجازه خاله العلامة محمد المكي بن عزوز بِخَطِّه في دفتر التلامذة الخاص بالإمام، قال فيها: «وممن تأهل لها ـ أي: الإجازة ـ وكان أحقَّ بها وأهلَها: ابننا الألمعيُّ الماجد، ذو الخلال الفاخـرة والمحامـد، الدرّاكةُ الشيخ أبو عبدالله سـيدي محمد الخِضْر ابن الناسـك الأوّاه، العارف بالله، الأستاذ الشيخ سيدي الحسين، الشريف العلوي العزّوزي، سارَ على الدَّربِ فَوصَلْ، ودأب بحزم فأصبح والمقصودُ لديه حَصل، جانَبَ الكسَلَ، فاشْتار العَسَلْ، جافى الرّاحة، فملأ الرّاحة، بشهادة جهابذة الجامعِ، وحذّاقِ كِرامِ المجامع».

تقلّد الإمام منصـب القضاء في مدينة «بنزرت»، والخطابة والتدريس في الجامع الكبير في ربيع الثاني ١٣٢٣هـ، وأقام له الإمام محمد الطاهر بن عاشور في داره بالمرسى حفلاً مساء يوم ١٥ ربيع الثاني، وألقى كلمة تدلُّ على سُموِّ وصفاء الصداقة والأُخوةِ بينهما رضي الله عنهما، واستمر سنة وسبعة أشهر، وكان مِثالاً للقاضي النّزيهِ العادلِ:

زانَ القــضاءَ عَدالــةً ونزَاهــةً والعَـدْلُ فـي كَفَّيـهِ نَبْـعٌ صَـيِّبُ

ولما أحسَّ أن عمله في القضاء هو أقلّ مما تسعى إليه هِمَّتُه، استقالَ، وعادَ للتَّدريسِ في جامع الزيتونة.

وألقى محاضرته الشهيرة: (الحرية في الإسلام) يوم السبت في ١٧ ربيع

الثاني ١٣٢٤هـ، وهو القاضي بمدينة «بنزرت»، وهذه المحاضرة هي المجابهة الأولى بينه وبين المحتل الفرنسي.

والحديث عن الحرية، والدعوة لها جهاراً ـ في أرض يتسلّط على رقاب أبنائها سيفُ الاستعمار الرهيب، وفي ظلِّ حكومة تَعَفَّر جبينُها تحت أقدام الغزاة إرضاءً لشهواته ـ لا يقل جرأة وأثراً عن مجابهة المحتلّ في ساحات القتال، ومقاومته بالحديد والنار. هذه المحاضرة دلّت على نزعته المبكرة إلى الحرية، وفهمه السليم لرسالة الإسلام؛ لذا نجد أن الإمام بعدها أصبح مطلوباً من المتسلّط المحتلّ، ومراقباً من عيونه وأعوانه.

*** الهجرة إلى الشام:**

هاجرت العائلة المكوَّنة من ثلاثة وثلاثين فرداً ـ بين شيوخ ونساء وأطفال ـ إلى دمشق؛ للاستقرار فيها، تتقدم الطليعةَ المهاجرةَ: السيدةُ حليمة السعدية بنتُ الشيخ مصطفى بن عزّوز والدةُ الإمام، وذلك عام ١٩١٣م.

وسبب الهجرة ـ حسب ما توصلت إليه ـ: أولاً: رغبة الإمام في الانتقال إلى الشرق، بعد أن ضاق عليه الخناق في تونس، وملاحقة السلطات الاستعمارية له، وحيث مجالُ عمله الإسلامي أوسعُ نطاقاً، وأفسح ميداناً، وسبب آخر هو: نظرة المغاربة إلى بلاد الشام، ويدعونها: (الشام الشريف).

*** إخوة الإمام:**

إخوة الإمام، وهم من الرجال:

الشيخ محمد الجنيدي، وعاد إلى تونس، ثم الجزائر، وهو دفين مدينة «طولقة».

والشيخ محمد العروسي، وتوفي بدمشق، وابنته متزوجة من المرحوم قدور خمّار من بسكرة، ومقيمة حتى اليوم في الجزائر، وقد قاربت المئة عام ـ حفظها الله ـ.

والعلاّمة اللغوي المعروف محمد المكي بن الحسين، عاد إلى تونس، ودفن فيها.

وسيدي الوالد زين العابدين بن الحسين، ودفن في دمشق، وكان عالماً ومؤلفاً، ولا أدلّ على شهرته ومكانته: أن وزارة التربية أطلقت اسمه على أكبر ثانوية في حي الميدان، ووزارة الأوقاف على مسجد حديث وكبير في حي الميدان ـ أيضاً ـ حيث سكناه.

وهناك الشقيقات: زبيدة، وميمونة، وفاطمة الزهراء، ودُفِنَّ في دمشق.

*** الرحلات:**

قام الإمام برحلات علمية باعتبارها وسيلةً لترقية العلوم والآداب، وتهذيب النفوس، وإصلاح حال الاجتماع، وكتبَ عن الرحلات وأثرها في الحياة العلمية والأدبية:

رَحّالةٌ كالبَدْرِ طافَ على الدُّنا   بضيائهِ لا يَخْتفي أو يُحْجَبُ

له: «الرحلة الجزائرية» نشرها في العددين الأول والثاني من مجلة «السعادة العظمى» سنة (١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م)، وعاد لزيارتها ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م.

وله: «خلاصة الرحلة الشرقية» سنة (١٣٢٠هـ ـ ١٩١٢م) زار خلالها مالطة، والإسكندرية، والقاهرة، ويافا، وحيفا، ودمشق، وبيروت، وإستانبول، وعاد إلى تونس، ودامت قرابة خمسة أشهر. وفي عام ١٩١٣م عاد والتحق

بالعائلة في دمشق؛ حيث المقر الثاني له بعد تونس، وزار سويسرا، وإيطاليا لأغراض سياسية.

وهناك رحلته من دمشق إلى القاهرة، وهي المقر الثالث والأخير للإمام عام (١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م)، وهناك سطع نجمه، وبرز علمه، وفي كل المدن التي زارها في رحلاته المتعددة كان يلقي الدروس الدينية في مساجدها، والمحاضرات في نواديها في مختلف الفنون.

*** في معتقل جمال السفاح بدمشق:**

والسِّجْنُ للأحرارِ خيرُ شهادةٍ تُهدَى لِأَمْثالِ الإمامِ وتُكْتَبُ

من صفحات الجهاد الإسلامي التي نقرؤها في سجل حياة الإمام محمد الخضر حسين: اعتقاله في شهر رمضان (١٣٣٤هـ - ١٥ آب ١٩١٦م)، وحتى ٢٩ كانون الثاني ١٩١٧م وجرت محاكمته أمام المجلس العرفي العسكري. وطلب المدعي العام من هيئة المحكمة إنزال عقوبة الإعدام بالإمام؛ بحجة أنه حضر مجلساً خاض فيه أحد المحامين في سياسة الدولة، وسعى إلى تأسيس جمعية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، والخروج عنها. ثم إن إدارة البوليس رأته مسؤولاً عن عدم إبلاغ الحكومة في حينه.

ودام الاعتقال ستة أشهر، وأربعة عشر يوماً في (خان مردم بك) بدمشق، وهو مكان مخصّص لاعتقال رجال السياسة في عهد جمال باشا. ومن رفاقه في السجن: الرئيس شكري القوتلي، الذي شغل منصب رئيس الجمهورية السورية، وفارس الخوري رئيس وزرائها، وسعدي بك الملا الذي أصبح رئيساً للوزارة في لبنان.

وحكم المجلس العرفي بالبراءة، وقرر المجلس طلب المكافأة للإمام

على ما أصابه، ولكن الإمام يقول: «لم أتشبث بهذا القرار، وقنعت بما ظهر للدولة والأمة من طهارة ذمتي، وعدم تسرُّعي إلى النفخ في لهب الفتنة على غير هدى».

ومن شعره في السجن:

جَرى سَمَرٌ يَوم اعْتُقِلْنا بفنـدُقٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ضُحانا بـه لَيـلٌ وسامِرُنا رَمْسُ

فقالَ رفيقي في شَقا الحَبْس إنّ في الـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـحضارَةِ أُنساً لا يُقاسُ بـه أُنْسُ

فَقُلْتُ لـه فَضلُ البداوةِ راجِحٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وحَسبُكَ أنّ البدوَ لَيسَ بـهِ حَبسُ

ومن شعره في السجن ـ أيضاً ـ:

غَـلَّ ذا الحبسُ يَدي عَنْ قَلَمٍ ‏ ‏ ‏ ‏ كانَ لا يَصْحُو عَن الطِّرسِ فَناما

أنا لَوْلا هِمَّةٌ تحدو إلى ‏ ‏ ‏ ‏ خِدْمةِ الإسلام آثَرْتُ الحِماما

* **جهاد الإمام في برلين:**

سلْ عنهُ «برلينَ» التّي عَجِبتْ لَـهُ ‏ ‏ ‏ ‏ والشَّيْخُ في لَهبٍ يَجيءُ ويذْهَبُ

تحت دويِّ القاذفات والمدمرات، وفي الأتُّون المشتعل لهباً وسعيراً، في ذلك الجوّ المرعب الرهيب، وقف الرجل المؤمن الصابر، يدعو الجنود المغاربة الذين وقعوا أسرى الألمان إلى الثورة ضد فرنسا.

زجَّ الاستعمار الفرنسي مئات الآلاف من أبناء شمال إفريقيا في حرب لا تعنيهم، وساقهم إلى مذابح الحرب، ودفع بهم إلى الخطوط الأولى من المعارك التي يخوضها مع ألمانيا، ووقع في الأسر عدد كبير من الجزائريين والتونسيين خاصة، فكان الإمام يتصل بهم ويؤانسهم، ويحرّضهم على القتال ضد فرنسا، وليس معها؛ لأن بلادهم تحتاج إليهم في هذا الموقف.

أقام في ألمانيا تسعة أشهر في عام ١٩١٧م، ومرّة ثانية مدة سبعة أشهر عام ١٩١٨م مع رفقة من المجاهدين المغاربة. شارك في نشاط (اللجنة التونسية الجزائرية) لتحرير بلاد المغرب، والدفاع عن قضاياها، وكتب المقالات في الصحف، وألقى المحاضرات.

تعلّم اللغة الألمانية وأجادها، ودرس المجتمع الألماني، وعاداتِ الأمة وأخلاقَها، كما درس علوم الكيمياء والطبيعة على يد البروفسور الألماني (هاردر) أحدِ العلماء الألمان المستشرقين، وكتب: «مشاهد برلين».

وأصدرت السلطات الفرنسية حكماً عليه بالإعدام غيابياً، لتحريض المغاربة على الثورة ضد المستعمر، كما صدر الأمر المؤرخ في ١٥ جوان ١٩١٧م، والذي تضمن: «حُجزت بقصد بيعها أملاكُ الأخضر بن الحسين المدرس السابق في الجامع الأعظم الذي ثبت عصيانه»، ونشر الأمر في «الرائد التونسي» النسخة الفرنسية الصادرة في ٢٠/٦/ ١٩١٧م.

*** في الميدان الصحفي:**

أصدر في تونس مجلة «السعادة العظمى» مجلة علمية أدبية إسلامية تصدر في غرّة كل شهر، وفي سادس عشره.

صدر العدد الأول في ١٦ محرم ١٣٢٢هـ حتى العدد ٢١ الصادر في غرّة ذي القعدة ١٣٢٢هـ، وللمجلة تاريخ حافل في ميدان الإصلاح.

- وفي القاهرة أصدر مجلة «الهداية الإسلامية» عن «جمعية الهداية الإسلامية» التي يرأسها، وصدر العدد الأول في جمادى الثانية ١٣٤٧هـ على مدى ثلاثة وعشرين مجلداً.

- ترأس تحرير مجلة «نور الإسلام» مجلة جامع الأزهر، وشعارها:

المجلة الدينية العلمية الأخلاقية التاريخية الحكمية. وهي المعروفة اليوم باسم مجلة «الأزهر»، وصدر العدد الأول في شهر (محرم ١٣٤٩هـ ـ جوان ١٩٣٠م)، واستمر في تحريرها حتى عام ١٩٣٥م.

ـ ترأس تحرير مجلة «لواء الإسلام»، وصدر العدد الأول في أول رمضان (١٣٦٦هـ الموافق ١٩ يوليو ١٩٤٧م)، وحتى عام ١٩٥٣م، وانقطع عنها؛ لارتقائه مشيخة الأزهر.

وكتب في العديد من الصحف والمجلات في العالمين العربي والإسلامي.

وكَسا الـصَّحافةَ وجْهَهـا (بـسعادةِ عُظمى) ففازَ معَ السِّباقِ المغـربُ

*** الإمام اللغوي:**

من العلوم التي برع فيها الإمام محمد الخضر حسين، وصال فيها، وجال في ميادينها الواسعة: علومُ اللغة العربية وآدابها. أَحبَّ اللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن، وخدمها خدمة المؤمن الصادق.

ومن أوائل المحاضرات اللغوية التي تحدثت عنها الأندية الأدبية: مسامرتُه حول «حياة اللغة العربية» التي ألقاها في الجمعية الصادقية بتونس في جمهور غفير من الأدباء، وأساتيذ اللغة العربية سنة ١٣٢٧هـ.

وفي دمشق كان عضواً في (المجمع العلمي العربي) الذي عقد جلسته الأولى في ٣٠/٧/ ١٩١٩م، وعيِّن الإمام عضواً عاملاً فيه طوال الفترة التي قضاها في سورية، ثم أصبح مراسلاً للمجمع عند انتقاله للسكنى نهائياً في القاهرة.

والمَجْمَعـانِ بمـصرَ أو فـي جِلَّـقٍ داران فُـصحى وهـو بينَهُمـا الأبُ

والإمام من الأعضاء المؤسسين في (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) بالقاهرة، والذي عرف فيما بعد بمجمع اللغة العربية، تأسس بمرسوم أصدره الملك فؤاد في (١٤ شعبان ١٣٥١هـ ـ ١٣ كانون الأول ١٩٣٢م)، وصدر مرسوم بتعيين الإمام عضواً عاملاً فيه في ١٦ جمادى الثانية (١٣٥٢هـ ـ ٦ تشرين الأول ١٩٣٣م)، وساهم الإمام بكل جهد في أعمال المجمع حتى آخر حياته المباركة، وترأس لجنة اللهجات، وشارك في لجان الآداب والفنون: «المعجم الوسيط»، «الأعلام الجغرافية»، «دراسة معجم المستشرق فيشر» المتعلق بالألفاظ القرآنية، وله العديد من البحوث المنشورة في مجلة «المجمع».

وأصدرتُ له كتابين: «دراسات في العربية وتاريخها»، و«دراسات في اللغة».

ولابدَّ هنا من الإشارة إلى بحثه اللغوي القيِّم «القياس في اللغة العربية» الذي نال بموجبه عضوية هيئة كبار العلماء بالقاهرة.

*** معاركه الفكرية:**

قَلَمُ الإمامِ هِدايةٌ ومَعارِكٌ وعلى الغِوايةِ مِثْلُ نارٍ تُسْكَبُ

خاض الإمام معارك الفكر مع عدد من أصحاب الأقلام المعروفة:

ـ وفي المقدمة: طه حسين، الذي ردَّ عليه في كتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، وردّ على بحثه «حقيقة ضمير الغائب في القرآن».

ـ وردَّ على علي عبد الرازق في كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وعلى مقالاته «العظمة»، وعلى «ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ».

ـ وردَّ على الشيخ محمود شلتوت حول «الهجرة وشخصيات الرسول».

ـ وردَّ على محمد خلف الله في مقاله «الفن القصصي في القرآن».

ـ وردَّ على محمد أبو زيد الدمنهوري في كتابه «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»، وعنوان بحث الإمام «كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد».

ـ وله ردٌّ تحت عنوان: «كتاب يلحد في آيـات الله» ردَّ فيه على كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» تأليف الطاهر حداد من تونس.

ـ وردُّه «تحريف آيات الحدود عن مواضعها» على مقال عبد المتعال الصعيدي.

ـ و«نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة» ردَّ به على أحمد أمين.

ـ و«ملاحظات على البحث المقدم عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى» ردَّ على الأستاذ فريد أبو حديد. وله نقد آخر لآرائه.

ـ و«حول تبسـيط قواعد النحـو والصرف والرد عليها» رد على اللجنة المؤلفة من طه: حسين، وأحمد أمين، وعلي الجارم، ومحمد أبي بكر إبراهيم في (مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

وله ردود أخرى على الشيخ رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي، وغيرهم.

*** جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية:**

أسس الإمام (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية) سنة (١٣٤٢هـ، جوان ١٩٢٤م)، وسنَّ قانوناً لها، ويقول عنها: «تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات إفريقيا الشمالية، حتى يسيروا مع إخوانهم المصريين جنباً إلى جنب، يسـايرونهم في أفكارهم، في آدابهم، في معارفهم، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية».

وقد ساهمت الجمعية في نشاط ثقافي، وشكلت لجنة تنشر آداب إفريقيا الشمالية، وكانت برئاسة الإمام، ومن أعضائها الجزائريين: الدكتور محمد عبد السلام العيادي، ومحمد الرزقي.

*** جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية:**

من الصفحات المشرقة والمشرّفة في سيرة الإمام: دعوته لتنظيم جاليات المغرب العربي المقيمة في القاهرة في جبهة واحدة متراصة، غايتها: الدفاع عن شعوب شمال إفريقيا: تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا.

نظر الإمام إلى حال دول شمال إفريقيا، وما آلت إليه الأمور على يد المستعمر من محاربة شرسة عنيفة للغة القرآن، ونشر ويلات الجهل والفقر، و(فَرْنَسة) المعاهد العلمية، والمؤسسات الحكومية، ونقل البلاد إلى الجنسية الفرنسية من عروبتها وإسلامها، وتحويل المساجد إلى ثكنات عسكرية. وكسرت فرنسا الأقلام الحرة، وكممّت الأفواه، ولم تعد الأذن تسمع إلا قرقعة السلاح، والدعوات إلى اعتناق الأفكار الأجنبية الخبيثة، وفي اعتقادهم أن هذا الأسلوب يقود المغرب إلى أن يصبح قطعة من فرنسا، ولم يعلموا أن القرآن حافظ للغة، وأن الإسلام سيبقى إلى اليوم المشهود.

نظر إلى هذا كله، فلم يطق صبراً، وخفقت الروح بين جنبيه، والإمام من أكثر الناس شعوراً بإرهاب فرنسا التي لا حقته من تونس إلى دمشق، وإستنبول وبرلين، ثم إلى دمشق والقاهرة، وحكمت عليه بالإعدام، وأمرت بمصادرة أمواله في تونس.

لبت الجاليات المغربية دعوته المباركة، والتفّت حوله في مشهد رائع، واتخذت مقراً لها دار «جمعية الهداية الإسلامية»، ولم تتخذ لنفسها مكتباً مستقلاً

في البناء؛ حفظاً على مال الجبهة، وفي بناء الجمعية متسعٌ لكل عمل إسلامي ووطني.

عقدت الجبهة اجتماعها الأول في شهر ذي الحجة ١٣٦٣هـ، وتم انتخاب الإمام رئيساً، ومثّل الجزائرَ فيها المناضلُ الكبير الفضيل الورتلاني، والأمير مختار الجزائري.

قامت الجبهة برسالتها خير قيام، وقامت بأقصى جهد للتعريف بقضايا المغرب، وعقدت المؤتمرات واللقاءات مع المسؤولين العرب والأجانب، وشرحت ما تتعرض له شعوب المغرب، وعملت على مساندة المقاومة بالقوتين المادية والمعنوية. وانضم إلى الجبهة أكثر اللاجئين السياسيين المقيمين في مصر، ونخبة من المناضلين المغاربة، ومن جمعيات العلماء المسلمين الجزائريين، وحزب الشعب الجزائري.

وأطلق عليه أحد الباحثين اسم: (ابن خلدون العصر)؛ لأن في سيرة الرجلين تشابهاً كبيراً في مراحل حياتهما وإنتاجهما العلمي.

*** عضويته في جماعة كبار العلماء:**

تقدم الإمام برسالته «القياس في اللغة العربية» لعضوية جماعة كبار العلماء، وتشكلت لجنة من قساة الممتحنين، وكان العالم الفاضل الشيخُ عبدُ المجيد اللبّان رئيساً للجنة، فأبدى الشيخ من الرسوخ والتمكُّن ما أدهش، وبهرهم بغزارة علمه، وفاض عليهم بما وهبه الله من معارف؛ حتى إن الشيخ اللبّان صاح إعجاباً قائلاً:

هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حِجاج؟! ونص القرار على أن اللجنة امتحنت الشيخ محمد الخضر، فوجدته بحراً لا ساحل له.

وفي ٢٩ أبريل من سنة ١٩٥١م صدر أمر ملكي برقم ٢٢ بتعيين الشيخ محمد الخضر حسين عضواً في جماعة كبار العلماء، وكانت هذه العضوية سبيله إلى عرض اسمه على مجلس الوزراء، عندما أراد المجلس اختيار شيخ الأزهر من كبار العلماء.

*** الإمام في مشيخة الأزهر:**

كان موسوعة علمية، يضرِب في جميع العلوم بسهم وافر، وقد جاهد في سبيل الله بقلمه ولسانه ونفسه.

جاءته مشيخة الأزهر تسعى إليه بنفسها، دون أن يطلب هذا المركز يوماً، فهو أزهد الناس بالمناصب والألقاب.

وافته مشيخة الأزهر اعترافاً بفضله العميم، وعلمه الغزير، وسيرته النقية التي غدت مضرب الأمثال في التقوى والنضال والدعوة.

لم تكن لديه في القاهرة عشيرة تكون له سنداً، ولا حزب يدفع عنه، ولا أخ يشد أزره، ولا ولد يرفع عن كاهله عبء الحياة.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان معه، ومن كان الله معه، فقد بلغ أقصى مراتب السؤدد، ولأمثاله تعقد ألوية الدعوة والإصلاح، ولأمثاله تعقد القيادات الإسلامية.

ويروي الشيخ: أنَّ أمه حينما ولدته، وكَبُرَ، قالت له: إنها كانت تربِّت عليه وهو صغير، وتقول له: إن شاء الله يا أخْضَرْ، تكبر وتروح الأزهرْ.

واستجابت السماء لدعوة الأم الطاهرة، وإذا بأصيل «طولقة»، ووليد «نفطة» يجوب العالم داعية للإسلام، وتنتهي به رحلة الإيمان إلى أن يصبح

إماماً وشيخاً في الجامع الأزهر. وهكذا يكرِّم الله أولياءه الصالحين في الدنيا قبل ثواب الآخرة.

الأَزْهَـرُ المَعْمـورُ سُـرَّ بِـشيخِهِ لَمَّـا اعـتلاهُ مـن التُّقـاةِ مُجـرِّبُ

وفي مشيخة الأزهر قال: «إن كانت جنّة، فقد دخلتها، وإن كانت ناراً، فقد خرجت منها».

بعد اختيار الإمام شيخاً للأزهر، زاره الرئيس محمد نجيب في مكتبه بالأزهـر للتهنئة، وبعد أيام على هذه الزيارة، أتاه السيد حسين الشافعي عضوُ قيادة الثورة، وأخبره أن الرئيس محمد نجيب يطلبه لأمر ما، فغضب الإمام ـ وقلّما يغضب ـ، وأخرج ورقة من درج مكتبه، وكتب عليها استقالته، وقال للشافعي: «قل لسيادة الرئيس: إن شيخ الأزهر لا ينتقل إلى الحاكم».

هنأه الشاعر الجزائري الكبير محمد العيد بقصيدة طويلة ومطلعها:

بـارقٌ مِـنْ بـوارِق الرُّشْـدِ لاحـا جَـرَّ للـشَّرْقِ غِبْطَـةً وفَلاحـا

وفيها يقول:

وحَبـا الأَزْهَـرَ الـشريفَ رئيـساً عَبقريّـاً ومُـصْلِحاً مِـسْماحاً

وإمامـاً محـدِّثاً مَغْرِبيّـاً رفـعَ المغـرِبَ المهـيضَ جَناحـا

واستقال من المشيخة في (٢ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ ـ ٨ جانفي ١٩٥٤م)، وتفرَّغ للعلم والكتابة.

* **آثاره العلمية:**

حدِّثْ عن نبع لا ينضُب، وفكر لا يتعَب، وقلم أوقفه صاحبه لخدمة

الإسلام، وآثارُه العلمية كلها طُبعت بحمد الله وعونه، وهي تزيد عن ثلاثين كتاباً.

آثـارهُ تَـروي لنـا فـي طَيِّهَـا ... أَنَّ الإمـامَ الخِـضْرَ عَـصْرٌ مُـذْهَبُ

* **مشاهد من حياته الخاصة:**

أخْلاقُـهُ القُـرآنُ ترسُـمُ سَيْرَه ... ومكـارمُ الأَخـلاقِ منـه تَـصَبَّبُ
وإذا مَشَى فـالأرضُ لا تَـدْري بـهِ ... وخُطـاهُ تَمـضي هِينَـةً لا تَـضْرِبُ
أمّـا علـى قِمَـمِ المنَـابرِ فارْتَقِـبْ ... أَسداً يُزمْجِرُ فـي العَـرينِ ويُرْعِـبُ

ـ الكتابُ رفيقه وجليسه، يضعه إلى جانبه إذا خاض في حديث، ويمسك به للمطالعة إذا خلا بنفسه.

ـ كان مهداءً لكتبه، يقدمها إلى كل زائر، ويبعث بها إلى معارفه من الشيوخ والعلماء في المعاهد الدينية، ولم يستفد مالاً من عائداتها، لقد وجدْتُ كتبه المهداة في كل بلد عربي زرته.

ـ لم يكن يتقاضى من (جمعية الهداية الإسلامية) بصفته رئيساً لها، أو من مجلة «الهداية الإسلامية» بصفته رئيساً لتحريرها، ولا عن محاضراته في الجمعية أيَّ أجر ـ وهذا مبلغ علمي.

ـ كان مشّاءً يحب السير على قدميه، فينتقل من سكناه في حي السيدة زينب إلى دار الجمعية في شارع مجلس النواب بالقاهرة ماشياً.

ـ سكناه بسيطة، يتجلى فيها زهدُ الإمام وورعه، شقة بالكراء من غرفتين، وفسحة بينهما، وفرش متواضع، لذا نراه يستقبل كبار زوّارِه في دار (جمعية الهداية) لا لسبب إلا لضيق داره.

ـ وذكرت لي زوجته: أن الحبيب بورقيبة عندما لجأ إلى تونس، نام ليلته الأولى في مطبخ دار الشيخ، حتى هيأ له غرفة في اليوم التالي لدى إحدى الجمعيات.

ـ فُطوره قطعة من الخبز، وكوب من الحليب، ووجباته لا تتعدى لقيمات من لون واحد من الطعام.

ـ يغتسل بالماء البارد طوال السنة، وهي عادة اتخذها منذ أن كان في «برلين».

ـ راتبه الضئيل لم يتجاوز ثلاثين جنيهاً، يقتطع نصفه لمعاشه، والنصف الآخر يرسله مجزَّأً إلى أقاربه في دمشق وتونس مساعدة لهم.

ـ لم يقتن سيارة في حياته، ولم يمتلك عقاراً، وعند وفاته لم يترك إلا مكتبته التي أهداها إلى دار الكتب المصرية، وآثاره العلمية التي ينتفع بها الناس.

*** مذكرات الإمام:**

وضع مذكراته في ثلاث مجلدات تحت عنوان: «مراحل الحياة»، وتهافتت عليه المجلات المصرية، وكاد الاتفاق أن يتم مع جريدة «المصري»، إلا أن الإمام قال:

«استخرت الله، ووجدت أن نشرها يعتبر حديثاً عن النفس، وفيه تزكية لنفسي، وأنا لا أريد أن أزكّي نفسي، وليستفد من شاء بما شاء من كتاباتي»، ومزّقها.

وتحت يدي بعض منها.

*** انتقاله إلى الرفيق الأعلى:**

ولما أحبَّ الإمامُ لقـاءَ الله، أحبَّ الله لقاءه. انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد ظهر يوم الأحد (١٣ رجب ١٣٧٧هـ، الموافق ٢ فيفري ١٩٥٨م)، ودفن إلى جوار صديقه المرحوم أحمد تيمور باشا جانب مسجد الإمام الشافعي ﷺ بالقاهرة.

رحم الله الإمام، وأنزله منزل الأنبياء والصدّيقين، والشهداء والأبرار والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

وختاماً: حيّاكم الله وبيّاكم يا شعبَ الجزائر المظفرَّة، يا أهل ووالي بسكرة، يا رئيس وأعضاء الجمعية الخلدونية المزهرة، ملتقاكم مفخرة المفخرة:

القَـوْلُ لا يـوفي الجزائـرَ حَقَّهـا ... والشِّعْرُ يَعْجِـزُ واللِّسانُ مُجَلْبَبُ

حـيِّ الجزائـرَ والعُـلا تاريخُهـا ... يا أَطْهَرَ الأَرَضِـينَ عَيْشُكِ مُخْصِبُ

وُاذكُـرْ بِـسِكْرَةَ وانتَخِـبْ جَمْعِيَّـةً ... هيَ لابْنِ خَلْدونَ المـؤرِّخِ تَقْـرُبُ

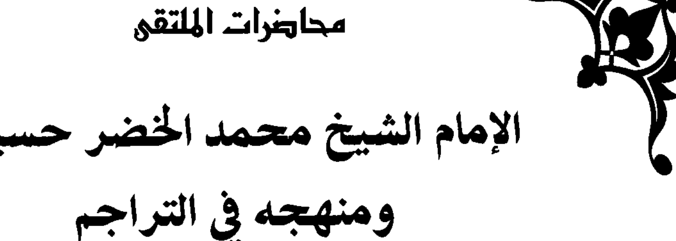
وقبل ختم الكلمة، أتمنى على الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، أن تضع في برنامجها المستقبل ثلاثة من عظماء الأمة:

الحسن بن عزّوز، ومحمد المكي بن عزّوز، والفضيل الورتلاني.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







الإمام الشيخ محمد الخضر حسين ومنهجه في التراجم

الدكتور عمار الطالبي

نعتمد في بيان منهج الشيخ الإمام محمد الخضر حسين (١٨٧٤هـ ـ ١٩٥٨م) على كتابه «تراجم الرجال»[١]، وإن كان المؤلف كتب تراجم أخرى، منها: «محمد رسول الله وخاتم النبيين»، كما كتب تراجم نشرها ضمن كتابه: «تونس وجامع الزيتونة».

هذه التراجم التي ضمّها كتاب «تراجم الرجال» كتبها في مجلتي «الهداية الإسلامية»، و«نور الإسلام» بالقاهرة، كما ألقى بعضها في صورة محاضرات في بعض النوادي الإسلامية بالقاهرة ـ أيضاً ـ، ورتبّها جامعها تبعاً للتسلسل التاريخي لولادة المترجَم لهم، وعددهم أربعة عشر علماً: اثنان من الخلفاء، وهما: عثمان بن عفّان، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما واثنان من القادة، وهما: موسى بن نصير، وصقر قريش عبدُ الرحمن الداخل، وإن كان منازعاً للخلافة العباسـية، فأنشأ أخرى أموية بالأندلس، وواحد من الفقهاء المجتهدين من أصحاب المذاهب الفقهية، وهو: الإمام مالك بن أنس، وثلاثة أئمة من أئمة آل البيت، وهم: علي زين العابدين، وابناه: محمد الباقر، وزيد، وواحد

---

(١) جمع هذه التراجم ونشرها علي الرضا الحسيني سنة (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م) بتوجيه من والده الشيخ زين العابدين الحسين التونسي.

من المحدِّثيـن، وهو: أبو داود صاحب «السـنن» المشـهورة، وواحد من أصحاب المذاهب الاعتقادية، وهو: الإمام أبو الحسـن الأشعري، وواحد من الأدباء الشعراء، وهو: القاضي أبو الحسن الجرجاني، وواحد من الصوفية الفقهاء معاً، وهو: الإمـام الغزالي، وآخـر من كبار فقهاء المالكية، وهو: أبو بكر بن العربي الأندلسي.

وختم هذا الكتاب بترجمة لصديقه الحميم أحدِ كبار المثقفين المصريين، وهو: أحمد تيمور باشا، وترجمته له عبارة عن تأبينه له، وصَف فيه خصاله الحميدة، وفضـله، وعلمه، وصداقته التي اعتز بها، وأثرت في نفسـه أيما تأثير.

ونريد أن نشير إلى منهجه في هذه التراجم، وإلى غايته منها:

*** الغاية والمقصد:**

يرمي من هذه التراجم إلى: تعريف الشباب المسلم بعظمة الرجال الذين يترجم لهم، قال في خاتمة ترجمة علي زين العابدين: «هذه صحيفة من سيرة رجل من عظماء آل البيت، نعرضها على حضراتكم، وسيرة العظماء عظة وأسوة لأولي الألباب»[1].

وبيّن غرضه ـ أيضاً ـ من سيرة محمد الباقر قائلاً: «وفي سيرة العظماء عبرة لمن يريد أن يكون عظيماً في علمه، أو في شرفه، وسمو همته أو في المسارعة إلى عمل الخير ما استطاع»[2].

---

(١) «تراجم الرجال» (ص٢٨).

(٢) المصدر نفسه (ص٢٩).

واتجه إلى الشباب في ترجمته للخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ:

«إن من الأسباب التي جعلت كثيراً من شبابنا يُسرفون في إكبار رجال أوربا، ولا يرفعون رؤوسهم فخراً بعظماء الشرق: أنهم لم يدرسوا تاريخ علمائنا بعناية ورويَّة وإنصاف»[1].

وأن هذا السبب هو الذي «دعا رجال (جمعية الهداية الإسلامية) إلى أن توجه همتها إلى إلقاء محاضرات في إحياء ذكر رجال نبغوا في العلم، أو برعوا في السياسة، أو كانوا مُثُلاً كاملة في الأخلاق، والآداب»[2].

وأشار إلى تطور الجانب السياسي بتعاقب الخلفاء، والانتقال من عهد الخلافة الراشدة إلى المُلْك العَضوض[3].

فالخلفاء الراشدون قامت دولتهم على العدل في السياسة، وإيثار الحق، ثم جاء بعدهم خلفاء فقدت معهم الخلافة شيئاً مما كانت تعهده في أولئك، وشعر الناس بالفرق الواضح بين العهدين، وما زالت تلك الأساليب تتزايد حتى كادت تذهب بمعظم ما جاء في الإسلام «من عدل وحرية ومساواة»[4]، وجاء فتى هو عمر بن عبد العزيز، في العهد الذي صارت فيه الخلافة إلى ملك عَضوض؛ ليقيم شريعة، ويبسط العدل والأمن، ويرفع راية العلم، ومقام العلماء، فكان يستشير مجلساً من العلماء والخبراء؛ ليدلوا على الظلم إذا

---

(١) المصدر نفسه (ص٣٥).

(٢) المصدر نفسه (ص٣٦).

(٣) المُلْك العضوض: فيه عسف وظلم.

(٤) المصدر نفسه (ص٣٦).

وقع من عماله، ويبدي رأيه في هذا: «وكذلك يكون حال من يتقلد الولاية وليس صالحاً، أما من يتقلدها للمباهاة، واتباع الشهوات، وطول الباع في اضطهاد الضعفاء، فلا يرتاح له بال إلا أن يضع على أفواه دعاة الإصلاح كمائم، أو ينفيهم من الأرض»[١].

ولما قدّموا إليه مراكب الخلافة من الخيل والبراذين، قال: ما هذا؟ قالوا: مراكب الخلافة، فقال: «دابتي أوفقُ لي، فركب بغلته، فجاء صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنحَّ عني، مالي ولك؟! إنما أنا رجل من المسلمين»[٢].

وعلّق الشيخ الخضر على هذا: بأن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يكن حريصاً على الولاية، وهذا «يعين الرجل على السير فيها باستقامة دون أن يخشى سخط شخص، أو رهط من الناس، وإن بلغوا منتهى الوجاهة، أو عرفوا من وسائل الكيد ما لم يعرفه أحد من قبل»[٣].

كما علّق على ردِّ المظالم الذي قام به الخليفة، ونقض بعض ما كان يفعله غيره من الخلفاء: «أما ما يفعلونه استبداداً وعدواناً، فهذا ما يجب على من أتى بعدهم أن ينظر في شأنه، ويردّه عليهم بكل قوة، وكذلك فعل عمر ابن عبد العزيز»[٤].

---

(١) المصدر نفسه (ص٣٨).

(٢) المصدر نفسه (ص٣٩).

(٣) المصدر نفسه (ص٤٠).

(٤) المصدر نفسه (ص٤١).

وسوّى العطاء بين بني أمية وغيرهم؛ إدراكاً منه لقيمة المساواة في الإسلام.

وأشار إلى أن السياسة الحكيمة لا تولي عملاً لظالم غشوم؛ لأن من «اعتاد على الظلم لا يصلح للعمل في دولة العدل»[1]، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز لا يستعمل من كان عاملاً لنحو الحجاج[2].

وعدَّ من فضائل عمر بن عبد العزيز: نشره للعلم؛ إذ أرسل عشرة من التابعين؛ ليعلموا البربر بالمغرب القرآن والفقه والدين[3].

وأكد الشيخ هذا التعليم ووجوبه في عهده «وكذلك يجب على كل حكومة إسلامية أن تُعنى بعلوم الدين، وتعطيها حقّها من التعليم، والآباء الذين يستطيعون الوسيلة إلى أن يكون أبناؤهم على تربية دينية صادقة، ولم يفعلوا، إنما يحاربون الله في أرضه، ويكثرون سواد الأرواح الخبيثة»[4].

كما أكد ضرورة العدل في سياسة الأمة، وعرّف الحاكم العادل بأنه «هو الذي يستوي في نظره القوي والضعيف، والقريب والبعيد، ولا يستقيم أمر أمة حتى يكون القابض على زمامه فعّالاً لما يراه الحق، ولا يكون لأولي القربى أثر في نفسه، إلا أن يهيئ لهم عزماً صارماً يكف بأسهم، ويعلمهم كيف يحترمون حقوق غيرهم، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز»[5].

---

(١) المصدر نفسه (ص٤١).

(٢) المصدر نفسه (ص٤١).

(٣) المصدر نفسه (ص٤١).

(٤) المصدر نفسه (ص٤٢).

(٥) المصدر نفسه (ص٤٢).

وللعلماء عند عمر بن عبد العزيز مقام رفيع، لذلك أعانهم على الاحتفاظ بكرامتهم، وعلّق الشيخ محمد الخضر على هذا بأنه «لا تحيا أمة أو ترقى في سماء المجد إلا أن يكون فيها علماء مخلصون محترمون»[١].

فأنت تراه قد وظّف هذه التراجم لبثِّ دعوته الإصلاحية في الأخلاق والدين، والسياسة والمعرفة؛ لعل الناس ـ وخاصة الشباب والحكام ـ أن يكون لهم هؤلاء الأعلام قدوة ومثلاً أعلى، ولذلك ختم ترجمته للخليفة عمر بن عبد العزيز بما يدل على ذلك: «هذه محادثة أخذنا فيها بطرف من سيرة رجل من أعظم رجال الإسلام، عسى أن يكون موضع قدوة لكل من تولى أمراً من أمور المسلمين، وأراد أن يكون له لسان صدق في الآخرين»[٢].

كما ختم الإمام مالك بقولـه: «هذه صفحـة من حياته، نعرضها على حضراتكم، وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب»[٣].

كما عقّب على عرضه لسيرة الإمام أبي الحسن الأشعري: «فإذا عرضنا عليك صحيفة من حياة أبي الحسن الأشعري، فإنما نعرض عليك شيئاً من سيرة رجل كان له في إصلاح النفوس وتقويم العقول جهادٌ وأيُّ جهاد»[٤].

وفي ترجمته للعلامة أحمد تيمور باشا أكّد غرضه هذا: «وإنما هي كلمة أصف بها جانباً من خصاله الحميدة؛ عسى أن يكون في إلقائها تذكرةٌ

---

(١) المصدر نفسه (ص٤٤).

(٢) المصدر نفسه (ص٤٨).

(٣) المصدر نفسه (ص٦١).

(٤) المصدر نفسه (ص٨٣).

لطلاب الفضيلة من أبنائنا الناهضين»[١].

* **منهجه في التراجم:**

بيَّن طريقته في ترجمة الإمام عثمان بن عفان ﷺ بأنه «نعول في هذا على أقوال المحدّثين، والمحققين من المؤرخين[٢]»، وميَّز بين المحدّثين في روايتهم، والمؤرخين: «ولكن حفّاظ الحديث أنكروا هذا الذي يحكيه المؤرخون أشد الإنكار»[٣]، وهو يعتمد في هذا على أبي بكر بن العربي في كتابه «العواصم من القواصم»، فردَّ كل التهم التي وجهها الثائرون على الإمام عثمان، على طريقة أهل الحديث في توثيق أخبار الفتنة، وعددها ثلاث عشرة تهمة، استعرضها كلها، وردّها واحدة تلو الأخرى، اعتمد في ذلك أكثر ما اعتمد على كتاب «العواصم من القواصم» كما قلنا.

ولخص محاضرته في المجال بأن «عثمان ﷺ لم يأت حدثاً منكراً، ولم يرتكب ظلماً ولا إثماً، وأن الصحابة جميعاً بريئون من دمه، وإنما حاول خلعه، أو خان الله في سفك دمه نفرٌ ليسوا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من القوم الذين يريدون الإصلاح»[٤].

وألحَّ في غرضه من تربية الشباب المسلم بالتثبُّت في الأخبار، وأن لا يأخذوا بكل ما يجدونه في كتب بعض المؤرخين: «ولعل في محاضرتنا

(١) المصدر نفسه (ص١٠٨).

(٢) المصدر نفسه (ص١٢).

(٣) المصدر نفسه (ص١٦).

(٤) المصدر نفسه (ص١٩).

هذه تنبيهَ شبابنا النابتين نباتاً حسناً على أن يتثبتوا فيما يقصه المؤرخون عن أصحاب رسـول الله ﷺ، ولاسـيما الذين صاحبوه أعواماً، ووردت الأخبار الصحيحة أنه توفي وهو عنهم راض»[1].

وأنتم تعلمون أن خطوات الترجمة عند القدماء تتمثل في الخطوات الآتية:

- اسم المترجَم له، ونسبه، ولقبه، وكنيته.
- مولده، أو إثبات عمره.
- نشأته، ودراسته، وشيوخه.
- مؤلفاته، وتلاميذه.
- مكانته العلمية، وآراء العلماء فيه.
- وفاته.

وتتوقف الترجمة على شخصية المترجَم له من كونه سياسياً، أو فقهياً، أو محدّثاً.

وسلك الشيخ محمد الخضر في ذلك مسلكاً دقيقاً، وصاغَ التراجم صياغة أدبية واضحة، مع إبداء آرائه الشخصية، ونقد لما لا يراه صحيحاً.

وكان القدماء يبنون التراجم على طبقات، والطبقة: وحدة زمنية، تتمثل في العقد؛ أي: عشر سنوات، وترتب حسب السنوات، سواء في ذلك الحوادث التاريخية، أو التراجم؛ كما فعل الذهبي في كتابه: «تاريخ الإسلام» كتب فيه الحوادث والتراجم ابتداء من السنة الأولى للهجرة، إلى العصر الذي عاش فيه، وهو القرن السابع الهجري، وسلك مسلك المحدّثين ـ أيضاً ـ في نقد

(١) المصدر نفسه (ص١٩).

رجال الحديث والتاريخ، وكتب كتاب: «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، كما نقد المصادر والموارد التاريخية والحديثية.

وكما فعل ابن الجوزي في كتابه: «المنتظم» الذي يذكر فيه الحوادث التاريخية، ثم يعقبها بالتراجم.

ومنهج المحدثين يتشدد في رواية الأحداث الخطيرة؛ كالفتن التي تحيط بها الأهواء والعصبيات، فيحتاط في نقد المصادر المتعلقة بها، وكذلك الروايات التي لها صلة بالعقائد، أو الفتن التي وقعت في عهد الصحابة، فيطبقون قواعد نقد الحديث ورواته.

وجاء الغربيون بعد ذلك، ووضعوا منهجاً نقدياً للتاريخ، لا يبعد كثيراً عن مناهج المحدثين النقدية، كما بيّن ذلك أسد رستم في «مصطلح التاريخ».

ولا تقتصر التراجم على رجال الحديث، وإنما تشمل غيرهم؛ كالفقهاء، والشعراء، والملوك، والقضاة، وترتب على حسب الطبقات، أو حروف المعجم.

ومنهج المحدثين النقدي أدى إلى نمو نقد المصادر، وبيان مدى ثقة الناقلين وإتقانهم لما ينقلون من روايات وأخبار، فتقبل روايات الرواة ذوي الضبط والإتقان، وتأثر المؤرخون والأدباء بهذه الطريقة في الرواية وسندها، ولكنهم لم يتشددوا في رواية التاريخ تشدُّدَهم في رواية الحديث؛ لما يترتب عليه من أحكام شرعية.

وقد بلغت تراجم الذهبي (١٠٤٠) ترجمة في كتابه «تاريخ الإسلام»، وكان الأوزاعي يقول: «إنا كنا لنستمع الحديث، فنعرضه على أصحابه كما

نعرض الدرهم الزائف على الصيارفة، فما عرفوا، أخذنا، وما أنكروا، تركنا»[1].

ويمتاز الشيخ محمد الخضر بأنه يعنون للأفكار التي يريد تبليغها، ورؤوس الموضوعات التي يعالجها، وهو منهج تربوي إصلاحي سلكه ابن باديس في تراجمه، وفي تفسيره للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

ـ ملاحظات:

١ ـ من قراءة هذه التراجم ندرك جوانب من حياة الشيخ العلمية، وتكوينه العقلي، فهو متأثر بأبي بكر بن العربي غاية التأثر، فغيَّر من اتجاهه العلمي جذرياً:

«ولأبي بكر هذا فضل في انصرافي عن دراسة علوم الدين دراسة تقليد ومتابعة، شأن من لا يزيد في التفقه على قراءة «مختصر خليل»، وشروحه، وحواشيه، ذلك أني اتصلت بمكتبة خالي وأستاذي المرحوم الشيخ محمد المكي بن عزّوز، واستعرت منها كتاب «العارضة»[2]، وكتاب «القبس»، وجزءاً من «ترتيب المسالك»[3]، ثم اتصلت بمكتبة صديقي العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشورٍ شيخ الإسلام المالكي بتونس هذا العهد، واستعرت منها كتاب: الأحكام «أحكام القرآن»، وكتاب «العواصم من القواصم»، فأعجبت بطريقة المؤلف في التأليف، ووجدتها التي تنهض بالفكر حتى يكون

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق ج١٠، ق٣٤٦ في ترجمة عبد الرحمن الأوزاعي.

(٢) هو «عارضة الأحوذي في شرح صحيح الترمذي».

(٣) يقصد: «المسالك في شرح موطأ مالك» طالع جزءاً منه في إحدى مكتبات الجزائر كما علق في هامش الترجمة.

مثمراً، بل الطريقة التي تحبب إلى ذوي الفطرة السليمة دراسةَ العلوم الدينية، والواقع أن هذه الكتب كانت أول ما أخذني إلى النظر في علوم الشريعة بتلهف، بعد أن كنت قد انقطعت إلى علوم اللغة وآدابها»[١].

فصلتهُ بخاله محمد المكي بن عزوز ـ علامةِ هذه المنطقة، المعروفِ في العالم الإسلامي في ذلك العهد ـ ذاتُ أهمية بالغة، ونسخته من «العواصم من القواصم» موجودة بدار الكتب المصرية، وعليها خطه، وقد اعتمدت عليها في تحقيق «العواصم من القواصم»، مع غيرها من النسخ، وكذلك صلته بصديقه الحميم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي كان يزوره بدمشق عندما كان مقيماً بها، وقبل أن يستقر بمصر، كما كان يزوره بها، فهذا التحول في اتجاهه الفكري والعلمي في غاية الأهمية في حياته وتطورها، وأشار إلى أنه تولى القضاء ببنزرت بتونس مدة سنة وأربعة أشهر، ولكنه فضل إلى أن يعود للزيتونة للتدريس بها، والاشتغال بالتعليم، معرِضاً عن منصب القضاء[٢].

٢ ـ ترجمته لعدد من أئمة آل البيت يدل على سعة أفقه، والبعد عن التعصب لأهل السنّة، وعندما ترجم للإمام زيد بن علي، وصفه بأنه مات شهيداً، وقال: «نحن نوافق الزيدية في الاعتقاد بفضل زيد وعلمه وجلالة قدره»[٣].

وأشاد بالباقر، وزيد، ووصف كل واحد منهما بأنه: «كان عظيماً في

---

(١) المصدر نفسه (ص١٠٦).

(٢) المصدر نفسه (ص١٠٤).

(٣) المصدر نفسه (ص١٣٤).

علمه، عظيماً في خلقه، عظيماً في تقواه»[١].

واحترم ثورة الإمام زيد، ومخاطرته وصراحته، وإنكاره الفساد. قال فيه: «كان يطمح إلى أن يكون له سلطان يبتغيه وسيلةً إلى إصلاح حال الأمة، وإعادة ما ضاع على أيدي بعض أمراء بني أمية من العدل»[٢]. «ولا ننكر على زيد مخاطرته في سبيل الإصلاح إذا أخذ بالعزيمة»[٣].

وامتدح الشيخ نقده للخليفة هشام بن عبد الملك، ووصفه بأنه: «كان من كبار المحدثين»[٤]، وأنه: «كان فقيهاً مجتهداً»[٥]، وهذا يعد تقريباً بين الشيعة وأهل السنّة، سبق إليه الذين يعملون للتقريب اليوم.

انتقد الباطنية، والبابيـة، كما انتقد بعض المعتزلة الذيـن يرى أنهم انحرفوا تأثراً بالفلسفة، وتعسفوا في تأويل بعض النصوص[٦].

وأشاد بالأشعري، الذي رأى أنه عبّر عن مذهب أهل السنّة، وأنه على مذهب السلف، وما كان عليه الأئمة، ودافع عن الأشعري ضد خصومه، ولكنه لم يطلع إلا على كتابه: «الإبانة» الذي قرر فيه عقيدة السلف.

وأشاد بالجرجاني أبي الحسن، الذي جمع بين النثر والشعر والذوق الرفيع في نقده الأدبي، متأثراً بعبد القاهر الجرجاني، فجمع بين نثر الجاحظ،

---

(١) المصدر نفسه (ص٣٤).

(٢) المصدر نفسه (ص٣٤).

(٣) المصدر نفسه (ص٣٤).

(٤) المصدر نفسه (ص٣٢).

(٥) المصدر نفسه (ص٣٢).

(٦) المصدر نفسه (ص٨٢ ـ ٨٣).

ونظم البحتري، وكتابه: «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، كان فيه مع ميزان العدل في النقد، ولم يتابع فيه الصاحبَ بنَ عباد.

كما دافع عن الغزالي في كتابه «الإحياء» ضد خصومه أيما دفاع.

واعتز بشخصية أحمد تيمور باشا، وبصداقته، وعلمه وتواضعه، واعتزازه بالعربية، وبالتاريخ الهجري الذي لا يكتب غيره في مراسلاته، حتى إذا كاتب الشركات الأجنبية، ولا يقبل أي طعن في الإسلام.

وبدأت علاقة الشيخ محمد الخضر به سنة (١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م)، ولم يذكر تاريخ وفاته في هذه الترجمة أو التأبين، ولا تاريخ ولادته، وهو وُلد سنة ١٢٨٨هـ، وتوفي سنة ١٣٤٨هـ (١٨٧١ - ١٩٣٠)، ومعنى هذا: أنه دامت صداقتهما ثمانية أعوام.

وكان أحمد تيمور قد صحب الشيخ طاهر الجزائري، وأخذ عن محمد عبده، وخزانته تضم ثلاثة عشر ألف مجلد، نصفها مخطوط[١].

٣ - تشتمل هذه التراجم على نموذج من شعر الشيخ محمد الخضر حسين، تدل على قيمة جمالية واضحة، ويتمثل هذا النموذج في قطعتين:

الأولى: في قصة عبد الرحمن الداخل[٢] مع الشاعر أبي المخشِيّ، نظم هذه القصة في موشح رائع مطلعه:

خلّ نفسَ الحرِّ تَصْلى النُّوَبا   لا تُبالي

---

(١) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج١، (ص١٠٥).

(٢) ديوان «خواطر الحياة».

ليـــــستِ الأخْطـــارُ إلا ســـبَبًا لِلْمَعـــالي

وهي قطعة تستحق دراسة أدبية لسانية خاصة، وتقع في ١١٢ بيتاً.

وأما القطعة الثانية، فنظمها عندما أنهى كتابه: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لطه حسين في خمسة أبيات على لسان القلم، وأهداها إلى أحمد تيمور باشا مع الكتاب، ومطلعها:

سفكَتْ دمي في الطِّرْسِ أنملُ كاتبٍ وطـوتنِيَ المبـراةُ إلاّ مـا تـرى[1]

* **مصادر التراجم:**

موارد الشيخ محمد الخضر حسين في تراجمه متعددة، يأتي في مقدمتها «العواصم من القواصم» لأبي بكر بن العربي، اتخـذ منهجـه في الدفاع عن العثمانية، وفي معالجة مشكلة الفتنة الكبرى[2]، على طريقة المحدثين التي لا تتفق مع روايات كثير من المؤرخين، يقول: «لكن حفاظ الحديث أنكروا هذا الذي يحكيه المؤرخون»[3].

أما ما نقله عن المؤرخين، فإنه لا يسميهم، ولا يذكر مؤلفاتهم ـ غالباً ـ، ويقتصر على عبارة: «يذكر المؤرخون»[4].

ومن مصادره: «صحيح البخاري»[5]، في مسألة: حماية الأرض، وغياب

---

(١) المصدر نفسه في هامش (ص١١٣).

(٢) المصدر نفسه (ص١٢، ١٦، ٨١، ٩٠، ٩١، ٩٧).

(٣) المصدر نفسه (ص١٦).

(٤) المصدر نفسه (ص١٣، ١٧، ١٨، ٢٠).

(٥) المصدر نفسه (ص١٨، ١٩).

الإمام عثمان عن بعض الغزوات.

ونقل عن الحافظ ابن عبد البر، من كتابه: «الاستيعاب»[1]، ورجع إلى «وفيات الأعيان» لابن خلكان، وسماه: «تاريخ ابن خلكان»[2]، وابن قتيبة في كتاب: «المعارف»[3]، و«سيرة محمد بن إسحاق»، وكتاب الزمخشري: «ربيع الأبرار»[4].

ويذكر أحياناً مصادر غير واضحة؛ مثل: «صاحب الإرشاد»[5]، أو: «قال صاحب القاموس»[6]، أو «كتب الأدب والتاريخ»[7].

ويورد أحاديث لا يخرجها غالباً بذكر مصادرها الحديثية[8].

ومن مصادره: كتاب أبي بكر بن الخطيب في الرواة[9]، ويرجح أحياناً بعض الروايات[10] على بعض، ورجع إلى كتاب «المدارك» للقاضي عياض[11]،

(١) المصدر نفسه (ص١٥).

(٢) المصدر نفسه (ص١٥).

(٣) المصدر نفسه (ص٢٢).

(٤) المصدر نفسه (ص٢٤).

(٥) المصدر نفسه (ص٢٩).

(٦) المصدر نفسه (ص٣٠).

(٧) المصدر نفسه (ص٤٤).

(٨) انظر تخريجه للحديث: (ص٥٣).

(٩) المصدر نفسه (ص٥٨).

(١٠) المصدر نفسه (ص٥٨).

(١١) المصدر نفسه (ص٨٥، ٨٩، ١٠٣).

و«معالم السنن» لأبي سليمان الخطابي، وهو شرح لسنن أبي داود[١]، وتكلم على منحى البخاري ومسلم في مدونتيهما في الحديث في أثناء كلامه عن سنن أبي داود[٢]، ونقل من «المنقذ من الضلال» للغزالي[٣]، وابن السبكي في «طبقات الشافعية»[٤]، وابن الجوزي في كتابه «شذور العقود»[٥]، ورجع إلى «الإبانة» للأشعري[٦]، وبعض «رسائل الصاحب بن عباد»[٧]، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» لأبي الحسن الجرجاني[٨]، و«زجر المفتري على أبي الحسن الأشعري» لأبي العباس أحمد القرطبي[٩]، و«عقيدة المطلبي» لأبي عبدالله الجويني[١٠]، وكتاب «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر[١١]، و«قانون التأويل» لأبي بكر بن العربي[١٢]، وكتاب «الإحياء» للغزالي[١٣]، و«المغني عن

---

(١) المصدر نفسه (ص٧٨).

(٢) المصدر نفسه (ص٧٨).

(٣) المصدر نفسه (ص٨٣).

(٤) المصدر نفسه (ص٨٥، ٩٠).

(٥) المصدر نفسه (ص٥٨).

(٦) المصدر نفسه (ص٥٨).

(٧) المصدر نفسه (ص٩٢، ٩٤).

(٨) المصدر نفسه (ص٩٤).

(٩) المصدر نفسه (ص٨٩).

(١٠) المصدر نفسه (ص٨٨).

(١١) المصدر نفسه (ص٩٧).

(١٢) المصدر نفسه (ص٩٧، ١٠١، ١٠٤، ١٠٦).

(١٣) المصدر نفسه (ص٦٨).

حمل الأسفار» لزين العابدين عبد الرحيم العراقي[1]، و«مقدمة ابن خلدون»[2]، و«ترتيب المسالك» لأبي بكر بن العربي[3]، و«مقالات الآثار النبوية» لأحمد تيمور باشا، التي حررها في مجلة «الهداية الإسلامية»[4].

ويبدو أنه اطلع على ما ذكره من مؤلفات أحمد تيمور، ومقالاته في «المؤيـد»، «والهـلال»، و«المقتطف»، و«المقتبـس»، ومجلة «الزهـراء»، و«الفتح»، ومجلة «المجمع العلمي بدمشق»، فضلاً عن مقالاته في مجلة «الهداية الإسلامية»، التي أنشأها الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ، ولعل دفنه بالمقبرة التيمورية له صلة بصداقته لأحمد تيمور باشا، ولنجليه الماجدين[5]، على حد وصفه لهما.



---

(١) المصدر نفسه (ص٩٩).

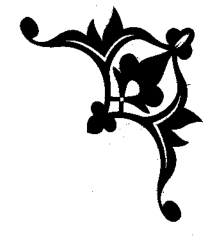
(٢) المصدر نفسه (ص١٠٥).

(٣) المصدر نفسه (ص١٠٦).

(٤) المصدر نفسه (ص١١٢).

(٥) المصدر نفسه (ص١١٤).











الإمام العلامة
محمد الخضر حسين شاعراً

للدكتور كمال عجالي[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وسلم تسليماً.

عاش محمد الخضر حسين في أسرة وفي عائلة مفعمة بحب الأدب

---

(١) قدمه رئيس الجلسة بقوله: «الأستاذ كمال عجالي غني عن التعريف، هو أحد الأسماء الباقية معنا هنا، لم ترحل لحسن الحظ، لم تهاجر، بقيت تضيء من حولنا. هو قاموس متكامل حقيقة بالأدب. في وقت فقدت فيه الكلمات مفرداتها، فهو الأستاذ والكاتب والباحث والمحقق، لا بأس أن أقدمه كأكاديمي في بعض الومضات، متحصل على دكتوراه الدولة في الأدب الجزائري الحديث حول أدب الشيخ الطيب العقبي، متحصل ـ أيضاً ـ على شهادة الماجستير حول أدب الشيخ أبي بكر مصطفى بن رحمون، بالإضافة إلى شهادة الليسانس في الحقوق. ومن مؤلفاته: أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ـ الفكر الإصلاحي في الجزائر الشيخ العقبي ـ بين الأصالة والتجديد ـ الشيخ الطيب العقبي مواقف وآراء ـ محمد ابن عزّوز البرجي وكتابه «قواطع المريد» ـ ديوان شعر حدث وإرهاص. وللأستاذ كمال العجالي كتب أخرى تحت الطبع، نذكر منها: آثار الشيخ الطيب العقبي ـ ديوان أبي بكر مصطفى بن رحمون، ومن أعلام الجزائر. وهو يشتغل الآن ـ والحمد لله ـ أستاذاً في التعليم العالي في كلية الآداب بجامعة «باتنة».

والشعر، والثقافة العربية والإسلامية، فلا غرابة أن يقرض الشعر، ويكتب مبكراً من سني عمره.

ثم انصرف عنه إلى طلب العلم، ومزيدٍ من التحصيل المعرفي، ولم يعد ينظم الشعر إلا لدواعي الضرورة القصوى، فهو لم يقل الشعر إلا لتهنئة صديق، أو تذكيره بما يربط بينهما من الصلات، أو لرصد ناحية خلقية أو اجتماعية مشاركة منه في إصلاح المجتمع الإسلامي وتهذيبه، ولكن ذلك كله لم يمنعه من أن يقول شعراً كثيراً، وخاصة في السنوات الأخيرة من حياته.

وأكثر شعره جاء في موضوعات متفرقة؛ كوصف منظر، أو رصد موقف، أو تسجيل حكمة، أو التقاط مفارقة، أو تأمل في تجارب الحياة وأخلاق الناس.

يقول في رصد منظر الغروب وتصوير الشفق:

هذا الدُّجى اغْتالَ النَّهارَ ودَسَّهُ   تحتَ التُّرابِ مُضرَّجاً بدمائهِ[1]

ما حُمْرَةُ الشَّفَقِ التي تَبْدو سِوى   لَطْخٍ مِنَ الدَّمِ طارَ نحو رِدائهِ[2]

لقد كان الشيخ الحسين مجبولاً على حب الحرية، والعزّة النفسية العالية، وقلما سنحت له الفرصة، وكثيراً ما كان يفعل ذلك، إلا ونبّه الأمة إلى الأخذ بأسباب التقدم والازدهار، والعمل على الانعتاق من ربقة الاستعمار.

---

(١) الدجى: الظلمة.

(٢) الشفق: الحمرة في الأفق من الغروب إلى العشاء الآخرة، أو إلى قريب العتمة.
اللطخ: اليسير القليل من كل شيء.

يقول في موقف، وهو على فراش المرض بعد أبيات كلها تصبر وثبات على المكاره:

أَطَلَّ عَلَيَّ الموتُ من خَلَلِ الضَّنا ... فآنَسْتُ وجْهَ الموْتِ غيرَ كئيبِ[1]

ولوْ جسَّ أَحشائي لخِلْتُ بَنانَهُ ... وإنْ هالَ أقْواماً بنانَ طبيبِ

فلا كانَ مِنْ عَيْشٍ أرى فيه أُمَّتي ... تُساسُ بِكَفَّيْ غاشمٍ وغريبِ[2]

كما كان الشيخ ودوداً، صائناً للعشرة، محافظاً على الصداقة، مراعياً لآداب الأخوة، ما لم تمس كرامته، أو يطعن في ذمته، لذلك نجده يقول في متفرقاته:

خَلُّوا عِداتي يَمْلَؤونَ بخَيْلِهِمْ ... وبِرَجْلِهِمْ أَكَمَ الثَّرى ووِهادَهُ[3]

لا هَمَّ في الدُّنْيا إذا ظفَرتْ يَدي ... بأخٍ عَشِقْتُ ذَكاءَه ورَشادَهُ

أَصْفو لهُ أمدَ الحياةِ وإنْ رَمى ... سَمْعي بقَوْلٍ خادِشٍ ما اعْتادَهُ

لستُ المُقاطِعَ إنْ جَفا خِلٌّ ولَمْ ... يَكُ قَطْعُ رابطةِ الوِدادِ مُرادَهُ

إن متفرقات الشيخ الخضر كثيرة ومتنوعة ومتداخلة، لا يكاد يحصيها الباحث عدّاً، وعليه: فشعره أغلبه من المقطوعات الشعرية التي تحوي البيتين، أو الثلاثة، أو الستة أبيات. ولا يتجاوز عدد قصائده الطويلة سبعين قصيدة؛ فقد كان الرجل قصير النفس في جلِّ أشعاره، إلا فيما يتصل ببعض المواضيع

---

(١) الضنا: المرض والهزال، سوء الحال.

(٢) ساس الأمة: قام بها. الغاشم: الظالم والغاصب. الغريب: المستعمر إطلاقاً.

(٣) العداة: واحده العادي، وهو العدو. الأكم: جمع أكمة: التل.

الهامة التي يبدو أنها كانت توافق مزاجه؛ مثل: تمجيد العرب والإسلام، وتهنئة الأصدقاء، ورثاء الأقارب.

وقد تناول في شعره أغراضاً كثيرة، أهمها: الإخوانيات، والقضايا الوطنية والسياسية، والرثاء، والوصف، والوجدانيات، والاجتماعيات، والإسلاميات.

وقبل الحديث عن شعر الإخوانيات لابد أن نعرف أولاً: ما المقصود بهذا اللون من الشعر؟

وفي الحقيقة يصور هذا اللون من الشعر الاجتماعي الصلات والروابط التي كانت تربط الأصدقاء من الشعراء، ويتحدث هذا الشعر بين سطوره عن الصداقة، والأخوة، والتهنئة، والاعتذار، والعتاب، والشكوى، والتعزية، والاستعطاف.

ولقد ساعدت المساجلات والمراسلات الشعرية، واستخدامها استخدام النص على انتشار هذا اللون من الشعر بين الكثير من الشعراء والأدباء، كما يذهب البعض إلى تسميته بشعر المجاملات، أو الشعر الإخواني.

ولكثرة تجوال شاعرنا وأسفاره، ودماثة أخلاقه، فقد اكتسب إخواناً وأصدقاء من الأدباء والشعراء والعلماء في بلدان متعددة، وكان من أبرزهم: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من تونس، وخليل مردم بك من سورية، إلى آخرين غيرهم من أفراد أسرته وأقاربه.

بعث ذات مرة إلى الشيخ عبد القادر بن المبارك الجزائري المقيم في دمشق، بعد أن قرّظ كتاب «الخيال في الشعر العربي» للخضر حسين، فقال الشيخ محمد الخضر حسين شاكراً الفضل، وحامداً الصنيع:

أَمْحَـضُ الأُسـتاذَ شُـكْراً سـاطِعاً بَيْنَ صافي الوِدِّ والشَّوْقِ المُذيبِ[١]

وسـلاماً مِـنْ بَعيـدٍ كُلَّمـا عَـزَّ إلقـاءُ سـلامي مِـنْ قريـبِ

وحين تولى الشيخ الطاهر بن عاشور خطة القضاء في تونس، بعث إليه الحسين مهنئاً، فقال:

يا طاهِرَ الهِمَمِ احْتَمَتْ بِـكَ خُطَّـةٌ تَبْغـي هُـدًى ومـروءَةً وسَـماحا[٢]

سـحَبَتْ رِداءَ الفَخْـرِ واثقـةً بمـا لـكَ مِـنْ فـؤادٍ يَعْـشَقُ الإصْـلاحا

ستـشُدُّ بـالحَزْمِ الحكـيمِ إزارَهـا والحَزْمُ أنْفَسُ ما يكونُ وِشـاحا[٣]

وتذودُ بالعَدْلِ القَذَى عَنْ حَوضِـها والعَدْلُ أَقْوى ما يكـونُ سِـلاحا[٤]

وفي ردّه على خليل مردم بك الشاعر السوري الشهير، الذي اشتكى أن ينساه الحسين، وينسى أيامه التي قضياها معاً في دمشق، فقال الخضر:

إنّـي علـى ثقـةٍ مِـنْ أنَّ ذِكْـرَكَ لا ينفَكُّ مُرْتَسِماً في النَّفْسِ كـالخُلُقِ

وكيفَ أنسى «خليلاً» قَدْ تضوَّعَ في حُـشاشَتي وِدُّهُ كـالعَنْبَرِ العَبِـقِ

كان شاعرنا مخلصاً في صداقته، مجدداً تواصله مع أحبائه، متطلعاً إلى

---

(١) مَحَضَ: أخلص.

(٢) الخطة: الأمر والطريقة. ويطلقها أهل الأندلس على أي منصب من مناصب الحكومة، فيقال: خطة الفتوى، وخطة التعليم.

(٣) الإزار: الملحفة. الوشاح: شيء شبه قلادة تلبسه النساء.

(٤) تذود: تطرد. القذى: ما يقع في العين أو الشراب من تبنة أو غيرها. الحوض: مجتمع الماء.

لقياهم وسماع أخبارهم، ولا غرو في ذلك، فهو قد نظم في موضوع الصداقة والأصدقاء أكثر من عشر قصائد، تعرض في بعض منها إلى أهمية الصداقة، ودورها في حياة الإنسان، وتعرض في البعض الآخر إلى خصال بعض أصدقائه، وصلاته المتينة بهم، وخاصة منهم: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي أفرد له مقطوعات وقصائدَ عديدة تبين مدى الود الذي كان يربط بين الرجلين، والمحبة الخالصة التي كانت تجمع بينهما.

وكما كان الشاعر محباً لأصدقائه، فقد كان محباً ـ أيضاً ـ لأمته، مخلصاً لها، محضها الود والإخلاص، والرشدَ والنصيحة طوال حياته، فبعد وعد بلفور المشؤوم في نوفمبر ١٩١٧م، بدا تألُّم الشاعر وتحسّره على ما آلت إليه فلسطين من عصابات الإجرام اليهودية، الذين نخروا في جسمها كالسوس بالمال والمؤامرات والرشاوى، وشراء المواقف في المحافل الدولية، واستنكرَ تباطؤ العرب وتخاذلَهم في نصرة إخوانهم الفلسطينيين بالمال والسلاح، فقال:

لا تُنجِدُوهُمْ بالتَّحَسُّرِ وَحْدَهُ ... إنَّ التَّحَسُّرَ لا يُزيحُ عَناءَ
لا تنهَضُ الأوطانُ من كَبَوَاتِها ... إلاّ على أيدٍ تَفيضُ سخاءَ
ما سادَ قومٌ أُشْرِبوا شُحّاً وإنْ ... بَلَغوا السّماءَ شَجاعةً وذَكاءَ[1]
أمِنَ المُروءةِ أنْ نُنادَى لِلّتي ... فيها النَّجاةُ ولا نُجيبُ نِداءَ
بسطَ اليهودُ إلى اليهودِ أكُفَّهُمْ ... بالمالِ مِنْ بَيْضاءَ أوْ صَفْراءَ[2]

(١) الشُّح: البخل مع الحرص.

(٢) البيضاء: الفضة. الصفراء: الذهب.

ومتى أرى قَوْمي قَدِ اسْتَبَقوا العُـلا بِـسخاءِ كَـفٍّ يكْـشِفُ الـلأْواءَ[١]

مثلما أحب الشاعر أمته، فلم ينس وطنه الذي ولد فيه، وتربّى في ربوعه، فأشاد به في كل موقف، وتغنّى فيه بكل محفل ومناسبة ذكَّرته به.

ودعا إلى التحرر والاستقلال، والعمل على طرد الباغي الغريب، وحرَّضهم على أن يفعلوا مثلهم مثل إخوانهم في طرابلس الذين يخوضون حرباً ضد الإيطاليين (١٩١١ ـ ١٩١٢م)، فقال:

رُدّوا على مَجْدنا الذِّكْرَ الـذي ذَهَبـا يَكْفي مَضاجِعنَا نَوْمٌ دَهَى حُقُبـا[٢]

ولا تعـودُ إلـى شَـعْبٍ مُجادَتُـه إلا إذا غـامَرَتْ هِمّاتُـهُ الـشُّهُبا[٣]

حَيّـاكُمُ الله قَـوْمي إنَّ خَـيْلَكُمُ قَدْ ضُمّرَتْ والسِّباقُ اليومَ قد وَجَبا[٤]

وقد ظلت عين شاعرنا ترقب كل كبيرة وصغيرة في الساحة الدولية، فراعه ما كانت تقوم به قوى الاستعمار من أساليب المكر والخداع، ومنها: خدعة التجنيس التي كان يهدف الاستعمار من ورائها إلى احتواء النخبة، وتخلية الوطن من قواه الحية التي يمكن أن يعقد عليها الأمل. فقال الحسين في قصيدته: (صرخة المغرب):

---

(١) اللأواء: يقال: لأواء العيش شدته. وفي الحديث الشريف: «من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن، كُنَّ له حجاباً من النار».

(٢) دهاه: أصابه بأمر عظيم. الحُقُب: ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك.

(٣) مجادته: عزته وشرفه. غامرت: قاتلت، ولم تبال بالموت. هماته: جمع همّة، وهي العزم القوي. الشهب: شعلة من نار ساطعة، أو كل شيء مضيء متولد من نار.

(٤) ضمّرت: ضمَّر الخيل: ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن، ثم قلَّل ماءها وعلفها مدّة وركّضها في الميدان حتى تهزل. ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً.

لاذَ بـــالتّجْنيسِ والقَـــوْمُ أَبَـــوْا   خَوْفَ أنْ يَصْلَوْا بهِ النَّارَ الحِراقا[1]

وبَنُـــو المغــربِ عُــرْبٌ شِــيَماً   ولِــساناً، لا ادِّعــاءً واخْتِلاقــا

وما دام بنو المغرب مسلمين، رفضوا التجنيس، وخافوا أن يصلَوا النار، فواقعُ الحال يدعو فرضاً أن يكسروا هذه القيود، ويحطموا تلك السدود التي ينصبها لهم المستعمر الغاشم، فقال مخاطباً تونس:

يا شاطِئَ المرْسى إلامَ الهُجودْ   فُكَّ القُيودْ[2]

وكُنْ كما كُنْتَ لعهدِ الجُدودْ   غِيلَ الأُسودْ[3]

يَمْرَحُ فيكَ العِزُّ بين الجُنودْ   ضافي البُرودْ

فأنت لا تَزْهى بِتَلْحينِ خُودْ   ونَقْرِ عـــودْ[4]

إن تحرير الأوطان يتطلب تضحية وفداء، ولا بدَّ أن تراق الدماء القانية في طريق الحرية، وتروى الدروب بدماء الشهداء، وتغسل الأرض من درن الاستعمار وأوضاره، لذلك قال الخضر:

حديثُ عنقاءَ شَعْبٌ أنقذَ الوطنا   ولم يسلَّ سيوفاً أو يَهُزَّ قَنا[5]

---

(١) التجنيس: فتح باب التجنيس بالجنسية الفرنسية. الحراق: التي لا تبقي شيئاً.

(٢) المرسى: بلدة في ضواحي تونس فيها متنزهات تجمع بين منظر البحر الأبيض، والحدائق الأنيقة، وطالما تمتع الشاعر بالتنزّه فيها؛ إذ هي مقر صديقه منذ عهد طلب العلم العلامة المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الهجود: النوم.

(٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف، ويقصد به: العرين.

(٤) الخود: الحسنة الخَلْق.

(٥) العنقاء: طائر معروف الاسم، مجهول الجسم لا يعرف، ويراد بحديث عنقاء: =

إلى أن يقول:

عُسْفُ العدا دَرَنٌ فاسْكُبْ عليه دَماً مِنَ الدِّماءِ الغَوالي تَغْسِلُ الدَّرَنا[١]

ولا يَروعَنْـكَ جُنْـدٌ شـنَّ غارَتَـهُ على البُغاثِ فَلاقى الجُبْنَ والوَهَنا[٢]

إن الصُّقورَ إذا انْفضَّتْ تُنافِحُ عَـنْ أوْكارِها لم تَهَبْ جُنْداً ولا ثُكَنـا[٣]

وعزة الأوطان غالية، وأغلى منها مهرُها الذي يتجسد في أرواح شبابها حين يتقدمون إلى ساح الوغى فداء وتضحية مع الاستعداد وإعداد العدة، فقال:

عِـزَّةُ الأُمَّـةِ فـي نَـشْءٍ إذا نَـشَبتْ فـي خَطـرٍ كـانوا فِـداها

وجَناحـا فَوْزِهـا اسْتِمْـساكُها بِهُـدى الله وإرهـافُ قَناهـا

ولما كان شاعرنا من دعاة الجامعة الإسلامية الذين كانوا يعمدون إلى العمل السياسي المنظم الشامل، وسعوا إلى الوحدة العامة بين الأقطار الإسلامية، وكان منطلقهم الأول: أن الإسلام صالح لنهضة المسلمين المطلوبة لكل زمان،

= الأمر لا حقيقة له. قال الشاعر:

الجـود والغـول والعنقـاء ثالثـة أسـماء أشـياء لـم توجـد ولـم تكـن

وقال آخر:

ثلاثـة لـيس لهـا وجـودُ الغـول والعنقـاء والـودود

(١) العسف: الظلم. الدرن: الوسخ.

(٢) البغاث: طائر لا يصطاد، ولا يرغب في صيده، شرار الطير.

(٣) الثكن: جمع ثكنة: مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم، وإن لم يكن هناك لواء ولا عَلَم.

لكل ذلك تأثر شاعرنا بالضربة القاصمة التي وجهها كمال أتاتورك للخلافة الإسلامية حين ألغاها، فازدادت آلام شاعرنا أضعافاً مضاعفة، إلى جانب ما كان يقاسيه من معاناة بسبب استعمار أوطانه العربية التي دعاها مرات ومرات إلى الثورة وفك القيود.

كان الخضر حسين مدركاً الخلافة الإسلامية، فقال:

حتّـى تحكَّـمَ فيـهِ رَهْـطٌ بَـدَّلوا خَبَثَ الحديدِ بِعَسْجَدٍ مَسْبوكِ[١]

نزَغـاتُ وَسْـواسٍ تَخَـبَّطَهُمْ فَمـا لَبِـثوا أنِ اغْتَـرّوا بِـوَحْيِ أَفـوكِ[٢]

وتبلغ الحسرة مداها، فيتمنى شاعرنا لو يقيض الله لهذه الأمة رجلاً يجمع شملها، ويعيد لها وحدتها؛ مثل: صلاح الدين الأيوبي الذي أبلى البلاء الحسن في سبيل نصرتها، ولمِّ شملها، وتحرير أوطانها. وها هي ذي اليوم قوى الاستعمار تمرح في ربوعها:

جاسُوا المَدائنَ والقفارَ وأَرْصَـدوا فـي كـلِّ وادٍ غاشـمٍ فتّاكـا[٣]

يـا لَيْتَنـي أدْري ومِثْلُـكَ يُقْتَـدى بمثالِـهِ بـينَ الـوَرى ويُحـاكى

أَيُتـاحُ للـشَّرْقِ المعـذَّبِ ذائـدٌ يَرْمـي ويَبْلُـغُ فـي النِّضالِ مَداكا

ومن أهم عناصر كيان الأمة: الأخلاق الفاضلة، والسجايا الحسنة التي دعا إليها شـاعرنا بأكثر من موقف، وفي أكثر من مناسـبة، وهاجم الآفـات الاجتماعيـة، والأمراض الخلقية، وكل ما تفشّـى في المجتمعات العربيـة

---

(١) الرهط: قوم الرجل وقبيلته. خبث الحديد: ما نفاه الكير.

(٢) الوسواس: الشيطان. أفوك: كاذب، ويعني به: الشيطان.

(٣) المدائن: جمع المدينة. أرصدوا الرقيب: نصبوه في الطريق.

والإسلامية من جراء تقليدها للحياة الأوربية المستجدة. وانتقد ما تقدمه المدارس الحكومية من علوم ومعارف مجافية لروح الدين، وكرَّ كرّة عنيفة على دعاة الإلحاد والتفسخ، وكشفَ مخاطر البهائية والبابية والقاديانية التي تدَّعي الإسلام، والإسلامُ منها براء.

وانتقد الرؤساء والحكام المتخاذلين والمتقاعسين لنصرة شعوبهم، وإصلاح أمر مجتمعهم؛ بحجة قوة الاستعمار وغلبته:

لا خَيْرَ في الرُّؤساءِ إنْ لَمْ يَنْهَضوا ... بالشَّرْقِ حتّى يَخْلُفَ الدّاءَ الشِّفاءُ

قالوا: حَوالَيْنا غَريبٌ رُبَّما ... يُبْدي رَغائبَ قَدْ تُعارِضُ ما نَشاءْ[1]

قُلْنا: الرئيسُ الحرُّ لا يُثْنيهِ عَنْ ... إصلاحِ شَأْنِ الشَّعْبِ خَوفٌ أوْ رَجاءُ

كان الخضر حسين في كل مناسبة يدعو إلى إصلاح المجتمع، ويحث على التمسك بعرا الدين القويم، ويستنهض الهمم، ويضرب الأمثال بالنماذج وأصحاب السير الخالدة الذين تركوا بصماتهم في الحياة، وكانوا النبراسَ المضيء لشعوبهم، كما دعا إلى الحفاظ على اللغة العربية؛ لكونها عنصراً مهماً في حياة الأمة العربية والإسلامية، وشجع على تعلم الآداب والفنون، وأرشد الأدباء وأصحاب الأقلام إلى تسخير طاقاتهم الإبداعية لخدمة مجموعتهم وملّتهم الغراء.

وبيَّن أن العلم في عصرنا واجب وفرضٌ طلبُه، واللغة العربية التي استطاعت مواكبةَ كلّ تطور قادرةٌ على استيعاب علوم العصر، ولا تقدُّم للشعوب إلا بالعلوم والمعارف والأخلاق والآداب والثقافة (التكنولوجيا)، والذي

---

(١) الغريب: يقصد به المستعمر إطلاقاً.

رام التقدم من غير هذا السبيل أضاع عمره سدى.

كان محمد الخضر حسين شاعراً وعالماً، ومصلحاً منفتحاً على العصر وعلومه، يأخذ منه كل ما يعتقد أنه مفيد لأمته؛ شريطة أن لا يتصادم مع أصول الدين الإسلامي الحنيف. وهذا الذي يعبر عنه بالانفتاح، ونعني به: الانفتاحَ الحضاري للاستفادة من المعطيات الحضارية الغربية الجديدة؛ باقتباس علوم الطبيعة، وعلوم التمدن المدني والعلمي؛ مثل: علوم الزراعة والحيوان، وعلوم الصناعة والحرف والتجارة، وعلوم الطب والصيدلة، ووسائل الاتصال والمواصلات، وعلوم طبقات الأرض وأنواعها ومعادنها، والرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك، وعلم الجغرافية والبحار والملاحة، وما إلى ذلك من المعارف التي تتصل بعلوم المادة وظواهرها.

وبقدر ما كان الخضر حسين ذا شخصية قوية معبرة ذات أنفة وكبرياء، فقد كان رقيق القلب، شفيقاً رؤوفاً، ويبدو أن نفس الشاعر كانت مشوبَة بحزن وألم دائمين، مما جعله يجيد فن الرثاء، ويعبر عن أحاسيسَ وعواطفَ تتجاوز المرء إلى أبعاد أعمقَ وأشمل، فقد رثى خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز الذي توفي بالآستانة، وزوجته الثالثة المتوفاة سنة ١٩٥٣م في القاهرة، ورثى صديقه الحميم أحمد تيمور باشا الذي كانت تربطه به صداقة متينة، وودٌّ متين.

وأبلغُ مرثياته في نظرنا: هي التي قالها في والدته التي توفيت بدمشق سنة ١٩١٧م، وكان وقتئذ في البلاد الألمانية.

وأبّن الشيخ علي محفوظ أحدَ علماء الأزهر الكبار، ورثى أستاذه سالم بو حاجب من تونس.

ولقد كان أعمقَ عاطفة، وأرقَّ أسلوباً في مراثيه، التي قالها في والدته التي كانت تمثل له شيئاً كبيراً، وقيمة ثمينة؛ بما كانت تغرسه فيه وفي إخوته من قيم ومُثُل، فقال:

(بِنْـتَ عَـزّوزَ) لَقَـدْ لَقَّنْتِنـا ... خَـشْيَةَ الله وأنْ نَرْعـى الـذِّماما[1]

وَدَرَيْنـا مِنْـكِ أنْ لا نَـشْتري ... بِمعالينـا مِـنَ الـدُّنْيا حُطامـا[2]

وَدَرَيْنـا منـكِ أنَّ الله لا ... يَخْذِلُ العَبْـدَ إذا العَبْـدُ اسْـتَقاما[3]

وَدَرَيْنـا كيـفَ لا نَعْنـو لِمـنْ ... حاربَ الحَقَّ وإنْ سَلَّ الحُـساما[4]

كُنْـتِ نـوراً فـي حِمانـا مِثْلَمـا ... نَجْتَلـي البَـدْرَ إذا البَـدْرُ تَـسامى

أَفَلَـمْ تُحْيِيـه بـالقرآنِ فـي ... رِقَّـةِ الخاشِـعِ مـا عِـشْتِ لِزامـا

كُنْـتِ لـي رَوْضَـةَ أُنْـسٍ أَيْنمـا ... سِرْتُ أَهْدَتْ نَفْحَ وَرْدٍ وخُزامى[5]

والدارس لمرثيات الحسين يلاحظ أن الرجل يمجد قيماً، ويبكي خصالاً وسجايا حميدة في الأشخاص الذين رثاهم، سواء كانوا أقارب، أو غيرهم. ويدعو ضمنياً إلى التخلق بتلك الصفات، والتشبث بتلك القيم؛ لما فيها من

---

(١) بنت عزوز: السيدة البارة المرحومة حليمة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، والدة الشاعر، ومن الشهيرات بالتقى والعلم والصلاح. ولدت بتونس سنة ١٢٧٠هـ، وتوفيت بدمشق سنة ١٣٣٥هـ. الذمام: الحق والحرمة.

(٢) الحطام: ما تكسر من اليبس. ويقصد الشاعر: مال الدنيا وزخرفها.

(٣) خذل الرَّجُلَ: ترك نصرته وإعانته.

(٤) نعنو: عنا له: خضع وذل.

(٥) الخزامى: نبت زهره أطيب الأزهار نفحة، ويتمثل به في الطيب.

النفع والفائدة لصالح الأفراد والجماعات.

بالإضافة إلى ما سبق: نجد الشاعر يُعمل فكره في الحياة، وسلوك الخَلْق، ويتأمل ويخلُص إلى أخذ العبرة مما وصل إليه من عظات وعبر في شؤون الناس والحياة، وما رصد من مفارقات تستلفت نظر الإنسان وتتطلب منه.

وشعر الخضر حسين شعر تقليدي إذا ما قيس بمقاييس المعاصرة، وإن عدّه البعض شعراً عصرياً أو جديداً، إلا أن الروح المحافظة المسيطرة عليه جعلت النزعة التقليدية لديه أقوى.

يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في هذا المضمار: ويظهر أن نشأة الطريقة الشعرية المصورة للنزعة الفكرية والقومية إنما ظهرت في سبك متين، ومنطق رصين على يد الشيخ محمد النخلي، ثم سمت وأشرقت على يد الشيخ الخضر، إلا أنهما لم يلتزما.

خلاصة القول التي يمكن أن نختم بها: إن هذا الديوان «خواطر الحياة» لصاحبه محمد الخضر حسين وثيقة هامة، تفيد الباحث في التعرف على كثير من المعطيات التاريخية، والنظريات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي كانت تشغل بال هذا العالم، وبالَ غيره من المثقفين المعاصرين له، والمهتمين بشؤون العالم الإسلامي وقضاياه.

كما يبيّن هذا الديوان قيمة صاحبه الشعرية، وهو ديوان يحتاج إلى دارسة علمية أكاديمية متأنية، وما قدمناه اليوم لا يكاد يتجاوز حد الانطباع، أو قلْ: هو خطرات حول ديوان «خواطر الحياة».

وشكراً لكم.



جهود الأزهر في مواجهة التغريب
الإمام محمد الخضر حسين الجزائري نموذجاً

الدكتور نجيب بن خيرة[1]

* **محمد الخضر حسين. . . في سطور:**

- أصله من «طولقة» بالصحراء الجزائرية، ولا تزال أسرته بطولقة، وهي أسرة «عثماني» القائمين على الزاوية العثمانية العامرة، وبلدة «برج ابن عزّوز»؛ حيث أحفاد أخواله هناك، ومنهم: العلامة محمد المكي بن عزّوز ـ رحمه الله ـ.

- ولد في مدينة «نفطة» بتونس (١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م).

- تلقى تعليمه في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى تونس العاصمة مع أسرته، والتحق بجامع الزيتونة.

- بعد تخرُّجه في جامع الزيتونة عمل بالخطابة والتدريس والقضاء.

- أسَّس في تونس مجلة لخدمة الفكر الإسلامي بعنوان: «السعادة العظمى».

- في سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) وجّهت إليه التهمة ببثّ روح العداء

---

(١) الدكتور نجيب بن خيرة الأستاذ المحاضر بقسم التاريخ/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسنطينة ـ الجزائر.

للغرب، ولاسيما سلطة الحماية الفرنسية، فسافر إلى الآستانة متذرعاً بزيارة خاله السيد محمد المكي بن عزّوز، ولما ظنَّ أن الزوبعة هدأت، عاد إلى تونس بطريق «نابولي»، ولما استقر به المقام، رأى أنه لا يطيق البقاء في ذلك الجو الخانق، فأزمع الهجرة منه نهائياً، ووقع اختياره على دمشق ليتخذها وطناً ثانياً له.

- تعرض في بلاد الشام - أيضاً - للاضطهاد والسجن بسبب اتهام جمال باشا له بالتآمر على السلطة.

- نزل محمد الخضر حسين القاهرة سنة (١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م)، واشتغل بالبحث وكتابة المقالات، وقد ساقت له الأقدار الأستاذ الأديب أحمد تيمور باشا الذي قدّر موهبته، وعرف قدره، فساعده على الاستقرار في القاهرة باختياره مصححاً بدار الكتب المصرية، فسمحت له هذه الوظيفة أن يتصل بأعلام النهضة الإسلامية في مصر، وتوثقت علاقته بهم، وتقدم لامتحان شهادة العالمية بالأزهر، وعقدت له لجنة الامتحان برئاسة العلامة عبد المجيد اللبان مع نخبة من علماء الأزهر الأفذاذ، وأبدى الشيخ من رسوخ القدم ما أدهش الممتحنين، وكانت اللجنة كلما تعمّقت في الأسئلة، وجدت من الشيخ عمقاً في الإجابة، وغزارة في العلم، وقوة في الحجّة، فمنحته اللجنةُ شهادةَ العالمية، وبلغ من إعجاب رئيس اللجنة بالشيخ العالم أن قال: «هذا بحرٌ لا ساحل له، فكيف نقف معه في حِجاج؟!».

*** إلغاء الخلافة الإسلامية... أول الوهن السياسي:**

في شهر مارس ١٩٢٤م، وقع إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً من طرف الجمعية الوطنية التركية الكبرى، مدعية أن الشعب التركي قد فوض الجمعية

التي تمثله تمثيلاً حقيقياً جميعَ حقوق سيادته وحاكميته . . وقد أثار هذا القرار ضجة كبيرة في العالم الإسلامي، فكُتبت المقالات المعارضة، وعُقدت المؤتمرات للتشهير بهذا الإلغاء الذي يتعارض مع مذهب أهل السنَّة، الذي يشير إلى أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين، وسياسةِ دنيا الناس به.

وقد كان الملك فؤاد ملكُ مصر من أكبر المعارضين والحاثّين لرجال الدين وشيوخ جامع الأزهر على التنديد بهذا القرار وبأصحابه؛ ذلك لأنه كان يسعى لتولي خلافة المسلمين، وزعامة العالم الإسلامي.

وقام أنصار الملك فؤاد وأتباعُه بترويج الفكرة، والدفاع عنها باستعمال وسائل عديدة.

وفي خضم هذا الاختلاف الشديد القائم بين المدافعين عن هذه الخطة الإسلامية، وبين المناوئين لها، أصدر الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر كتابه: «الإسلام وأصول الحكم» في غرة أفريل ١٩٢٥م، وأكد فيه أن الخلافة ليست ضرورية لقيام حكومات إسلامية حديثة، وأنها ليست من الدين في شيء . . .

وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبرى في أوساط علماء الأزهر، وعدّوه خروجاً على إجماع الأمة، وما ألفته وتلقته بالقبول عبر تاريخها السياسي الطويل.

واغتنم الشيخ محمد الخضر حسين هذه المناسبة للمساهمة في خوض هذه المعركة الدينية والسياسية، فألّف كتاباً ردَّ فيه على الشيخ عبد الرازق سماه: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، ورتّبه نفس الترتيب المتبع

في الأصل المردود عليه[1].

واعتبر الشيخ محمد الخضر حسين أن كتاب علي عبد الرازق مظهر من مظاهر التغريب التي هبّت على المجتمعات الإسلامية تريد النيل من خلافتها، وتأجيج خلافاتها، وتشتيت صفوفها، بعدما كانت تحت مظلة خلافة إسلامية جامعة..

ولكن الشيخ استطاع أن يحقق مأرباً آخر بتأليفه لهذا الكتاب، وهو: تلبية رغبة القصر الملكي، واستجابة لطلب أنصاره ومؤيديه مما ناله به من حظوة ومكانة عند الملك، ويؤكد ذلك: إهداء الكتاب إلى خزانة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملكِ مصر المعظم، يقول في خاتمته: «تلك المزية (رعاية الدين) التي أصبح بها صاحب الجلالة واسطة عِقْد ملوك الأمم الشرقية قد أخذت في نفسي مأخذ الإكبار والإجلال، ودعتني إلى أن أقدم إلى خزانته الملكية مؤلَّفاً قمت فيه ببعض حقوق إسلامية علمية، وهو: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، ورجائي أن يتفضل عليه بالقبول، والله يحرس ملكه المجيد، ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد»، ويختم هذا الإهداء بالعبارة التالية: «المخلص في الطاعة: محمد الخضر حسين».

وقد تمكن الشيخ من الحصول على الجنسية المصرية، مما سمح له أن يندمج كلياً في المجتمع المصري، ويحقق ما كان يصبو إليه.

*** الخضر حسين... ينقض طه حسين!**

لا شك أن حياة الشيخ الخضر في بلاد «الجريد» جعلته يعيش كالنخلة،

---

(١) انظر: محمد مواعدة، الشيخ محمد الخضر حسين، حياته وآثاره. دمشق: الدار الحسينية، (ص٧٦ ـ ٨٢).

أصلُها ثابت، وفرعها ثابت، لا تهزها أعاصيرُ التغريب التي هبت على المؤسسات العلمية التي رعى المستعمر غراسها، واستطاع أن يُلَمِّعَ بعضَ رجالاتها، ومن بينهم: الأديب طه حسين، الذي ألف سنة ١٩٢٦م كتاباً سمّاه: «في الشعر الجاهلي»، اعتبر فيه أن الشعر مُنتَحَل، لا يمثل الحياة الدينية أو العقلية أو الاجتماعية فيه، ولا يمكن أن نعتمد على هذا الشعر في تصور اللغة وخصائصها وأساليبها عند الجاهليين، محتجاً بما يرويه الرواة من الخلاف بين لغة الشمال، وبين لغة الجنوب.

ويتناول ذكرَ إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بكلام أقلُّ ما يوصف به من أنه كُفر بكُتبه ورسله يؤذي إيمانَ المؤمنين، ويفسد عقائد صغار الطلاب الذين ألقي عليهم، فيقول مثلاً:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما ـ أيضاً ـ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل ابن إبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين العرب واليهود من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى»[١].

وواضح من كلام طه حسين مدى التأثير الاستشراقي المتحامل في فكر الرجل، وإعداده بوقاً يردِّد كلاماً طالما ردَّدته كتابات الغربيين من أمثال (مرجليوث)، وغيره.

---

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ط٨، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

هاج هذا الكتاب الرأي العام، فثار الناس، وتوالت المقالات في نقد الكتاب ومهاجمة مؤلِّفه، وفضح نُقوله عن الكتابات الغربية المغرضة، وقد شارك الشيخ محمد الخضر حسين بتأليف كتاب لا في النقد، بل في نقض كتاب «الشعر الجاهلي»، ولا شك أن كلمة (نقض) أكثر حدة وشمولاً من كلمة (نقد)، «وكان أسلوب الكتاب أدنى إلى أسلوب الأزهر المتبع في الحواشي، والذي يتحرى الدقة في تتبع النص كلمة كلمة. فهو يتناول في نقده طه حسين صفحة صفحة، بل سطراً سطراً. فيقدم بين يدَيْ نقدِه نصَّ الفِقرة أو الجملة التي سيتناولها بالمناقشة، مشيراً إلى رَقْم الصحيفة التي جاءت فيها، ثم يُعقب بمناقشتها، مفيضاً في ذلك ما بدا له، في صبر وحرص واستقصاء. وقد كان كتابه أطولَ ما أُلف في الرد على طه حسين، إذ يقرب من أربع مئة صفحة. وقد ظهر في سنة (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧م)»[1].

وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في الأوساط الثقافية والعلمية، وخاصة لدى علماء الأزهر، وبيّن غزارة علم الشيخ، وسعة اطلاعه في ميادين اللغة والأدب والدين.

*** في ميادين الإصلاح:**

لم يرض الشيخ الخضر حسين أن يقضي حياته موظفاً بدار الكتب، يتقاضى المرتب، ويتطلع للترقية في المنصب، ويعيش كيفما اتفق. . بل كانت نفسه توّاقة تعشق المعالي، ولا ترضى بالخمول والسعي وراء مطالب العيش الرتيب. . . نزل إلى الميدان يبارز التغريب في ميادين العمل الصحفي

---

(١) المرجع نفسه (ص٣٠٢).

والجمعوي. . يلقي الدروس والمحاضرات في الأندية والمجامع، ويحرر المقالات في الصحف والمجلات، وينشئ الجمعيات، ويشترك مع الغيورين على الإسلام في إصلاح أوضاع الأمة التي أنهكها الدخيل، واستولى عليها بقوته وفكره، فأحالها شبحاً لا تصلح للحياة، ولا تصلح الحياة بها! فنفخ الشيخ ـ عبر مقالاته ـ في طوايا الأمة العزّةَ والإباء، راجياً منها البرء والشفاء؛ بما أوتي من سعة العلم، وقوة العارضة، وحسن البلاغ.

وهو في طريقه إلى تحقيق هدفه يبحث عن العلل التي لبست الأمم الإسلامية، وقعدت بها في خمول، حتى ضربت عليها الدول الغربية بهذه السلطة الغاشمة، فيقول: «وأنت إذا تدبرت هذه الأسباب، وجدت السبب الحق منها يرجع إلى تهاون هذه الأمم بتعاليم الشريعة، ونكث أيديهم من المشروعات التي عهدت إليهم للقيام عليها، والعلة في ضعف هممهم، وقلة إقبالهم على ما أرشد إليه القرآن ـ من وجوه الإصلاح ووسائل المنعة والعزة ـ إنما هي تقصيرهم في التواصي بالحق، وعدم استقامة زعمائهم على طريقة الدعوة والإرشاد»[1].

«والشيخ حسين ـ بحكم هدوء طبعه، وتوازن مزاجه، وقوة ثقافته ـ عُدّ من «حزب المصلحين المعتدلين» كما وصفه صاحب «المنار» الشيخ رشيد رضا، والعلامة التونسي محمد الطاهر بن عاشور»[2].

(١) محمد الخضر حسين، «الدعوة في الإصلاح»، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤٦هـ، (ص٥٠).

(٢) محمد مواعدة، الشيخ محمد الخضر حسين. . مرجع سابق، (ص٢٠٩).

والظاهر: أن رحلته إلى ألمانيا، وإقامته هناك، وتعلمه اللغة الألمانية، واطِّلاعه من خلالها على الثقافة الغربية، فتحت فكره، وأنضجت أفكاره، ووسَّعت أفقه، وأعطت لمنهج إصلاحه بُعداً حضارياً وعالمياً لم يعهده الكثير من شيوخ الأزهر في عصره.

كما اتجه الشيخ إلى تأسيس الجمعيات الإسلامية، وهو المنهج الذي اختاره أنصار (الجامعة الإسلامية) في التعريف بقضايا الأمة، والدفاع عنها، وجمع كلمتها تحت راية إسلامية واحدة[1].

فاشترك مع جماعة من الغيورين على الإسلام سنة (١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م) في إنشاء (جمعية الشبان المسلمين)، ووضع لائحتها الأولى مع صديقه محبِّ الدين الخطيب، وقامت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام، والدفاع عن قيمه الخالصة، ومحاربة الإلحاد العلمي. ولا تزال هذه الجمعية بفروعها المختلفة تؤدي بعضاً من رسالتها القديمة. وقد كان ميثاق الجمعية يبدأ بهذه الكلمات: «عليّ عهدُ الله وميثاقه، لأقومَنَّ بقدر طاقتي: أولاً ـ بإحياء هداية الإسلام في عقائده وآدابه، وأوامره ونواهيه ولغته، ومقاومة تيار الإلحاد والإباحية، المهددين لهذه الهداية...»، وأصدرت الجمعية العدد الأول من مجلتها في جمادى الأول سنة (١٣٤٨هـ/ أكتوبر ١٩٢٩م).

وكتب يحيى الدرديري المقالة الافتتاحية، مشيراً فيها إلى ما ينشره دعاة الإلحاد من سموم باسم التجديد، داعياً إلى الرجوع للقرآن، واتخاذِ

---

(١) انظر: عميراوي الحميدة، الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية، ط١، الجزائر: دار الهدى، ٢٠٠٧م، (ص٨٩ ـ ٩٢).

أساساً ومرشداً ومرجعاً لنهضتها الخلقية التي بدونها لا تصلح أي نهضة أخرى، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو غيرها، وجعله المرجع الأول والأخير في تمييز ما يصلح اقتباسه مما ينبغي تركه من المدنية الغربية الحديثة. . .[١].

وقد وصف محب الدين الخطيب الحال في ذلك الوقت، فقال في حديثه عن أول اجتماع عقدته الجمعية في دار «سينما الكوزمو» بدعوة من الشاعر أحمد شوقي، وقد حضره نخبة من الشيوخ والشباب:

«كنت أنا وأحمد تيمور باشا ـ رحمه الله ـ، والسيد محمد الخضر حسين ـ حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأولى للإسلام في مصر قائمة على تقوى من الله وإخلاص، وكنا حريصين على أن يتولى إدارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى على أدوات الثقافة والنشر في العالم الإسلامي، وفي مصر على الخصوص، فكنا نبحث عن هؤلاء الرجال بين من نعرف ومن لا نعرف، ونستقصي الحقائق عن دخائلهم من غير أن يعلموا. . .»[٢].

وأنشأ ـ أيضاً ـ (جمعية الهداية الإسلامية) التي برز هيكلها إلى الوجود يوم ٣١ رجب سنة (١٣٤٦هـ/ جانفي ١٩٢٨م)، وكان نشاطها علمياً أكثر منه اجتماعياً، ضمَّت عدداً من شيوخ الأزهر؛ كالشيخ مصطفى المراغي، والأستاذ عبد الحليم النجار، وطائفة من شباب الأزهر المثقفين، وكوَّن بها مكتبة كبيرة كانت مكتبتُه الخاصةُ نواة لها، وأصدر مجلة باسمها كانت تحمل

---

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية. . . مرجع سابق، (ص٣٢٣م).

(٢) المرجع نفسه، (ص٣٢٤).

الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

وكانت تهدف هذه الجمعية إلى:

١ ـ السعي لتمتين الصلات بين الشعوب الإسلامية، وتوثيق الروابط بينها، والقضاء على الخلافات بين الفرق الإسلامية المختلفة.

٢ ـ التعريف بحقائق الإسلام، ونشرها بأسلوب يلائم روح العصر.

٣ ـ مقاومة الإلحاد والدعايات المناوئة للدين الإسلامي بطرق علمية.

٤ ـ السعي لإصلاح شأن اللغة العربية، وإحياء آدابها[١].

وقد استعمل أعضاء الجمعية وسيلتين أساسيتين لتحقيق ذلك، وهما:

١ ـ إلقاء المحاضرات والمسامرات في المساجد عقب صلاة الجمعة، وفي بعض النوادي، وخاصة التابعة لفروع جمعية (الهداية الإسلامية).

٢ ـ إصدار مجلة تحمل اسم الجمعية، يشارك في تحريرها نخبة من العلماء والفقهاء في الدين والأدب واللغة[٢].

والجدير بالذكر: أن مجلة «الهداية الإسلامية» لم تكن تهتم بنشر المقالات السياسية، بل كان التركيز فيها على الفكر والأخلاق والقيم، وهذه هي مداخل التغريب إلى قلب الأمة، يريد الشيخ بناء أسوار عالية حولها تحميها من كل غاشم كفور.

ومما يدل على سعة أفق الشيخ في الإصلاح، فإن دور (جمعية الهداية) لم يقتصر على النشاط في مصر فقط، بل أنشئت لها فروع في

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية»، مج١، مج٣.

(٢) محمد مواعدة، الشيخ محمد الخضر حسين. مرجع سابق (ص٨٩).

بلدان عربية؛ مثل: سورية والعراق.

«وقد قضت مجلة «الهداية الإسلامية» عشر سنين متتالية، وهي تدعو إلى الخير والصلاح، وتُواصل البحث عن الحقائق الدينية والعلمية والأدبية، سالكة في جهادها سبيل الحكمة، لا تجمد عن حق، ولا يطيش لها قلم في باطل.. فكبر حجمها، كما أصبحت تحتوي على سبعة عشر باباً، يتناول فيها العلماء والفقهاء في اللغة والدين جميع القضايا التي تتصل بالإسلام والمسلمين؛ مثل: تفسير وشرح الأحاديث النبوية الصحيحة، ونشر الفتاوى والأحكام، والقيام بمقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية ومدى تلاؤمهما، ومكافحة بعض البدع والعادات السيئة.

وكان لهذه الأعمال الجليلة نتائجُها المثمرة؛ إذ اهتم جميع المثقفين بهذه المجلة «الإسلامية العلمية الأدبية»، فانتشرت في جميع الأوساط، وابتهج بها القراء المسلمون؛ مما مكنها من القيام بدور كبير في توجيههم وإرشادهم، وفي إصلاح المجتمع الإسلامي بصورة عامة»[1].

ويبدو أن مجلة «الهداية الإسلامية» بعثت في نفوس العلماء والكتّاب عزيمة لا تلين في مقاومة الفكر التغريبي الوافد الذي يتسلل إلى الثقافة الذاتية للأمة، ويعبث بمقدساتها، ويبث الشك والريب في ثوابتها؛ مما جعل السيد عبد العزيز بك محمد المستشارَ بمحكمة الاستئناف، وعضوَ المجلس الأعلى للأزهر يقدم اقتراحاً يقضي بإنشاء مجلة إسلامية، تساهم في تنوير المسلمين، وفضح مخططات أعدائهم، ومكافحة التيارات المنحرفة النابتة بين ظهرانيهم..

(١) المرجع نفسه، (ص٩٢ ـ ٩٣).

ولما أسندت مشيخة الأزهر إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر محمد الأحمدي الظواهري، كان أول ما توجهت إليه عنايته مشروع هذه المجلة، فأخذ يدبر بجد وحكمة حتى لانت صعابه، وتهيأت بتأييد الله أسبابه.. فقرر المجلس الأعلى ـ بعد دراسة الموضوع ـ تخصيصَ مبلغ مالي ينفق على المجلة، التي تحمل اسم «نور الإسلام»، وأسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ محمد الخضر حسين. وذلك في (المحرم من عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م)، ودامت رئاسته لها ثلاثة أعوام.

وقد أوضح الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله تعالى ـ في أول افتتاحية عدد منها أسبابَ إصدارها، ومبيناً خطتها، فيقول: «خرجت هذه المجلة بعد أن رسمت لنفسها خطة لا تمس السياسة في شأن، وقصارى مجهودها: أن تعمل على نشر آداب الإسلام، وإظهار حقائقه نقية من كل لَبْس، وتكشف عما أُلصق بالدين من بِدَع ومحدَثات، وتنبه على ما دُسَّ في السنَّة من أحاديث موضوعة، وتدفع الشُّبه التي يحوم بها مرضى القلوب على أصل من أصول الشريعة، وتعنى ـ بعد هذا ـ بسِيَرِ العظماء من رجال الإسلام، وإن في سيرهم لتذكرةً لقوم يفقهون، ويضاف إلى هذا: ما تدعو فائدته إلى نشره من المباحث القيمة، علمية كانت أو أدبية... والمجلة ليست منقطعة عن الحركة الفكرية في عصرها، بل تابعت ذلك عن ما يجيء في الصحف الأجنبية من مباحث علمية، أو مقالات تتحدث فيها عن الإسلام، غير أننا لا نضع أمام القراء مقالة في الإسلام من غير منصِف، إلا أن نصلها بما يستبين بها خطأُ كاتبها، ناقلاً كان أو مدَّعياً...

هذا غرض المجلة، وهو ـ بلا ريب ـ غرض نبيل، وهذه خطتها، وهي

كما عرفت خطة من يمشي على سواء السبيل، وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل»[1].

ويشير الشيخ محمد الخضر حسين في تقديمه العدد الأول من السنة الثالثة (المحرم ١٣٥١هـ/ مايو ١٩٣٢م) إلى خطر الذين يتخفّون في زِيِّ المسلمين، ويتظاهرون بالدفاع عنه، من فاسدي العقيدة الذين ينشرون سمومهم باسم البحث العلمي، فيقول: «لاحظت المجلة أن من المُضلّين مَنْ يكشف الغطاء عن سريرته، ويركب الصراحة في دعايته، ومنهم من يدس الباطل في عبارات يصبغها بما يشبه لون الحق، فيكون أثره في نفوس بعض الأحداث أشد من أثر الداعي إلى الضلالة علانية. فلم تقصُر المجلة جهادها على دفاع ما يصدع به المبطلون من آرائهم المردية، وعُنيت بنقد المقالات أو المؤلفات التي تصدر تحت اسم: البحث العلمي، أو الدعوة إلى التجديد، وهي تنطوي على روح لا يأتي على نفس غافلة إلا أطفأ نورها، وخالطها من الحيرة أو الجحود ما كان بعيداً عنها...»[2].

*** محمد الخضر حسين... وجهالات دعاة التنوير:**

اصطدمت مجلة «نور الإسـلام» منذ بداياتها بالكتابات المنحرفـة عن الإسلام، والتيار الإلحادي القويّ آنذاك، الذي كان ينادي بأن يتحكم العقل والعلم في مسـيرة الحياة، دون أيّ تدخّل من النصوص الشرعية، أو سيطرة للدين على شؤون الحياة.

---

(١) مجلة «نور الإسلام»، العدد الأول، محرم ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، المجلد الأول.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية... مرجع سابق، (ص٣٢٦).

فهاجم الشيخ محمد الخضر حسين دعاة العَلْمانية، وأنصارَ فصل الدين عن الدولة؛ بدعوى أن الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية سبب لتأخر المسلمين، وأرجع سبب محاربة هذا التيار للدين إلى الإعجاب غير المتعقّل بالغرب، عبرَ وسائل الغزو الفكري في المجتمعات الإسلامية، ويرى أن الصورة في ذهن الشرقي عن أوروبا صورة مبالَغ فيها نحو الكمال والرقي الإنساني؛ بفضل الدعاية الثقافية والأدبية التي تقوم بها الأفلام السينمائية، ومدارس الإرساليات الأجنبية، والنشرات التي تحمل طابع البحث العلمي.

وقد كتب ـ رحمه الله ـ مقالاً في افتتاحية «نور الإسلام»(1) بعنوان: «ضلالة فصل الدين عن السياسة» ردّ فيه رداً علمياً منصفاً على مقال خرجت به إحدى المجلات تحت عنوان: «داء الشرق ودواؤه»، وفيه دعاية إلى فصل الدين عن السياسة، زعم فيه صاحبه: أن سبب تأخر المسلمين عدمُ فصل الدين عن السياسة، وردّ عليه فقرة فقرة، موضحاً زَيْفَ ما ورد فيه من أباطيل، وما نفخ فيه من نفاثات الفكر الغربي وفلسفته في الحكم والسياسة، مستمداً رده العلمي من آي القرآن، وسنّة المصطفى، وسير السلف الصالحين.

وعندما قال صاحب المقال: «ولو رزق المسلمون رجالاً ينظرون بعين الناقد البصير، من قبل قرنين، وفصلوا الدين عن السياسة، لكان للإسلام اليوم من الشأن والسيادة في الممالك التي اغتصبتها الدول الأوروبية ما لا يقل عما للفاتيكان، وما كان خطر الاستيلاء عليهم عظيماً...».

رد عليه الشيخ بقوله: «إن فصل الدين عن السياسة هدمٌ لمعظم حقائق

---

(1) الجزء الخامس، مج٢، جمادى الأولى، ١٣٥٠هـ.

الدين، ولا يُقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين، وليست هذه الجناية بأقلَّ مما يعتدي به الأجنبي على الدين إذا جاس خلال الديار، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة عَلَناً كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن، ورأينا كيف كان بعض المبتَلين بالاستعمار الأجنبي أقرب إلى الحرية في الدين ممن أصيبوا بسلطانهم، ونحن على ثقة من أن الفئة التي ترتاح لمثل مقال الكاتب لو ملكت قوة، لألغت محاكم يُقضى فيها بأصول الإسلام، وقلبت معاهد تُدَرَّس فيها علوم شريعته الغراء إلى معاهدِ لغوٍ ومجون، بل لم يجدوا في أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف في مساجدَ يذكر فيها اسمُ الله تَصَرُّف من لا يرجو الله وقاراً.

يقول الكاتب: «لو فصلوا الدين عن السياسة، ما كان خطر الاستيلاء الأجنبي عليهم عظيماً»، يقول هذا كأنه لا يدري أن السياسة الطاغية لا تهاب إلا حديداً أشدَّ بأساً من حديدها، وناراً أشد حرّاً من نارها، فليس من المعقول أن تردها عن قصدها سلطةٌ دينية ليس في كِنانتها سهم، ولا في كفها حُسام، أما قياسه حال السلطة الدينية الإسلامية ـ على فرض صحة إقامتها ـ بحال السلطة الكاثوليكية في احترام مؤسساتها، وإطلاق يدها في عمل يرفع أهل ملتها، فمغالطةٌ أو غفلة عن الفرق بين سلطة دينية يجد فيها الاستعمار مؤازرة أو موافقة على أي حال، وسلطة دينية قد يكون في بعض أصولها ما لا يلائم طبيعة الاستعمار.

ولو ربط المسلمون سياستهم بالدين من قبل قرنين ربطاً محكماً، لم يجد الغاصب للعبث بحقوقهم مدخلاً، ولو أعلنوا فصل الدين عن السياسة، لظلوا بغير دين، ولوجد فيهم الغاصب من الفشل أكثرَ مما وجد، فليست

مصيبة المسلمين في تركهم السياسة، مربوطة بالدين كما زعم الكاتب، وإنما هي ذُهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها».

بهذه الروح ظل الشيخ محمد الخضر حسين يدافع عن حقائق الإسلام، ويرد أباطيل خصومه، بقلم صلب على الحق، ماض غير هياب. .

وقد تعرضت مجلة «نور الإسلام» ـ أيضاً ـ إلى فضح أنشطة التنصير في العالم الإسلامي، وكشف مخططاته الرامية لهدم الدين الإسلامي، وإزالته بشتى الوسائل الخبيثة من قلوب المسلمين، فنقلت عن مجلة «العالم الإسلامي» التي يحرّرها القس «زويمر» مخطَّطاتِ التنصير في العالم الإسلامي، تحت غطاء المستشفيات والمدارس والأعمال الخيرية، وخير مثال على ذلك هو مستشفى «هنري» في أسيوط.

وكذلك قامت المجلة بعرض الشُّبهات التي يقذفها المنصِّرون والمستشرقون في مؤلفاتهم إلى المسلمين البسطاء بغيةَ زعزعة الدين في قلوبهم، وتولّت المجلة الردّ على هذه الشبهات بأساليب منهجية علمية، وممن تولّى الردّ عليهم في هذا السبيل: الكاتب «محمد فريد وجدي»، فقد ردّ على «أندريه هارفيه» ما كتبه في جريدة «كوكب الشرق» المصرية من شبهات كاذبة على الإسلام.

وكذلك تولّى وجدي الردّ على المستشرق «فرنك فرستر» الذي كتب سلسلة عن تاريخ الإسلام، فنبذ الرسول ﷺ ببعض التهم الكاذبة، وكشفَ زيفَها وبطلانها بحجج قوية متينة.

وخاضت المجلة العديد من المعارك الفكرية على الكثير من الجبهات،

وعبر العديد من المحاور الفكرية، إلا أن الباحث الدكتور «جمال النجار» في دراسته القيمة عن صحافة الاتجاه الإسلامي في مصر بين الحربين العالميتين يُجمل القول عن أبرز اهتمامات مجلة «نور الإسلام» ـ كما يراها ـ على النحو التالي:

١ ـ تفسير آيات من القرآن الكريم، وبيان ما في الذِّكر الحكيم، والسنّة النبوية المشرفة من أصول الأخلاق الفاضلة، وقواعد الأدب الكريمة التي يجدر بالمسلم أن يتبعها.

٢ ـ متابعة الحركة الفكرية العالمية، وترجمة بعض ما يجيء في الصحف الأجنبية من مباحث علمية، أو مقالات صحفية تتحدث عن الإسلام، ومقاومة تيار الإلحاد ودعاتِه من العلمانيين والملحديين الذين يروّجون لفصل الدين عن شؤون الحياة العامة.

٣ ـ مهاجمة التبرج والتعري والسُّفور، والاختلاط بين الجنسين، ومهاجمة الدعوة إلى تقليد المرأة المصرية للمرأة الأجنبية في كل أنماط الحياة، والدفاع عن الشرعية الإسلامية وأصولها، وبيان فساد النظريات والمذاهب الوضعية التي تتعارض معها.

٤ ـ التصدي لحركة التبشير النصراني في العالم الإسلامي، وفضح خطط وتآمر المبشرين على المسلمين، ودحض الشبهات التي يُثيرها المستشرقون ضد الإسلام.

٥ ـ الدعوة إلى إدخال الدين في المدارس الحكومية، ومحاربة المدارس الأجنبية، والدفاع عن اللغة العربية، وبحث مسألة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، والتصدي للمذاهب الضالة، والحركات الهدامة المنتسبة

إلى الإسلام؛ كالصوفية، والقاديانية، والبابية، والبهائية».

والذي يتتبع افتتاحيات الأعداد الأولى من مجلة «نور الإسلام» التي كان يحررها الشيخ محمد الخضر حسين بقلمه يتبين له مدى حرصه على صناعة أجيال جديدة تضبط حركتها في الحياة على أوامر الدين ونواهيه، وتشريعاته وقيمه، كما تتطلع إلى مستقبلها بكل عزيمة وإرادة مثلما تتطلع إليه الأمم التي تأخذ بأسباب السعادة والتقدم والنهوض.

وهذه بعض عناوين هذه المقالات:

- الانحراف عن الدين ـ علله ـ آثاره ـ دواؤه ـ. (العدد ٢ مج١ صفر ١٣٤٩هـ).
- العلماء والإصلاح. (العدد ٣، مج١، ربيع الأول ١٣٤٩هـ).
- المدينة الفاضلة الإسلامية. (العدد ٤، مج١، ربيع الثاني ١٣٤٩).
- أصول سعادة الأمة. (العدد ٥، مج١، جمادى الأولى ١٣٤٩هـ).
- صدق العزيمة أو قوة الإرادة. (العدد ٦، مج١، جمادى الثانية ١٣٤٩هـ).
- الغيرة على الحقائق والمصالح. (العدد ٧، مج١، رجب ١٣٤٩هـ).
- كبر الهمة في العلم. (العدد ٨، مج١، شعبان ١٣٤٩هـ).
- الدهاء والاستقامة. (العدد ٩، مج١، رمضان ١٣٤٩هـ).

وفي معركته مع التغريب وآثاره البادية في أخلاق المجتمع، وما طرأ عليها من الانحراف المبين، الذي أخذ يدب في نفوس الناشئة دبيبَ السم الناقع في جسم اللسيع، أرجع الشيخ سبب ذلك كله إلى زيغ في العقيدة، وزيغُ العقيدة مصدر الأخلاق المرذولة في كل حين، واعتبر أن الدعاية إلى القبائح لم تبلغ علانيتها ما بلغته في أيامه، واعتبر أن دعاة التنوير والتحرير

والفن الجميل كثيراً ما يخادعون الشباب بهذه الشعارات الخادعة. وقد كتب ـ رحمه الله ـ مقالاً استهل به مجلة «نور الإسلام»[1]، بعنوان: التعليم الديني في مدارس الحكومة: «ولم تتفش ـ الرذيلة وزيغ العقيدة وقبائح الأخلاق ـ؛ لأن وسائل ساعدت على سريان وبائه لم توجد قبل، وأمهات هذه الوسائل ثلاثة أمور:

أحدها: هذه المدارس التي يفتحها الأجانب في أوطاننا باسم العلم، ويغفل بعض المسلمين عن سريرتها، فتأخذهم بظاهرها، حتى يسلِّموا أطفالهم وهم على الفطرة إلى من يصبغ هذه الفطر بسواد، وينزع منها روح الأدب الذي يجعلهم أولياء لعشيرتهم، نصحاءَ لأمتهم.

ثانيها: تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم؛ إذ يرسلون الناشئ إلى معاهد العلم بأوربا قبل أن يتلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنة، فيلاقي في أثناء الدراسة هنالك، أو في بعض المحادثات شُبَهاً لا يجد في نفسه من الحجج ما يدفعها، وإذا تواردت الشبه على الناشئ، رانت على قلبه، وأصبح يبصر وجهَ الحق أسود قاتماً، فيعود إلى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أنهما في ضلال قديم، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله، ولا يهمه إلا أن يكون لابنه رزق واسع، أو منصب في أحد الدواوين وجيه.

ثالثها: أن كثيراً من الحكومات الإسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف، فاستباح واضعو برامج التعليم العام في مدارسها أن لا يضربوا

(١) الجزء السادس، جمادى الآخرة، المجلد الثاني، مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، (ص٣٩٥ـ ٤٠١).

لعلوم الدين بسهم، ومن يضرب لهم، فبسهمٍ لا يغني من جهل، والتعليم الذي يُهضم فيه جانب العلوم الدينية، لا يرجى منه تهيئة لنشء تتساقط عليهم الشُّبه فيطردونها، أو توسوس إليهم الشياطين فيستعيذون منها».

لذلك حرص الشيخ محمد الخضر حسين على الدعوة إلى تعميم التعليم الديني في جميع المراحل والتخصصات؛ لأنه يدرك أن هذا النوع من التعليم هو صمّام الأمان الذي يحمي الأجيال الناشئة من حملات التغريب الهاجمة على عقلها وفكرها، فمنه تستمد المنهج، ومن خلاله تعرف الأحكام والتشريعات، وتترقى بتوجيهاته في مدارج الرقي الخلقي المنشود، وما ينبغي أن يحرم طلاب العلوم الحديثة من هذا كله، لتتوحد الرؤى والمنهل بين الطلاب جميعاً، فيقول ـ رحمه الله ـ: «ولو كان التعليم الديني آخذاً حقَّه في جميع مدارسنا، لم ير الناس ما يرونه فيها من التجافي بين أفراد نشؤوا في مدارس دينية، وآخرين نشؤوا في مدارس ليس للدين فيها نصيب، ولا منشأ لهذا التجافي إلا بُعد ما بين النشأتين، وإدخال العلوم الحديثة في المعاهد الدينية يذهب بجانب من هذا التجافي، فإذا عُنيت وزارة المعارف بدراسة علوم الدين درساً جدياً، اتحد أبناؤنا في أصل التربية، فيكون فضل المعاهد الدينية والمدارس الرسمية على الشرق في إخراجهما نشئاً يتقارب شعورهم، وتتدانى عواطفهم، فيتسابقون إلى أعباء الحياة بكواهل ملتئمة، ويرمون في وجوه العظائم عن قوس واحدة».

لم يقتصر النشاط الإصلاحي للشيخ محمد الخضر حسين على مواجهة التغريب، وكشف أساليبه، وفضح مؤامراته، بل تعدى ذلك إلى الكشف عن خطر الحركات التي تبرقعت باسم الدين، ولبست لبوس الإسلام، ورفعت

شعارات توهم الغافلين أنها من صميم القرآن، وحقائق التشريع، وهم ـ في حقيقة الأمر ـ من الدجاجلة المفسدين الذين ادّعوا كذباً وزوراً أنهم مهبط الوحي، وأنبياء العصر، ورسل رحمة للعالمين، فكتب ـ رحمه الله ـ كتاباً فضح فيه ثلّة من هؤلاء، وهم «طائفة القاديانية»، وذكر في مقدمته:

«لقد دلنا التاريخ الصادق أن الدين الحنيف يُبتلى في كل عصر بنفوس نزّاعة إلى الغواية، فتتنكب عن الحقائق، وتمشي في تحريف كلمه مُكبّةً على وجهها، وليس هذا الإغواء بمقصور على من يدّعون التفقه في الدين، ولم يتفقهوا؛ ككثير من زعماء الفرق المنحرفة على الرشد، بل يتعداهم إلى فئة تسول لهم نفوسهم ادعاء أنهم مهبط الوحي، وأنهم يتلقون ما يقولونه بأفواههم من الله تعالى بدون وسيلة كتابه الحكيم، وحديث رسوله الكريم. . . ومن هذا الصنف غلام أحمد مبتدعُ النِّحْلَة القاديانية، وكثيراً ما وردتنا رسائلُ من البلاد العربية وغيرها؛ كأمريكا يسأل كاتبوها عن أصل هذه النحلة، ومبلغ صلتها بالإسلام، وبالأحرى: بعد أن ظهر المقال الذي كشفنا فيه الغطاء عن النحلة البهائية، ونشرناه في الجزء الخامس من المجلد الأول من مجلة «نور الإسلام»، ووردتنا رسائل أخرى مطوية على ما يصرح به دعاة هذه النحلة من الآراء، ويقترح مرسلوها نقد هذه الآراء، وتحذير المسلمين من الوقوع في مهالكها، ولم نشأ التعرض للكتابة في شأنها قبل اليوم؛ إذ لم يكن لدينا من كتب أصحابها ما نطلع به على أساسها، ونعرف منه حال واضعها.

وقد انساق إلينا اليوم من كتب مبتدعها غلام أحمد، وبعض دعاتها ما جعلنا على بينة من أمرها، وها نحن أولاء نضع أمام حضرات القراء فصولاً فيما تقوم عليه هذه النحلة من المزاعم الخاطئة، ونلقي عليهم كلمات في

نشأة واضعها؛ ليكونوا على بصيرة من أنها دعوى زائغة، ولا يغيب عنهم أن دعاتها الذين يجوسون خلال ديار الإسلام إنما يثيرون في نفوس شبابنا فتنة، والفتنةُ أشد من القتل»[1].

وهكذا استطاع الشيخ محمد الخضر حسين أن يكشف زيف نحلة خطيرة ظلت حيناً من الدهر مطية ذلولاً للمستعمر الدخيل في بلاد الإسلام، وأغرت بالدين حتى جعلت الناس ـ وخاصة في بلاد الهند ـ يعتقدون أن صاحبها مجددٌ من دعاة الإسلام الحق، وأعلامه المصلحين!!.

«لقد عاش الشيخ الخضر حي الضمير، شديد الحساسية؛ فقد رأى الأجنبي يحاول أن يطمس نور الشريعة عن عيون تهيم بالإسلام، كما يبذل قوته الحاشدة لتشويه اللغة العربية، والحكم عليها بالجمود والتقهقر؛ لينصرف الناس عن قرآنهم المجيد، وأحاديثِ نبيهم الكريم، ثم تنقطع صلاتهم بأصحاب الذخائر العلمية الرائعة من ورثة الأنبياء وهداة المصلحين.

لذلك أنشأ صحيفة «السعادة العظمى» على نمط «العروة الوثقى»؛ لتنشر محاسن الإسلام، وتفضح أساليب الاستعمار، وكانت خطة السيد منذ حمل لواء الدعوة في صباه إلى أن لقي الله في شيخوخته واضحة مفهومة، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع ـ في أصح أسبابه ـ إلى انصراف المسلمين عن هدي الشريعة الإسلامية، ويرى أن السيطرة الأوروبية لم تملك زمام الأمور في الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم، واستضاءت بالعقل، وأن الشلل العقلي لم تتمهد وسائلُه المؤسفة، وأسبابُه القاتلة في ربوع الدين

(١) طائفة القاديانية: الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م، (ص٥ ـ ٧).

الحنيف، إلا حين استطاع الدخلاء أن يَلْبِسوا الحق بالباطل، فيصِموا الإسلام بما هو براء منه من الجمود والتزمت والاستسلام، والأخذ بالخرافات والبدع والغيبيات؛ المزعومة مما لم يأت به وحي سماوي، أو هَدْي نبوي.

ولذلك كانت مهمة «السعادة العظمى» شاقة خطيرة؛ إذ أخذت تحارب القوة والمال والنفوذ بعزم واثق، وجهد صابر أمين»[1].

ومن يطالع روائع قلمه، وبخاصة ما كتبه في «رسائل الإصلاح» بأجزائه الثلاثة، يدرك مدى اعتزاز الشيخ الخضر بأمجاد أمته، وافتخاره بتراثها العريق، والشموخ بحضارتها الزاهرة، وكان ذلك أمراً لابد منه في عصر تتبرج فيه الأفكار والفلسفات؛ لتدل بأفضالها على الناس بحق أو بغير حق، وتُلحق بالشرق كل ضعف ونقيصة، وتنعت الغرب بجميل النعوت، وكمالِ الأوصاف.

وقد جاء في مقدمة كتابه «نقض الشعر الجاهلي» ما يلي: «نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية، ابتدأت بطلوع كوكب الإسلام، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث، وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المثلى، سادت هذه النهضة، وكان لها الأثر الأعلى في الأفكار والهمم والآداب.

ومن فروعها: نهضة أدبية لغوية، جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني أمية، واستوت على سوقها في أيام بني العباس.

---

(١) محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ط١، دمشق: دار القلم، ١٩٩٥م، ١/ ٥٥.

تمتع الشرق بنهضته الاجتماعية والأدبية حُقُباً، ثم وقف التعليم عند غاية، وأخذ شأناً غير الشأن الذي تسمو به المدارك، وتنمو نتائج العقول، فإذا غفوة تدبُّ إلى جفون هذه الأمم، ولم تكد تستفيق منها، إلا ويدٌ أجنبية تقبض على زمامها.

التفت الشرق إلى ما كان في يده من حكمة، وإلى ما شاد من مجد، وإلى من شبّ في مهده من أعاظم الرجال، وأخذ ينظر إلى ماضيه؛ ليميِّز أبناؤه بين ما هو تراث آبائهم، وبين ما يقتبسونه من الغرب، ويشعروا بما كان لهم من مجد شامخ، فتأخذهم العزة إلى أن ينضموا إلى التالد طريفاً، وليذكروا أنهم ذريّة أولئك السراة، فلا يرضَوا أن يكونوا للمستبدين عبيداً»[1].

هذا هو المجال الذي انطلق فيه يراع الشيخ محمد الخضر حسين طوال حياته: مجال التذكير بالأمجاد عن دراسة وتنقيب، وكشف الخداع عن بهارج الغرب في استشفاف ونفاذ، ووضع العلاج لأدواء الشرق في بصر وتشخيص.

وقد ألّح في ذلك إلحاحاً جعل فريقاً من المؤرخين يفهمون رسالته الإصلاحية على غير وجهها الصحيح.

فالأستاذ (ولفريد كانتويل) أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة (مونتريال) يضع كتاباً عن الإسلام في التاريخ الحديث، يتعرض فيه إلى مجلة «الأزهر»، موازناً بين رئيسي تحريرها السابقين: محمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، فيجعل الأول ممثلاً للمدرسة السلفية فقط، والثاني مجدداً عصرياً

---

(١) محمد الخضر حسين، «نقض الشعر الجاهلي».

تسير طريقتُه في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة، وهذا شَطَط بالغ تنبّه إليه الأستاذ عباس العقاد حين تعرّض لنقد الكتاب، فقال[1]:

«ويقول صاحب الكتاب في مقابلته بين منهج الشيخ الخضر، ومنهج الأستاذ وجدي: إن أولهما يعتبر الإسلام وحياً تاماً، قد تنزل على صورته الكاملة عند عصر الرسالة الإسلامية، فلا إضافة إليه، ولا زيادة عليه، ولا تحوير فيه، وإنما الإيمان بالإسلام هو الذي يحتمل القوة والضعف، كما يحتمل زيادة المعرفة، أو النقصَ فيها، أو يحتمل المراجعة من عصر إلى عصر لتفقّد الآثار العصرية فيه، وليس الأستاذ الخضر ـ كما يرى المؤلف ـ من أنصار الحنين إلى الماضي، بل هو من أنصار الدعوة التي لا زمان لها؛ لأنها صالحة لكل زمان، ومهما تتجدد مذاهب المعرفة، فالمسلم يسلم أمره إلى إرادة الله كما هَدَته معارفه إلى فهم تلك الإرادة الإلهية بالدرس والإلهام، وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين في الحاجة إلى التصحيح والإصلاح، وهما ـ على تعبير المؤلف ـ: طرف اليسار من المتعلمين الذين جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين وأتباع الطرق الصوفية الذين ضيقوا حدوده عليهم، وإن لم يجاوزوه».

كما تولى رئاسة تحرير مجلة «لواء الإسلام» سنة (١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م)، وتحمَّل إلى هذه الأعباء التدريس بكلية أصول الدين، فالتفَّ حوله الطلاب، وأفادوا من علمه الغزير، وثقافته الواسعة، وعندما أنشئ (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة سنة (١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م)، كان من الرعيل الأول الذين اختيروا

---

(١) مجلة «الأزهر»، رجب، سنة ١٣٨١هـ.

لعضويته، كما اختير عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وأثرى مجلة «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة ببحوثه القيمة عن صحة الاستشهاد بالحديث النبوي، والمجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية، وطرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية.

*** مشيخة الأزهر:**

نال الشيخ عضوية جماعة كبار العلماء برسالته القيمة «القياس في اللغة العربية» سنة (١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م)، ثم لم يلبث أن وقع عليه الاختيار شيخاً للجامع الأزهر في (٢٦ ذي الحجة ١٣٧١هـ = ١٦ سبتمبر ١٩٥٢م)، وكان الاختيار مفاجئاً له، فلم يكن يتوقعه أو ينتظره بعدما كبر في السن، وضعفت صحته، لكن مشيئة الله أبت إلا أن تكرم أحد المناضلين في ميادين الإصلاح؛ حيث اعتلى أكبر منصب ديني في العالم الإسلامي.

وكان في ذهن الشيخ ـ حين ولي المنصب الكبير ـ وسائلُ لبعث النهضة في مؤسسة الأزهر، وبرامجُ للإصلاح، لكنه لم يتمكن من ذلك، ولم تساعده صحته على مغالبة العقبات، ثم لم يلبث أن قدّم استقالته احتجاجاً على اندماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي وكان من رأيه أن العكس هو الصحيح، فيجب اندماج القضاء الأهلي في القضاء الشرعي؛ لأن الشريعة الإسلامية ينبغي أن تكون المصدر الأساسي للتشريع، وكانت استقالته في (٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ = ٧ يناير ١٩٥٤م)، ويذكر له في أثناء توليه مشيخة الأزهر قولته: «إن الأزهر أمانة في عنقي، أُسلمها حين أُسلمها موفورةً كاملة، وإذا لم يتأتَّ أن يحصل الأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقلَّ من أن لا يحصل له نقص»، وكان كثيراً ما يردد: «يكفيني كوبُ لبن،

وكسرةُ خبز، وعلى الدنيا بعدها العفاء».

*** مؤلفاته:**

كان الشيخ عالماً، فقيهاً، لغوياً، أديباً، كاتباً من الرعيل الأول، أسهم في الحركة الفكرية بنصيب وافر، وترك لقراء العربية زاداً ثرياً من مؤلفاته، منها:

- «رسائل الإصلاح»، وهي في ثلاثة أجزاء، أبرز فيها منهجه في الدعوة الإسلامية، ووسائل النهوض بالعالم الإسلامي.
- «الخيال في الشعر العربي».
- «آداب الحرب في الإسلام».
- «تعليقات على كتاب الموافقات للشاطبي».
- ديوان شعر «خواطر الحياة».

بالإضافة إلى بحوث ومقالات نشرت في مجلة «الأزهر»، و«نور الإسلام»، و«لواء الإسلام»، و«الهداية الإسلامية».

وقد جمع ابن أخيه الأستاذ الباحث علي الرضا الحسيني تراث عمه في مؤلفات بلغت الأربعة عشرة كتاباً، قدمها باقة للمكتبة العربية، وذخراً للأجيال، تسطر حياة وفكر وجهاد عَلَم من أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة.

*** وفاته:**

وبعد استقالة الشيخ محمد الخضر حسين من المشيخة، تفرغ للبحث والمحاضرة، حتى لبى نداء ربه في مساء الأحد (١٣ من رجب ١٣٧٧هـ = ٢٨ من فبراير ١٩٥٨م)، وصُلي عليه في الجامع الأزهر، ومشى في موكب جنازته علماء الأزهر، وأعيان الأمة، والمنتسبون إلى العلم، حتى بلغ

النعش (باب الخلق)، والموكب متصل فيما بينه وبين الأزهر، ودفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بوصية منه، ونعاه العلامة محمد علي النجار بقوله: «إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره إلا في النّدْرَى؛ فقد كان عالماً ضليعاً بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصدُ الناس ومعاقد شؤونهم، حفيظاً على العروبة والدين، يردّ ما يوجَّه إليهما، وما يصدُر من الأفكار منابذاً لهما، قويَّ الحجة، حسنَ الجدال، عفَّ اللسان والقلم...»[1].

❐ ❐ ❐

---

(١) أحمد تمام (الخضر حسين). ذكرى توليه مشيخة الأزهر، ٢٦ ذي الحجة ١٣٧١هـ، موقع إسلام أون لاين ـ محب الدين الخطيب، شيخ الأزهر السابق السيد محمد الخضر حسين، مجلة «الأزهر»، الجزء الثامن، مج٢٩، شعبان ١٣٧٧هـ/ فيفري ١٩٥٨م، (ص٧٣٦).



الإمام محمد الخضر حسين

رجل العلاقات والمؤسسات العلمية[1]

الدكتور مولود عويمر

بسم الله الرحمن الرحيم

في حدود الوقت الباقي أحاول أن ألخص هذه المحاضرة المكتوبة.

أنا أنطلق من ملاحظة، ومن خلال دراستي مجموعة من أعلام المسلمين. وأنا أبحث عن هؤلاء العلماء والمفكرين والمعاصرين: شكيب أرسلان، محمد إقبال، حسن البنا، والمودودي، وغيرهم، أجد دائماً في طريق البحث الشيخ محمد الخضر حسين.

وصلت إلى نتيجة بأن هذا العالم هو رجل العلاقات، تربطه علاقات متينة مع كبار العلماء المفكرين المعاصرين، سواء من المغرب العربي، وعلى رأسهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، أو من رجالات وعلماء المشرق، منهم: شكيب أرسلان، وأبو الحسن الندوي، وغيرهم من العلماء المسلمين.

هذه العلاقات، كيف أقامها؟ كيف وصل إليها؟ لقد استثمرها لخدمة قضايا المشرق العربي في المغرب، وقضايا المغرب في المشرق العربي، واستثمر هذه العلاقات من خلال تأسيس مؤسسات، فهو بالإضافة إلى أنه رجل

---

(١) ملخص المحاضرة كما قرأها الدكتور مولود عويمر من جامعة الجزائر.

علاقات، هو رجل مؤسسات، وهو رجل رحلات، عاش أربعين سنة في تونس، وثمان سنوات في سورية، وسنة في الآستانة، وسنة أو أكثر في ألمانيا، وثمان وثلاثين سنة في مصر.

في أي بلد ينزل فيه هذا العالم يقيم فيه علاقات تربط المغرب بالمشرق، و ـ أيضاً ـ يقيم مؤسسات من خلال تأسيس جمعيات وصحف. أسس مجلة «السعادة العظمى» في تونس بين (١٩٠٣ ـ ١٩٠٤)، وفتحها لغيره من علماء المغرب.

عندما ذهب إلى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، أقام علاقات مع علماء من المشرق؛ مثل: محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وشكيب أرسلان، كل هؤلاء رموز النهضة العربية المعاصرة. و ـ أيضاً ـ: أسس جريدة مع جماعة من المناضلين، هذه الجريدة موجهة إلى السجناء من الجنود المغاربة الذين كانوا في الجيش الفرنسي، ووقعوا في قبضة الألمان، كتب نشرية موجهة إليهم، يحثهم على التخلي عن هذا الانتماء للجيش الفرنسي، والتعاون فيما بينهم لتأسيس جيش لمحاربة فرنسا في شمال إفريقيا.

وعندما ذهب إلى مصر فعل نفس الشيء، أسس مجلة «الهداية الإسلامية» عام ١٩٢٨م، وعندما تأسست مجلة «نور الإسلام»، وهي لسان الأزهر، أصبح رئيسَ تحريرها؛ بالإضافة إلى أنه كان يكتب في كثير من الصحف والمجلات المصرية.

نلاحظ من خلال هذه العلاقات، ومن خلال هذه المؤسسات، أو من خلال الجمعيات، أسس «جمعية الهداية الإسلامية» في مصر جانفي ١٩٢٨م، وساهم بشكل كبير في تأسيس جمعية معروفة بالعالم الإسلامي هي (جمعية

الشبان المسلمين) عام ١٩٢٦م، وهو من المؤسسين الذين وضعوا قانون هذه الجمعية، و ـ أيضاً ـ من خلال تأسيس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، وفي كل مرة نجد في دراسة نشاط مجلة «الهداية» ـ كما تفضل الأستاذ الحسيني من قبل ـ، وفي دراسة نشاط (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، ودراسة نشاط (جمعية الشبان المسلمين) في مصر، وفي امتداداتها في سورية، وفي تونس، نجد دائماً أن هذه الجمعيات والمجلات تفتح أبوابها، ويستضيف فيها علماء من المشرق، ومن المغرب؛ لكي يقدموا المحاضرات والندوات التي تمس القضية الفلسطينية، وتمس القضية التونسية، وتمس القضية المغربية؛ مثل: الظهير البربري في نشاط دؤوب عام ١٩٣٠م.

إذن هذا تلاقح الأفكار بين علماء المغرب وعلماء المشـرق، نجده بانتظام في كل مؤسسة، سواء كان صحيفة، أو جمعية، وهذا يدل على تفتح هذا الرجل العالم على المشرق والمغرب.

وإذا أردتم، أعطيكم نماذج عن هذه النشاطات:

ففي جمعية (الشـبان المسـلمين) كانت تفتح أبوابها لزعماء المغرب العربي، فالحبيب بورقيبة عندما ذهب إلى مصر، استقبلته هذه الجمعية، وأقام فيها إلى أن وجد مكاناً يليق به في مصر.

وكذلك الشيخ محيي الدين القليبي، وكذلك من الذين فتحت لهم الأبواب، وساهموا في الجمعية شخصية معروفة هو: الشيخ الفضيل الورتلاني، هذا الرجل العظيم الذي ساهم مع الشيخ محمد الخضر حسين في تأسيس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية).

فالشيخ محمد الخضر حسين كان رئيس هذه الجمعية، والشيخ الفضيل

الورتلاني كان أميناً عاماً لها، وأي واحد يطلع على كتاب الفضيل الورتلاني «الجزائر الثائرة» سيجد ـ تقريباً ـ كل البيانات والنشريات التي كانت تصدرها (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية). هذه الجمعية دامت حتى عام ١٩٤٧م.

و ـ أيضاً ـ، ومن خلال هذه العلاقات بين محمد الخضر حسين وعلماء المشرق، نجد أن هذه العلاقات نجدها أحياناً علاقات سياسية، فهو رجل سياسة ـ أيضاً ـ بالإضافة إلى أنه رجل علم. ونشاطه السياسي واسع، نجده يربط علاقات سياسية مع رجال السياسة في مصر، وفي بعض الأحيان نجد نوعاً من التناقض؛ يعني: الشيخ محمد الخضر حسين تربطه علاقات ممتازة مع ملوك مصر، وخاصة الملك فؤاد الأول، الذي منحه الجنسية المصرية، والملك فؤاد أُعجب كثيراً بمحمد الخضر حسين عندما ألف كتابه المعروف «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وكان هذا سبب اللقاء بين فؤاد الأول، والشيخ محمد الخضر حسين.

وكذلك نقضَ كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين في حوالي ٤٠٠ صفحة.

وإن جميع الذين هاجموا طه حسين هاجموه بعد موته، وكل الدراسات حول نقض هذا الكتاب جاءت بعد موت طه حسين. والقلائل من العلماء الذين واجهوا طه حسين في حياته، ومنهم: الشيخ محمد الخضر حسين، والعالم الآخر الشيخ محمود شاكر، وكان سبباً لطرده من جامعة القاهرة.

وفي هذا الكتاب يرد الشيخ الخضر على كل ما كتبه طه حسين حرفاً حرفاً، على طريقة العلماء المسلمين في الحواشي، يضع النص، فيرده سطراً سطراً.

وهذا الكتاب لقي رواجاً كبيراً في العالم الإسلامي، ليس فقط في مصر؛ بدليل أن الشيخ أبا الحسن الندوي عندما زار مصر في عام ١٩٥٢م كان شغوفاً إلى التعرف على شخصية محمد الخضر حسين الذي قرأ عنه هذا الكتاب، وسجل ذلك في كتابه «مذكرات سائح في المشرق»، أو الشرق العربي، هذا الكتاب مشهور، طبع عدة طبعات.

وكذلك نجد الشيخ الخضر تربطه علاقة متينة برجال الثورة المصرية؛ بدليل أنه أول شيخ للأزهر بعد إسقاط نظام الملك فاروق، وإقامة الجمهورية في مصر عام ١٩٥٢م، فأول عالم، وأول شيخ للأزهر هو الشيخ محمد الخضر حسين، الذي تعاون مع رجال الثورة، ولكن عندما اصطدمت قناعاته في بعض الأعمال التي قام بها رجال الثورة؛ مثل: الإصلاحات على مستوى الأزهر، أو حول قضية المحاكم الشرعية، وقضية الإصلاح الزراعي في مصر، لم يرض الشيخ الخضر حسين عن هذه الإصلاحات، وقدَّم استقالته. وهذه الاستقالة - كما فسرها - هي استقالة سياسية تختلف عن الاستقالات التي عرفها الجامع الأزهر: وقليل من علماء الأزهر الذين استقالوا في تاريخه، ولكنها كانت استقالات علمية أكاديمية مرتبطة بإصلاحات داخل الأزهر.

وكان التعيين في مشيخة الأزهر من قبل هيئة كبار العلماء، وأصبح قراراً سياسياً. وقلما نجد عالماً يأخذ هذا الموقف السياسي، ويرفض هذه المشاريع السياسية التي طرحها رجال الثورة في مصر.

وأضاف الشيخ الخضر حسين ميزة عندما قال: «إن شيخ الأزهر لا ينتقل إلى الحاكم». عندما طُلب إليه الذهاب لمقابلة الرئيس محمد نجيب، وأعتقد أن هذه ميزة نقلها الشيخ محمد الخضر حسين إلى مصر.

إن دراسة تاريخ هذا العالم الجليل مطلوبة الآن حقيقة، خاصة بعد الأعمال التي قدمها الأستاذ علي الرضا الحسيني بجمع أعمال الشيخ محمد الخضر حسين، وخاصة في الصحافة: مجلة «الهداية»، ومجلة «السعادة العظمى»، كلها تحتاج إلى دراسة أعمق لاكتشاف عظمة هذا الرجل العظيم في جميع مواهبه وأعماله المختلفة.

هذا بالاختصار الشديد للعلاقات التي تربط بين الشيخ محمد الخضر حسين ومجموعة من العلماء المسلمين، سواء ـ كما قلت ـ في مؤسسات، أو كشخصيات، وتسليط هذه الأضواء على شريط التواصل بين المشرق والمغرب، وتأكيد على حقيقة أن المغرب والمشرق كانا عبر التاريخ متلاحمين متواصلين، عكس الفكرة الرائجة في أن حساسية المغرب بالمشرق، أو حول استكبارات المشرق.

هذه الأفكار تطرح في كثير من الصحافة الآن، وفي أدبيات الفكر الإسلامي المعاصر، وعن القطيعة بين المشرق والمغرب، فنضال الشيخ محمد الخضر حسين يثبت العكس؛ بأن التواصل بين المغرب والمشرق فيه ترابط بين الطرفين.

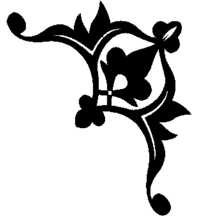
فالشرق لم يستطع أن يواصل إشعاعه الفكري والحضاري إلا بمساعدة ومساهمة عقول علماء المغرب، ومن بينهم: الشيخ محمد الخضر حسين ـ كما ذكرت ـ، والذين استقروا في مصر خاصة، أو في الشام، أو في الحجاز، قدموا خدمات جليلة في هذه الدول.

والمغرب العربي لم يكن باستطاعته أن يتحرر من الاستعمار الفرنسي إلا بفضل وجهود وتعاون وتضامن شعوب وعلماء ومفكري المشرق العربي.

هذا إذن العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، نموذج من التفاعل والتواصل بين المشرق والمغرب، وأنا أعترف ـ بنهاية ملخص هذه المحاضرة ـ بأن هذه هي مشروع بحث، وليس البحث؛ لأنه برغم اطلاعي على الصحافة العربية خلال عامي (١٩٤١ ـ ١٩٦٢م)، فإني وجدت البارحة عندما اطلعت على أعمال الشيخ محمد الخضر حسين، بفضل جهود علي الرضا الحسيني، ونحييه على ذلك، فأدركت أنني في الحقيقة الآن في الخطوة الأولى من البحث، وأدعو نفسي وغيري إلى مواصلة هذا البحث؛ لأنه حقيقة يحتاج منا كل اهتمام.

وشكراً لكم على الاستماع، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



توصيات الملتقى

نظَّمت (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة)، وبالرعاية السامية لمعالي وزير الثقافة، والسيد والي بسكرة، وبمساهمة العديد من المؤسسات العمومية والخاصة أيام (٢٥، ٢٦، ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧م) بقاعة مداولات الولاية، وقاعة الفكر والأدب (الملتقى الوطني السادس ـ بسكرة عبر التاريخ) حول شخصية العلامة محمد الخضر حسين الطولقي الجزائري.

تميز الملتقى بحضور عدد كبير من الأساتذة المحاضرين من دول عربية: من سورية، ومصر، وتونس، ومن جامعات جزائرية، إضافة إلى أساتذة معقبين ساهموا في مناقشة وإثراء محاور الملتقى.

علاوة على ثراء الجانب العلمي، تمَّ تنظيم معرض للمخطوطات والتراث، وأعلام منطقة الزيبان، والأعمال الكاملة للشيخ محمد الخضر حسين ببهو دار الثقافة (أحمد رضا حوحو)، عرف إقبالاً كبيراً من طرف المهتمين.

بعد الاستماع لكلمات السيد والي بسكرة، ورئيس (الجمعية الخلدونية)، وسماحة الشيخ عبد الرحمن شيبان، ومحاضرات الأساتذة، والقراءات الشعرية، وتكريم الأستاذ علي الرضا الحسيني من سورية تقديراً للجهود العلمية الكبيرة

في إحياء التراث، وجمع وطبع الأعمال الكاملة للشيخ محمد الخضر حسين، وتكريم انشراح مذكور من مصر حرم الشيخ محمد الخضر حسين.

اجتمعت لجنة التوصيات الخاصة بالملتقى، وبعد النقاش رفعت التوصيات التالية:

١ ـ التعريف بشخصية العلامة محمد الخضر حسين وأعماله عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، وإنجاز أشرطة وثائقية، وفيلم سينمائي.

٢ ـ إنشاء موقع على الانترنيت يحمل اسم العلامة محمد الخضر حسين، يشمل أعماله الكاملة، وكل الكتابات التي تناولت حياته ومسيرته النضالية والعملية مدعّمة بالصور.

٣ ـ دعوة للجامعات الجزائرية إلى توجيه طلبة الدراسات العليا إلى تناول آثار العلامة محمد الخضر حسين بالدراسة والتحليل.

٤ ـ السعي لإطلاق اسم الشيخ محمد الخضر حسين على أحد المرافق الثقافية والتربوية والدينية بولاية بسكرة.

٥ ـ دعوة وزارة البريد إلى إصدار طابع بريدي يخلّد شخصية الشيخ محمد الخضر حسين.

٦ ـ التأكيد على جمع وطبع المحاضرات والتعقيبات المقدمة في الملتقى في كتاب، وعلى أقراص مضغوطة، وتوزيعه على نطاق واسع للاستفادة منها أكثر.

٧ ـ لعدم توفر كتب الشيخ محمد الخضر حسين في المكتبات الجزائرية، نلتمس بإعادة طبع أعماله الكاملة، وكلٍّ ما كُتب حول شخصيته وأعماله.

٨ ـ للروابط التاريخية بين مدينة «طولقة» بالجزائر، ومدينة «نفطة»

بتونس، نقترح توءمة بينهما؛ من أجل التواصل الثقافي والعلمي في جميع المجالات.

٩ ـ العمل على تدعيم الملتقى، وتقديم ميزانية خاصة من أجل مواصلة هذه الجهود المبذولة، وتجسيد التوصيات على أرض الواقع.

١٠ ـ دعوة الجامعات الجزائرية، والمؤسسات التربوية لبرمجة رحلات علمية إلى منطقة الزيبان لفائدة الطلبة والتلاميذ؛ للتعرف عن قرب على المواقع التاريخية والمعالم الحضارية التي تزخر بها الولاية.

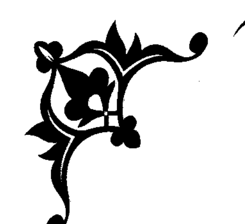
وفي الأخير: نرفع آيات الشكر والتقدير والامتنان لكل من كانت له أيادٍ بيضاء، وعونٌ مادي أو أدبي لإنجاح هذا الملتقى، وإبرازه في حلة زاهية الألوان، وضّاءة الملامح، مشرقة الجنبات، ونخص بالذكر بدءاً وانتهاء: وزيرة الثقافة، كما نخص بالذكر الرجلَ الأول في الولاية السيدَ الوالي الذي أعطى الأنموذج الحي للمسؤول العاشق للعلم والعلماء.

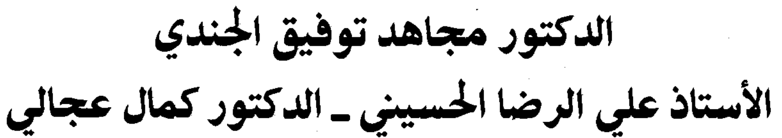
كما لا ننسى كل الدعم الذي لاقيناه من جميع السلطات المحلية والأمنية، ورجال الإعلام في مختلف القطاعات؛ ممن أحاطوا هذا المهرجان العلمي بكل رعاية وإحسان.

ولو أَنْ لنا في كُـلِّ مَنْبَـتِ شَـعْرَةٍ لِساناً يَبُثُّ الـشُّكْرَ فـيهم لَقَـصَّرا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







ندوة إذاعية[1]

الدكتور مجاهد توفيق الجندي

الأستاذ علي الرضا الحسيني ـ الدكتور كمال عجالي

المذيع مقدم الندوة: أيها الأحبة! سأكون سعيداً أن ألقاكم على ضفاف هذا المساء؛ لتناول وجبةٍ علمية، غذاء كامل؛ كما لو أننا سنتناول حلواً تمراً من تمور «طولقة» التي تمور هذا المساء في أحلامها.

الحضرة حضرة علماء، وحينما يحضر العلم، يبطل كل شيء، يبطل كل ما يمت بصلة إلى اللغو.

سأكون سعيداً أن أكون بين حضرات العلماء؛ حيث سأكون واحداً من بين الذين يغرفون من بحر هؤلاء.

بداية أيها الأحبة يحضر معنا:

ـ الأستاذ الدكتور مجاهد توفيق الجندي أستاذ كرسي الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، ومؤرخ الأزهر، وعضو اتحاد المؤرخين العرب.

ـ الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن شقيق المحتفى به العلامة الإمام محمد الخضر حسين، مهتم بتراث العائلة على مدى أربعين عاماً. وكان قد

(١) ندوة إذاعية على الهواء مباشرة من الإذاعة الجزائرية في مدينة «بسكرة» على هامش الملتقى. مساء يوم ٢٦/١٢/ ٢٠٠٧م.

جمع كل أعمال العلامة والفهّامة والتكلامة[1] الشيخ محمد الخضر حسين.

ـ الأستاذ الدكتور كمال عجالي من جامعة «باتنة»، وهو مهتم ـ أيضاً ـ بالحضارة الإسلامية والأدب.

نتحول إلى الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن شقيق المحتفى به الشيخ محمد الخضر حسين.

أود أن أشير إلى أن العلامة محمد الخضر حسين قد ولد في مدينة «نفطة» بالجنوب التونسي، لو تحدثنا عن نشأته؛ لأنكم كنتم بين الذين اهتموا بتراث العلامة.

الحسيني: بسم الله الرحمن الرحيم.

أريد ـ قبل الدخول في هذا الحوار ـ أن أوجه التحية إلى هذه المدينة الرائعة الخالدة، والتي شاءت أن تحتضن هذا الملتقى العظيم.

هذه أبيات قلتها أولَ أمسِ عندما جئت بالطائرة من مدينة الجزائر، أوحَتْها لي هذه المحبة التي أُكنها لهذه المدينة:

لسانُ الوَفا نادَى بصوتٍ مُجلْجِلِ	بِسِكْرَةُ ميلادي وأَهْلي ومَنْزِلي
علـى بابِهـا يلقـاكَ وجْـهُ بُطولـةٍ	وفي ساحها آياتُ نَصْرٍ مُحَجَّلِ
إذا نطقتْ أحجارُها أَوْقدَتْ لَظًى	وكمْ جَحْفَلٍ أَفْنَتْهُ في إثْرِ جَحْفَلِ
وفي ثورَةِ التَّحريـر هَبَّـتْ طليعـةً	تُذيقُ العِدا قَهْراً بـأَكْؤُسِ حَنْظَلِ
وفي السِّلْمِ دارٌ للضيافةِ والنَّدى	تعـانِق رُوّادَ التُّـراثِ بِمَحْفِلِ

(١) التكلامة: الجيّد الكلام، الكثيره.

وحَقّاً غدَتْ للفِكْرِ مَرْقًى ومُلْتَقًى ومنبـرَ إلهـامٍ لأَعـذَبِ مَنْهَـلِ
وقُبْلَةَ شُكْرٍ في جبينكِ مِنْ(علي) «بِـسِكْرَةُ» يـا أُمَّ الكِـرامِ تحيـةً

قبل «نفطة» نحن نقول: إن أصوله جزائرية من مدينة «طولقة»، والده التقي الشيخ الحسين ابن شيخ الزاوية سيدي علي بن عمر. ووالدته السيدة حليمة السعدية بنت سيدي مصطفى بن عزوز ابن الشيخ محمد بن عزوز في (برج ابن عزوز).

انتقلت العائلة من جنوبي الجزائر ـ في الواقع لم يكن هناك حدود، ولم يكونوا يعرفون الحدود بين تونس والجزائر.

وكان سبب انتقال الشيخ ابن عزوز سبباً نضالياً، وهو أن يجعل الزاوية في «نفطة» مكان راحة للمجاهدين الجزائريين ـ بالإضافة إلى دورها الأول في التوجيه الديني ـ، هذه الحقيقة غابت عن كثير من المؤرخين، ولكن لدي من الوثائق ما يؤكد هذه الحقيقة.

استقر في «نفطة»، وأقبل عليها طلاب العلم من كل حدب وصوب، وخاصة من الجزائر، ثم من بعد، انتقلت العائلة إلى تونس؛ لظروف خاصة؛ فقد توفي الشيخ مصطفى بن عزوز ـ رحمه الله ـ، وانتقل الشيخ الحسين إلى مدينة تونس، وأسس هناك زاوية، واستولد هؤلاء العظماء من الشيوخ: الشيخ سيدي محمد الخضر حسين، وسيدي الوالد زين العابدين، والشيخ محمد المكي بن الحسين من رجال العلم، ومن المختصين في اللغة العربية. والمشهود له بذلك، وطبعت كل آثارهم والحمد لله، إلى جانب مهنة المحاماة، مهنةُ المحاماة بالذات قاسية، فكنت أستقطع من الوقت ساعات حتى استطعت أن أجمع هذا التراث خلال أربعين سنة، والحمد لله على هذا.

المذيع: ما علمته من خلال قراءاتي: أن فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين كان قد ترأس تحرير مجلات عديدة في تونس، وفي مصر، ومن أهم هذه المجلات مجلة «الهداية الإسلامية».

الحسيني: أخي الكريم! الشيخ محمد الخضر حسين متعدد المواهب، فإن شئت أن تقرأه صحفياً، أو فقيهاً، أو مفسراً، أو محدثاً، أو شاعراً، أو لغوياً، أو رحّالة، أو ما شئت قل فيه من الأوصاف؛ فقد وهبه الله هذه الخصال، وعمل عليها بإخلاص، لذلك نجح في حياته.

أما بالنسبة ـ حسب طلبك ـ للنواحي الصحفية، فهو أول ما بدأ بالعمل الصحفي، أصدر مجلة «السعادة العظمى» في تونس، أول مجلة صدرت في المغرب، وصدر منها واحد وعشرون عدداً، وتوقفت لأسباب ما جابهه به التقليديون من الشيوخ القدماء؛ لأنه حاول أن يجعل منها دورية إصلاحية، فجابهوه لهذه الناحية؛ مما أدى إلى توقفها، هي لم تغلق، ولكن توقفت؛ مما اضطره إلى الهجرة بعدها إلى الشرق.

ليس إغلاقها هو العامل الوحيد، هناك أسباب أخرى دعته إلى الهجرة إلى الشرق؛ لأنه حاول خلال إقامته في مدينة «بنزرت» كقاضٍ. نزل إلى تونس، وألقى في (جمعية قدماء الصادقية) محاضرة عنوانها: «الحرية في الإسلام»، وختمها بالحديث عن الاستبداد، فما بالُكَ برجل في عهدِ محتلٍّ قاسٍ غاشم، يتحدث عن الحرية، ويدعو إلى مقاومة المحتل؟! مما جعل عيونَ المحتل تراقبه، وتضغط عليه، وتلاحقه، في الواقع هذا السبب الأول في انطلاقه إلى الشرق.

لأنه كان يرى أن همته أوسعُ من تونس، ورسالته تضيق في هذا البلد،

فأحب أن ينطلق إلى آفاق، كما قال في مقدمة ديوانه الشعري «خواطر الحياة».

أما بالنسبة لتتمة أعماله الصحفية، أول عمله في مصر كان رئيساً لتحرير مجلة «نور الإسلام»، والتي هي مجلة الأزهر منذ العدد الأول، وصدر منها أربع سنوات، كان يحرر الافتتاحية، وله مقالات هامة فيها، وفي هذه الأثناء أسس مجلة «الهداية الإسلامية»، و(جمعية الهداية الإسلامية)، وصدرت المجلة على مدى ثلاث وعشرين سنة، حتى قيل في مجلة «الهداية الإسلامية» من كثرة ما كتبت عن المغرب: هذه ليست مجلة مصرية عربية، هذه مجلة مغربية عربية، حتى إن أحد الكتاب المصريين أطلق عليه لفظ: (ابن خلدون عصره)، هذا الرجل هو ابن خلدون عصره.

وإذا رجعنا الآن إلى مجلدات «الهداية الإسلامية»، فإننا نجد أنه لا يخلو عدد من الأعداد من الحديث عن المغرب، سواء لترجمة رجل من الرجال، أو لوصف جغرافي، أو تاريخي، (مسقطُ الرأس غالي) كما يقولون.

ثم عمل في مجلة «لواء الإسلام» التي أصدرها السيد أحمد حمزة، وقال في مقدمتها: عندما شاءت الإرادة الإلهية أن نباشر في إصدار هذه المجلة، لم نجد علماً من الأعلام سوى الخضر حسين لترؤُس هذه المجلة. دام في هذه المجلة حتى عام ١٩٥٢م عندما استلم مشيخة الأزهر، وبرغم هذا، لم يتخل عن وفائه لمجلة «لواء الإسلام»، إنما استمر في الكتابة بها حتى وفاته عام ١٩٥٨م.

حتى في السنة التي توفي فيها كتب مقالاً، وما زال مستمراً على هذا، وتوفي عندما سقط القلم من يده.

هؤلاء هم أهل الإيمان والفكر الإسلامي كما ترى.

المذيع: نتحول إلى الدكتور كمال عجالي، مهتم بالحضارة الإسلامية والأدب، وله دراسة حول الطيب العقبي.

لما أصدر عميد الأدب العربي طه حسين كتابه: «في الشعر الجاهلي»، لم يجد من يردّ عليه في تلك الأثناء ـ أثناء حياته ـ إلا العلامة محمد الخضر حسين، هل هي ثقة بالنفس؟

الدكتور عجالي: في الحقيقة هناك بعض الأسماء التي حاولت الرد على طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي»، ولكن البحث الحقيقي، أو البحث الذي اعترف به طه حسين، واعترف بنزاهته وموضوعيته، وبحيادية صاحبه هو كتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لمحمد الخضر حسين، هذه بشـهادة طه حسـين، هو الكتاب الذي اعترف بموضوعيته، أما بعض الردود الأخرى، فكان يعتبرها من قبيل التهريج، أو الاندفاع، أو من قبل العواطف، كان ينظر إليها أنها عاطفية أكثر منها عقلانية أو علمية بمعنى الكلمة.

المذيع: دكتور مجاهد توفيق الجندي... يقال: إن العلامة محمد الخضر حسين كان نابغة؛ لدرجة أنه لما بُعث في بعثة علمية إلى ألمانيا، كان قد أتقن اللغة الألمانية في ظرف وجيز. ما المسوغ الذي جعله يترأس الأزهر، هل هي الغزارة في العلم؟

هل هي موسوعيته؟

الدكتور الجندي: الشيخ محمد الخضر حسين كان موسوعة، كان من العلماء الموسوعيين، نجده فقيهاً، نجده أديباً، نجده سياسياً، نجده كاتباً، ناقداً، صحفياً، متعدد المواهب. وقد خصص نفسه للعلم، ليس عنده مشاغل

أخرى؛ حيث إنه لم ينجب أولاداً[1]، وكان أبناؤه هي الكتب، زوجته ساعدته في حياته؛ بحيث إنه لا يحمل همَّ أي شيء. تزوج من مصر الحاجة زينب مدكور من قبيلة النجمة التي تقطن منطقة الهرم، وجلس معها ثلاثين سنة، وبرغم أنها كانت عاقراً، لم يتزوج عليها، وعاشا سوية عيشة هنية، وبعد وفاتها تزوج ابنة أختها الموجودة الآن الحاجة انشراح مدكور، وابنُها المستشار أحمد البطران رئيسُ محكمة جنوب القاهـرة. وهذه جلسـتْ معه خمـس سنوات.

أما كونه قد تعلم اللغة الألمانية، فقد تعلمها فعلاً في ثمانية شهور، وهذا يدل على ذكائه، وعلى عظمة هذه الرجل. ونرجو الله أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويسكنه فسيح جناته.

وقد دخل إلى جماعة كبار العلماء في كتاب هو رسالة قيمة «القياس في اللغة العربية». هذه الرسالة دخل بها بجدارة إلى جماعة كبار العلماء، وهيئةُ كبار العلماء في الأزهر هيئةٌ أُنيط بها تحديث الأزهر الشريف، وإدخال العلوم الحديثة في الأزهر؛ يعني: هيئة كبار العلماء هذه خصصت لتحديث الأزهر الشريف؛ بمعنى: أن الشيخ الفلاني يدرس الرياضة، والشيخ الفلاني يدرس الكيمياء، اختيروا اختياراً، والشيخ محمد الخضر حسين كان من هؤلاء العلماء العظماء.

وقد حصل على الجنسية المصرية، أعطاها له الملك فؤاد؛ لأنه عندما أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، نقض الشيخ

---

(١) أنجب من زوجته الأولى في تونس بنتاً فقط.

محمد الخضر حسين هذا الكتاب، وردَّ عليه رداً مفحماً، وبهذا الرد عطف عليه الملك فؤاد؛ لأن الملك فؤاد كان يريد أن يكون خليفة بعد إسقاط كمال أتاتورك للخلافة.

بهذه الجنسية، وبدخوله جماعة كبار العلماء، اختارته الثورة المصرية لمشيخة الأزهر الشريف. . . حيث زاره ثلاثة وزراء، فيهم: الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي كان وزيراً للأوقاف في ذلك الوقت، وكان صديقاً للشيخ الخضر، بالإضافة إلى أن أعضاء مجلس قيادة الثورة كان معظمهم معه في (جمعية الهداية الإسلامية).

المذيع: أعود ثانية إلى ندوة هؤلاء العلماء التي تجمعني بهم. ومعنا في هذه الجلسة ـ الدكتور مجاهد توفيق الجندي ـ، والأستاذ علي الرضا الحسيني، شاعر، وأستاذ باحث، ابن شقيق المحتفى به، وكان قد جمع آثار العلامة محمد الخضر حسين ـ ومعنا الدكتور كمال عجالي أستاذ في جامعة «باتنة»، والمختص بالحضارة الإسلامية والأدب. مرحباً بكم إذن لأعود إلى الأستاذ الدكتور كمال عجالي.

دكتور عجالي! يقال: إن كتاب «القياس في اللغة العربية» هو درّة نادرة في هذا الظرف؟

الدكتور عجالي: طبعاً كما قال السادة الأساتذة، الشيخ محمد الخضر حسين لغوي بمعنى الكلمة، وهو جدير بهذا المعنى، وقد ألف كتابه هذا «القياس في اللغة العربية» ليبين أن اللغة العربية قادرة على أن تستوعب العصر، وتستوعب مستجدات العصر، وهذا المقصود من الكتاب.

وقد تقدم به كبحث لينال به درجة أحد كبار علماء مصر، وعندما ناقشه

السادة الأساتذة، وكان على رأسهم الأستاذ عبد المجيد اللبان ـ كما قال الدكتور توفيق ـ، على أن الأساتذة أو اللجنة عندما ناقشت الرجل، وسمعت منه ما طرحه في الكتاب من آراء، ومن نظرات، ومن آفاق للغة العربية، ومن رؤى ثاقبة، قال رئيس اللجنة: هذا بحر لا ساحل له، فكيف ندخل معه في لجاج، أو كيف ندخل معه في حجاج؟! هذا اعتراف من اللجنة، ومن رئيس اللجنة على أن كتاب «القياس في اللغة العربية» كتاب فريد من نوعه، ومن حسن الحظ أن الجزائر شاركت في طبعه، وهي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وأنا عندي نسخة منه، قرأته مرات عديدة، هذا الكتاب جدير بالقراءة للمتخصصين، وغير المتخصصين.

المذيع: أعود إلى الأستاذ علي الرضا الحسيني.

العلماء، أو أغلب العلماء يُزَجّ بهم في السجون، فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين كان قد زُجّ به في السجن، هلاّ حدثتنا عن هذا؟

الحسيني: زُجّ به في السجن في عهد السفاح جمال باشا، وكان الشيخ في مجلس علمي، ويظهر أن أحد المحامين من مدينة طرابلس بلبنان كان حاضراً هذا المجلس، وتحدث عن تشكيل ناد، أو بمعنى جماعة لمقاومة الخلافة العثمانية، أو مقاومة الحكم، هذا الخبر انتقل إلى البوليس التركي، فألقي عليه القبض، وزُجّ به في السجن. وكان السجن في مدينة دمشق، في (خان مردم بك)، وهو الآن سوق تجاري وكان من رفاقه في السجن: المرحوم الرئيس شكري القوتلي رئيس أول جمهورية في عهد الاستقلال، وسعدي بك الملا، وفارس الخوري رئيس الوزراء، وأقام في السجن مدة ستة أشهر، أو يزيد، وما اشتكى من اضطهاد أو تعذيب أو قلة طعام، وإنما اشتكى من

عدم وجـود قلم كان يحتاج إليه ليكتب حتى في السـجن، ومنعـوا عنـه الورق. . . قال:

غـلَّ ذا الحـبْسُ يَـدي عــن قَلَـمٍ كانَ لا يَصْحُو عـن الطِّـرْسِ فَناما
أنــا لــولا هِمَّــةٌ تَحْــدو إلــى خِدْمـةِ الإسـلامِ آثَـرْتُ الحِماما

وله بعض أبيات جميلة قالها في السجن عندما جرى نقاش مع الأستاذ سـعدي بك الملا الذي أصبح رئيسـاً للوزراء في لبنان؛ عن أيهما أفضل: البداوة، أم الحضارة؟ وكان الشيخ برأيه أن الحضارة نوع من المدنية، وأما بالنسبة للبداوة، فكان الشيخ قد عاش أول حياته في «نفطة»، وتأثر بالجو الريفي البدوي، وقال شعراً:

جَـرى سَـمَرٌ يـومَ اعْتُقِلْنـا بفُنْـدُقٍ ضُحانا به لَيْـلٌ وسـامِرُنا رَمْـسُ[1]
وقالَ رَفيقي في شَقا الحَبْسِ إنَّ في الْـ ـحَضارةِ أُنساً لا يُقاسُ بِهِ أُنْـسُ[2]
فقلتُ لَـهُ: فَـضْلُ البَـداوةِ راجـحٌ وحَسْبُكَ أن البَدْوَ لِيْسَ بـهِ حَـبْسُ

المذيع: طيب أستاذ حسيني. حدثتنا عن العلاّمة محمد الخضر حسين كعالم، ولم نتحدث عنه كشاعر.

الحسيني: الشـيخ الخضر شـاعر رقيـق، قوي السـبك، إذا تصفحت ديوانه «خواطر الحياة»، تجده طرق كل فنون الشـعر ما عـدا الغزل، وقـد حَقَّقته، كما حَقَّقه الأسـتاذ محمد علي النجار من الشيوخ في الأزهر، وأستاذ

(١) الرمس: القبر مستوياً على وجه الأرض.

(٢) رفيق الحبس: الأسـتاذ سـعدي الملاّ الذي كان سـكرتيراً لشـكري الأيوبي وقت الاعتقال، ثم أصبح رئيساً للوزارة اللبنانية.

اللغة العربية فيه. كما نجد في الديوان أبياتاً لا تصدر إلا عن شاعر ذي حس صادق.

لقد قرأت في شعره من أجمل ما قرأت في حياتي، وأنا محب للشعر، وأقوله في بعض الأحيان. لنستمع إلى قوله:

وغلامٍ قرَّبَ السَّاعةَ مِن أُذْنِه يَسْمعُ منها النَّقَراتِ
قالَ ما في جَوْفِها قلتُ له سوسةٌ تقرُضُ أيامَ حَياتي

المذيع: طيب أستاذ حسيني. لا شك أن العلامة محمد الخضر حسين من خلال بيت نرصده له يقول:

ولولا ارْتياحي للنّضالِ عن الهُدى لَفَتَّشْتُ عن وادٍ أعيشُ به وَحْدي

في الشطر الثاني يظهر أن العلاّمة يجنح إلى الاعتزال بعض الشيء.

الحسيني: لا أستطيع أن أفهم هذا البيت من هذه الوجهة، كان الشيخ اجتماعياً واعتزالياً، هو اجتماعي مع رجال الحق، مع الشيوخ الكرام، مع السياسيين الأباة كان اجتماعياً. أما عندما يجد أن هذه الطبقة لا تناسبه، فكان يعتزل.

ثم إن الشيخ لا يجلس في مقهى، ولم يدخل في نادٍ، كان همه خدمة الإسلام، يتنقل من داره إلى (جمعية الهداية الإسلامية)، إلى كلية أصول الدين، ثم يعود إلى داره، هذا برنامجه اليومي تقريباً.

المذيع: الأستاذ الدكتور مجاهد توفيق! إذا تتبعنا أعمال العلامة محمد الخضر حسين التي تهتم بالشريعة الإسلامية، فإننا نرصد أن هذه العلامة كان يهتم بالجانب الإصلاحي. وفي تصوري أن هذا الإحصاء الأولي: الحرية في

الإسـلام ـ الدعوة إلى الإصلاح ـ رسـائل الإصلاح. هذه كلها عناوين لهذا العلامة. لا شك أنه كان يدعو إلى الإصلاح كثيراً. . . ربما هو امتداد لبعض العلماء الذين سبقوه؟

الدكتور الجندي: بالطبع. هو عالم جليل، عالم موسوعي، كان امتداداً للإمام محمد عبده، بل أنا شخصياً أعتبره مثل الإمام محمد عبده، وربما يفوق الشيخ محمد عبده في سفرياته إلى ألمانيا، وأعماله الأخرى.

إن الإمام محمد عبده ذهب لزيارة إيطاليا وفرنسا، وزار جزيرة إلى جانب إيطاليا التي أصوله منها، ولعلها ليست على ذاكرتي الآن. فالشيخ محمد الخضر حسين ـ أيضاً ـ طوّف في سويسرا، وألمانيا، وتركيا، وبلاد الشام، وبلاد المغرب، وزار الجزائر أكثر من مرة، كل هذه دعوات للإصلاح، كل هذا في سـبيل نشـر العلم، وفي سـبيل إصلاح أحوال الأمة الإسلامية، وإنقاذها من رقدتها؛ لتحارب وتواجه الاسـتعمار الفرنسـي، والاسـتعمار الإنكليزي، وهذا الرجل يعتبر فلتة من فلتات الزمن، لا يجود بها الزمن كثيراً.

المذيع: نعود إلى الدكتور الأستاذ كمال عجالي.

لا شك أنكم درستم الحركة الإصلاحية في الجزائر، وما جلب انتباهي: أن الرجلين: عبد الحميد بن باديـس، والشـيخ محمد الخضر حسـين كانا إصلاحيين، وكانا قد درسا على العلامة الشهير محمد الطاهر بن عاشور، لعل هذا الأصل هو الذي جعل الرجلين يتفرغان في مذهب الإصلاح إن صح القول؟

الحسيني: أريد أن أصحح في السؤال؛ فالإمام لم يدرس على الشيخ

محمد الطاهر بن عاشور، بل كانا زميلين معاً في الدراسة. والشيخ ابن باديس درس عليهما. أردت فقط أن أوضح هذا.

الدكتور عجالي: في الحقيقة ـ كما قال السادة الأساتذة ـ الشيخ محمد الخضر حسين رجل متعدد المواهب، ومتعدد الوظائف؛ كان رجلاً سياسياً، وكان رجلاً إصلاحياً، وكان رجل دين، كان لغوياً، كان شاعراً، كان صحافياً، رحّالة.

وبالنسبة لقضية الإصلاح عند الشيخ محمد الخضر حسين، أنا درست ديوانه «خواطر الحياة»، لا أقول: إني درسته، بل ألقيت عليه نظرة، فوجدت أن الرجل كان يدعو إلى الإصلاح، والتمسك بالأصول من صحيح الدين المتمثلة في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، ويدعو إلى الرجوع لهذه الأصول... في نفس، الوقت كان ـ أيضاً ـ من الذين لا يمانعون من الأخذ من الحضارة، ومن مظاهر المدنية المعاصرة، وبالتالي كان الرجل رجل إصلاح، ورجل انفتاح، وبالتالي كان يدعو إلى الأخذ بالأصول، والأخذ بمستجدات الحياة. وهذه هي نفس النظرة التي دعا إليها الشيخ محمد عبده، ونفس النظرة التي تبناها الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ، ومنهج (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين). فالرجل كان إصلاحياً بمعنى الكلمة، ولا جدال في هذه النقطة.

المذيع: طيب، الأستاذ علي الرضا الحسيني! ما علمتُه من حضرتكم: أن العلامة محمد الخضر حسين يتقن ثلاث لغات أجنبية، هل تحدثنا عن تمكنه وبراعته في إتقان هذه اللغات؟

الحسيني: حسب ما وصلتُ إليه من وثائق أثناء تحقيقي في موضوع

الشيخ: أنه درس الألمانية في برلين عندما قام هناك بأعمال مجيدة، وهي في الغاية: تأليب الجنود المغاربة الذين وقعوا في أسر الألمان؛ ليجندهم للحرب ضد فرنسا في المغرب العربي.

ووجوده في ألمانيا لمدة ستة أشهر في زيارته الأولى، ثم ولمدة أربعة أشهر ويزيد في المرة الثانية، أتقن اللغة الألمانية على يد مستشرق ألماني اسمه (هاردر)، وأسس مسجداً في برلين، وألقى به خطاباً، يقال: إنه بعد الخطاب ألقاه باللغة الألمانية.

ثم في تركيا عُين في ديوان وزارة الحربية عند أنور باشا، كان هو صديقاً له في ديوان اللغة العربية، فكان مضطراً أن يدرس اللغة التركية، فدرَسها وأتقنها.

ثم في أواخر أيامه، عندما أسس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) في مصر، ومهمتها عبارة عن حرب ضد فرنسا، والدعاية ضدها، فأتى بمصري يتقن الفرنسية، وعلمه اللغة الفرنسية حتى أتقنها.

الشيخ لا يتبجَّح، ولا يُكابر، لا يقول في أي مجلس كذا وكذا، ولكني سمعت ممن أثق بدينه وبقوله أن الشيخ يتقن هذه الثلاث لغات.

المذيع: طيب، أستاذ رضا الحسيني! أنت كنت ملازماً للشيخ محمد الخضر حسين، هل كان يتردد عليه بعض العلماء ـ مثلاً ـ؟

الحسيني: يا أخي! أنا لم أكن مقيماً معه، إن إقامتي في دمشق مع الوالد زين العابدين، إنما التقيت بالشيخ عندما استلم مشيخة الأزهر، وأقمت لديه شهراً. وكان يأتينا بين سنة أو ثلاثة إلى دمشق للاصطياف وللتنزه، والترويح عن النفس؛ يعني: يمكن أن أجمع لك الأيام بالنسبة للشيخ بما لا تتجاوز

أربعة أو خمسة أشهر. ولكن عرفت كل شيء عن الشيخ؛ لأن الشيخ لا يخفي شيئاً عن الناس، تراه على طبيعته.

والسادة العلماء يعرفون أكثر مني عن العلماء الذين يترددون عليه في مصر. والشيخ لا يستقبل أحداً في داره. في السيدة زينب شقة تتألف من غرفتين، وفسحة صغيرة، كانت لا تتسع أن يستقبل فيها أحداً، كان يأتيه كبار القوم من العالم الإسلامي، فكان يتفق معهم على موعد في (جمعية الهداية الإسلامية)، يستقبلهم هناك مساء، وإذا دعاهم، يدعوهم إلى مطعم، أو يأتيهم بالطعام إلى (جمعية الهداية الإسلامية). ما كان يستقبل أحداً في بيته.

وعندما استلم مشيخة الأزهر، أصبحت داره أوسع في شارع صفية زغلول، فيها أربع أو خمس غرف. حتى يقال: إن الحبيب بورقيبة عندما فرَّ من تونس إلى مصر، أوقفوه في السلّوم، فقالوا له: من أنت؟ قال لهم: أنا الحبيب بورقيبة، واتصل بالشيخ الذي اتصل بدوره باللواء صالح حرب باشا، كان وزيراً للداخلية وقتها، وكان صديقاً للشيخ. وكان كبار عظماء الرجال في مصر ـ كما تفضل الأستاذ الجندي ـ كانوا من أصدقاء الشيخ. كثير من أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أعضاء في (جمعية الهداية الإسلامية)، ليسوا بأعضاء عاملين، بل أعضاء مؤازرين. اللواء محمد نجيب كان يترد على الشيخ باستمرار، فلما قامت الثورة، استدعي الشيخ لتسلم مشيخة الأزهر. وكانت (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) إحدى حركاته النضالية. ومقرها في (جمعية الهداية الإسلامية)، وكثير من الجزائريين فيها، وكان الفضيل الورتلاني هو الأمين العام للجبهة، والمكي الشاذلي.

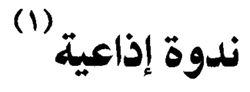
أنا عندي الآن وثائق للفضيل الورتلاني أكثر من خمسين مقالة يتحدث فيها عن نضال الجزائر، والقضية الجزائرية، وله كتاب «الجزائر الثائرة»، كتبها في جريدة «المنار»، وكانت تصدر بدمشق.

المذيع: إن الفضيل الورتلاني الذي تحدث عنه الأستاذ علي الرضا الحسيني هو من أكبر المجاهدين، وعضو في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

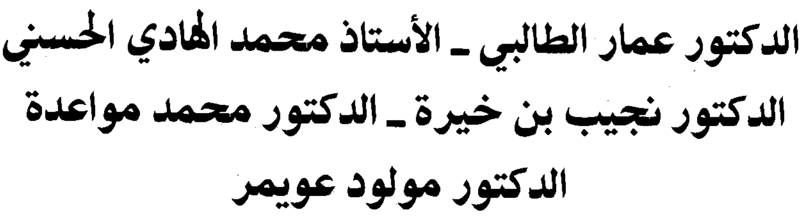
وأخيراً: شكراً للسادة المشاركين في هذه الندوة.







ندوة إذاعية[1]



الدكتور عمار الطالبي ـ الأستاذ محمد الهادي الحسني الدكتور نجيب بن خيرة ـ الدكتور محمد مواعدة الدكتور مولود عويمر

المذيع مقدم الندوة: مرحباً بكم إلى هذه الندوة التاريخية العلمية، التي نتناول من خلالها جوانبَ من شخصية العلامة التكلامة محمد الخضر حسين الطولقي الجزائري.

ها هو ذا مساء آخر يفتح أكمامه، ويلقي عصاه في بحر آخر من بحور المعرفة؛ بحثاً عن الحقيقة التاريخية، وما يحوطها من أسرار.

يتجدد الموعد إذن في موسـم من مواسـم العودة إلى مدن الجنوب، في عرس معارفي تحييه نواميس الحياة، فنجلس معاً في حضرة العلماء، ونتناول ما لذّ وطاب من علم ومعرفة.

أهلاً بكم إلى هذه الجلسة الأثيرية، وهذه الندوة التاريخية العلمية التي يحضر من خلالها معنا:

ـ فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور عمار الطالبي أستاذ بجامعة الجزائر.

---

(١) ندوة إذاعية على الهواء مباشرة من الإذاعة الجزائرية في مدينة «بسكرة» على هامش الملتقى. مساء يوم ٢٧/١٢/ ٢٠٠٧م.

ـ الأستاذ محمد الهادي الحسني.

ـ الدكتور نجيب بن خيرة أستاذ في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة.

ـ الدكتور محمد مواعدة، خبير لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة من تونس.

ـ الدكتور مولود عويمر أستاذ بجامعة الجزائر.

نتحول إلى فضيلة الشيخ والعلامة الدكتور عمار الطالبي من جامعة الجزائر؛ لنضع هذا السؤال: حياة اللغة العربية ـ الخطابة عند العرب ـ القياس في اللغة العربية ـ دراسات في العربية وتاريخها. هذه العناوين هي للعلامة محمد الخضر حسين. هل هو شعوره القوي بالانتماء؟ الهوية؟ أم دافع التوسع والتطلع إلى مجالات أخرى، واختصاصات أخرى غير الشريعة، جعله يهتم باللغة العربية بهذا الشكل؟

الدكتور الطالبي: إذا ما درسنا أعمال العلامة محمد الخضر حسين من جوانبها اللغوية، فإنا نجده ينشط في هذا المجال لسببين:

السبب الأول: هو سبب نضالي، ودفاع عن اللغة العربية في عصر حوصرت، وضيّق عليها الاستعمار، وخاصة في الجزائر، وإن كانت تونس بقيت بمنجاة عن كثير مما حلّ بالجزائر من الطمس والاندثار، وبدافع الدفاع عن اللغة العربية وعن وجودها؛ باعتبارها وسيلة لفهم القرآن الكريم، ولفهم الإسلام، فهو يدافع عنها بكل ما لديه من قوة.

والسبب الثاني: هو دافع علمي، لذلك إنه في أول حياته كان شغوفاً بالدراسات اللغوية والعربية وآدابها، ثم بعد ذلك وقع له تحوّل أساسي، انصرف إلى علوم الشريعة بأسلوب جديد غير الأسلوب التقليدي الذي كان

يألفه الناس في عصره؛ من اختصار الخليل، وشـروحه، وحواشيه. والذي نبهّه إلى هذا: هو أبو بكر بن العربي، حينما قرأ مؤلفاته، فهو يدرس الشريعة بذوق عقلي إن صح التعبير، وهذا التعبير قاله ابن رشد: الذوق العقلي، ولـم يستعمله غيره؛ لذا أعجب بأسـلوب أبي بكر بن العربي، وهو أسلوب قوي في اللغة العربية، وبأسلوبه في تناول الدراسات الحديثية، والدراسات الفقهية، وتفسير القرآن، فانصرف إلى هذا الجانب.

ولكنه لم يتخلّ عن اللغة العربية؛ بدليل أنه لما تقدم إلى جماعة كبار العلماء في القاهرة، قدّم هذا الكتاب، وهو: «القياس في اللغة العربية»؛ لينال به هذه العضوية، التي تشترط بصاحبها أن يقدم بحثاً جديداً فيه أصالة، وفيه تظهر شخصية الباحث، فنال هذه الدرجة بإجماع الذين قبلوا عضويته في هذه الجماعة.

وكذلك الدراسـات اللغويـة الأخـرى انتهى إليها بدافع علمي، وهي الدراسـات التي قدمها لمجمع اللغة العربية في القاهـرة، وكان عضواً فيه، وكذلك المجمع العلمي العربي بدمشق. قدّم لهذين المجمعين أبحاثاً لغوية متميزة في وضع المصطلحات، سواء كانت تتعلق بمتن اللغة نفسِها، أو تتعلق بالمدارس الأخـرى؛ بتصحيح الروايـات التي تتحدث عن مشافهة العرب، واستعمالاتها، وأوضاعها في اللغة.

فهو لا يقبل إلا ما كان صحيحاً في سنده وروايته، ولا يقبل أقوال بعض علماء اللغة الذين لا سند لهم بالطريقة التي يراها هو صحيحة تصل إلى كبار المصادر والموارد اللغوية القديمة؛ كسيبويه، ونفطويه، والسكاكي، والأخفش، ومن إليهم من كبار العلماء.

هو جال جولة عظيمة، ودافع عن اللغة العربية، وعن الشعر الجاهلي ضد طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي»؛ لأنه شكَّ في هذا الشعر أنه منحول، ونسب إلى الجاهليين، ولا يمكن أن يستعمل في فهم القرآن؛ لأنه ليس مصدراً موثوقاً به، وهذا ما دفعه للدفاع عن اللغة العربية، والدفاع عن الشريعة في «نقض كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين»، وهو ليس أمراً سهلاً أن تعارض شخصية مثل هذه الشخصية الأدبية اللغوية، الأمر ليس من السهولة في مكان. ولكنه اقتحم، ومع أنه في مصر وليس مصرياً، بمعنى الكلمة، ومع ذلك اقتحم ذلك بجرأة، ولم يخش إلا الله.

وكذلك في كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وإن كان الجانب الشرعي غير الجانب اللغوي.

المذيع: أفهم من كلامكم هذا ـ فضيلةَ الدكتور ـ: أن العلامة محمد الخضر حسين أراد أن يطبق علمَ الجرح والتعديل على الأسانيد اللغوية؟

الدكتور الطالبي: منهجهُ هو منهج المحدِّثين في التوثق من رواية الأخبار والمتون اللغوية، أو المتون الحديثية. ولذلك نجده في تراجمه للرجال يعتمد على منهج المحدّثين أكثر مما يعتمد على منهج المؤرخين؛ لأن المؤرخين ـ كما تعلم ـ يتساهلون فيما لا يتساهل فيه أهل الحديث؛ لأن الحديث يترتب عليه أحكام شرعية، ولذلك يشترطون شروطاً قاسية ومضبوطة حتى يقبلوا رواية من الروايات. أما المؤرخون، فلا يترتب على الأخبار التي ينقلونها، والروايات التي يوردونها أشياء خطيرة، إلا في أخبار الفتن التي وقعت بين الصحابة، والأحداث الكبرى التي تحيط بالأمة. وسلك في هذا منهجاً هو في الحقيقة منهج أبي بكر بن العربي في كتابه «العواصم من القواصم».

أنكر كثيراً من الروايات التاريخية، ولم يصدق إلا ما رواه الطبري، والثقات من المحدّثين؛ لأن السيرة ـ مثلاً ـ إما أن نأخذها من كتب التاريخ، وإما أن نأخذها من كتب الحديث، فالسيرة الصحيحة إنما تعتمد على السند الحديثي، وهو أكثر وثاقة من السند التاريخي، والمحدثون هم ابتدعوا هذا الطريق، وهذا المنهج النقدي، ثم تبعهم بعد ذلك المؤرخون، حتى الأدباء يروون النصوص الأدبية بطريق السند. أظن أن هذا منهج متشدد فيه.

المذيع: نتحول إلى الدكتور محمد مواعدة: لا شك أن الشيخ محمد الخضر حسين كانت نشأته الأولى في «نفطة» من الجنوب التونسي، ومعلوم أن هذا العلامة كان موسوعياً متعدد المواهب، كان شاعراً، مفكراً، رجل دين، وكان إعلامياً.

بتصوري هل هذه المواهب كانت قد تشكلت مع إقامته الأولى في الجنوب التونسي، أو في تونس بالأحرى، وحتى درس في جامعة الزيتونة؟

الأستاذ مواعدة: أشكر إذاعة «بسكرة» على هذا اللقاء الحميم مع نخبة من المثقفين من الجزائر الشقيقة، ومع نخبة ليست فقط مهتمة بالشيخ محمد الخضر حسين، بل مهتمة بقضية الهوية والانتماء.

الملاحظة الأولى: أن قيمة الشيخ محمد الخضر حسين هو بحر، وكما قال أحد الإخوان في الندوة: هو رجال في رجل. ولكن أقول شيئاً آخر: إنه من الشخصيات العديدة بين الجزائر وتونس التي وحّدت، تجاوزت الحدود المصطنعة الاستعمارية، وأكدّت أن هذه الشعوب هي شعب واحد، هي أمة واحدة.

ومن «طولقة» كأصول، إلى «نفطة» نشأة وتكوين، إلى تونس، إلى

الأزهـر؛ يعني: أنه أصبح رجـل الأمة الإسـلامية انطلاقاً من إطار محدود جداً. هذا نوع من الشـخصيات التي تتجـاوز الإطـار الجغرافي إلى الإطار الحضاري.

الذي أثر أولاً في شخصيته، أعتقد: الأساس الجذور، هو مثل النخلة، النخيل جذورها عميقة، ورؤوسها في السماء مرتفعة إلى أبعد الحدود، وهذا هو نوع الشخصية التي يرمز إليها الشيخ الخضر حسين.

لا شكَّ أن انتماءه إلى جذوره له أثره: الشيخ مصطفى بن عزوز جدّه لجهة الأم، وعلي بن عمر من جهة الأب، العائلة في جذورها في مدينة «طولقة» بسكرة عاصمة الزيبان، له أهمية كبيرة أن ينشأ الإنسان في عائلة محاطة بجو ديني شرعي، ثم باهتمام لغوي. والاهتمام اللغوي ـ كما قال الدكتور عمار ـ هو أساس الاهتمام بالنصوص الدينية.

وحوله خاله المرحوم الشيخ محمد المكي بن عزوز في «نفطة».

قلت للإخوان ونحن أطفال صغار، ونسمع بالشيخ محمد الخضر حسين، ومن منا لا يزور زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز؟!. ونعرف أن الشيخ مصطفى ابن عزوز جاء من منطقة «طولقة»، والعائلة كلها منحدرة منها.

إن العلاقات العائلية بين «نفطة» في الجريد ـ مثلاً ـ، وبين هذه المنطقة ـ الزيبان ـ علاقات لا تحصى. بل يستحيل أن لا تجد هنا وهناك عائلة من هنا وهناك.

المذيع: حتى بعض العلماء هنا ـ في منطقة الزاب الكبير ـ، كانوا قد درسوا في «نفطة»، ومنهم: العلامة الشيخ العربي التبسّي، وغيره. ومؤسس (زاوية الهامل).

الأستاذ مواعدة: صحيح، كثيرون من الجزائريين تلقوا العلم في زاوية «نفطة». ثم بعد ذلك البيئة التي عاشها في «نفطة»، وتسمى: الكوفة الصغرى في ذلك الوقت نتيجة الدروس والمعاهد العلمية. عندنا مثل يقول: بين كل جامع وجامع هناك جامع، وبين كل مسجد ومسجد هناك مسجد. وهذا طبعاً له تأثيره.

ثم الانتقال إلى جامع الزيتونة في تونس في المرحلة الموالية، مع إخوته بطبيعة الحال. والعائلة انتقلت إلى تونس للتمكين، والمزيد من التعمق في جامع الزيتونة. وقد سبقه قبل ذلك خالهُ الشيخ محمد المكي بن عزوز، والعديد من أقاربه.

عاش الشيخ الخضر، واستفاد من ذلك الجو العلمي، وليس فقط العلمي، بل العلمي والأدبي؛ لأنه هو يذكر عن نفسه في تاريخه: أنه من الطفولة اهتم بالشعر، وبدأ يقول الشعر، ويقول: عندما كبرت، اهتممت بالجانب العلمي أكثر من الجانب الأدبي الذوقي الشعري، إضافة إلى الجانب الأدبي، وإضافة إلى الجانب العلمي. ووصل في جامع الزيتونة إلى درجة رفيعة ـ كما هو معلوم ـ، فهو من كبار علماء جامع الزيتونة، قبل أن ينتقل ـ طبعاً ـ إلى الشرق.

ومن المعلوم: أنه أحدث أول مجلة عربية في الساحة المغربية، هي مجلة «السعادة العظمى»، التي تعتبر نموذجاً لذلك الوقت، نموذجاً للمحتوى العلمي، ولمحتواها العقائدي والفكري، والمحتوى الأدبي. كانت تنشر الشعر، وكان في ذلك الوقت نوع من الشعر العصري الذي هو شعر رصين رقيق، ومن النوع الرفيع من حيث الصياغة، ولكن في الوقت نفسه من حيث

المضمون هو حداثي، يدعو للاستفادة من الجانب الحديث. وكانت من بين المجلات القليلة التي نشرت هذا النوع من الشعر الذي يسمى بالشعر العصري.

إذن. بيئته وأصوله وجذوره، ينتمي إلى عائلة لها قيمة في «طولقة» منها أجداده وأخواله. ثم البيئة في «نفطة» هي نفس البيئة ـ تقريباً ـ مع البيئة في المدينة التي عاش فيها، كل ذلك له تأثير كبير جداً، وله تأثير ـ فيما بعد ـ على مستقبله العلمي ومكانته.

المذيع: نتحول إلى الدكتور نجيب بن خيرة من جامعة الأمير عبد القادر في قسنطينة:

بلا شك ـ دكتور نجيب ـ أن العالم أو الدارس الذي يستطيع أن يعلق ويشرح كتاب «الموافقات» للشاطبي، لا شك أنه وصل إلى هامة عالية من العلم، وما بلغني، وما أطلعت عليه: أن فضيلة الشيخ الخضر حسين كان قد علّق، أو لديه تعليقات على كتاب «الموافقات» في عام ١٩٢٣م؟

الدكتور بن خيرة: الحقيقة ما أجيب به لن يكون أكثر مما يقوله الدكتور عمار الطالبي، وهو متخصص في مجال الفقه والأصول والفلسفة. ما كتبه الشيخ الخضر حسين عندما كتب عن «الموافقات» للشاطبي، هذا دليل على الزاد الشرعي الذي كان يحمله من خلال الرحلة العلمية التي تلقاها عبر جامع الزيتونة، وقبل ذلك في الكتاتيب.

كانت المعارف اللغوية، والمعارف الفقهية التي تعتبر آليات لفهم علم الأصول... ونعرف أن الإمام الشاطبي كان من أواخر من كتب في المقاصد الشرعية، بعد أن استكمل دراسة علم الأصول، كتب كتاب «الموافقات» الذي

هو في مقاصد العلوم الشرعية. والذي يشرح هذا الكتاب يعني: ألمَّ بعلوم، الفقه، وأصول الفقه، والمنطق، ودلالة الألفاظ، وأقيسة اللغة. كل هذه درسها، وتمكن فيها، ورسخت قدمه في جوانبها، ثم بعد ذلك يتناول كتاباً مثل «الموافقات» للإمام الشاطبي.

وأظن أن هذه الكتابة، وهذا التخصص يأتي دائماً كتتويج للمعارف الشرعية التي يدرسها العالم، ويدرِّسها. وبعد جهد جهيد يؤلف في ميدان مثل ميدان المقاصد، أو يشرح كتاب «الموافقات» للشاطبي الذي نحن الآن في هذا العصر هناك «أطروحات دكتوراه» كثيرة في جامعات إسلامية في جوانب من الشاطبي. ولا يكتب عن الشاطبي إلا ضليع في الفقه والأصول. وليس في نظرية المقاصد فقط. والخضر حسين كان سباقاً في شرح «الموافقات» للشاطبي، وشرح الموافقات التي يلذّ فهمها إلا على الألبّاء من العلماء الفطاحلة والفقهاء.

الدكتور الطالبي: ما تفضل به بن خيرة. كتاب «الموافقات» طبع أول ما طبع في تونس، لجنة من العلماء صحّحوه على مخطوطات موجودة في تونس، ولكنه لما ذهب إلى مصر الشيخ محمد الخضر حسين، أراد أن ينشر هذا النص المحقق؛ لأن عبدالله دراز كان قد علق عليه، وطبعه، ولكن هذه النشرة يتولاها هو والشيخ بخيت المطيعي، وهو مفتي الديار المصرية، والذي أجاز الشيخ ابن باديس في منزله في حلوان.

أنا قرأت هذه التعليقات، وأعجبت بأسلوبه، ليس كأسلوب القدماء في التعليق، بل أسلوب حديث، وأسلوب التعبيرات السياسية، تشمّ منه رائحة النضال السياسي في أصول الفقه ومقاصده. تجد هذه التعليقات في غاية القوة،

وفي غاية الحداثة. لهذا يختلف تماماً عن تعليقات اللجنة التي حققته في تونس. وكان لهذا الكتاب الذي أوحى بالاهتمام به الشيخُ محمد عبده نفسه، وقدم له بمقدمات مهمة مع تعليقات، ولكن تعليقات الشيخ لها طابعها الخاص. كما لاتجاهه طابعه الخاص، ليس هو اتجاه البخيتي، والشيخ البخيتي مفتي وفقيه، ولكن طريقة القدماء. أما صاحبنا، فهو واقعي، عينه في الواقع أكثر من عينه في النص.

الدكتور بن خيرة: اطلعت بالأمس على مجلة «نور الإسلام»، فوجدت أن مقالات الشيخ التي يستهل بها المجلة كلها في الأخلاق، وفي تربية النشء؛ لأن الجيل يتعرض للمسخ، والهوية تتعرض للطمس، فهو ليس لديه الوقت على أن يتتبع دقائق التفسير، ودقائق الأقوال والأدلة والمذاهب.

الأستاذ الحسني: ربما حصل في هذا الوقت التيار التغريبي، لم يستطع أن يواجه الأمة بالتنكر للإسلام مباشرة، وإنما هذا التيار بمصطلح المثالية: مثالية الإسلام، والمقصود: أن هذا الكلام الذي تقولونه جميل جداً، لكنه لا يصلح للواقع، فكان الشيخ الخضر وغير الشيخ الخضر ردّ عليهم.

المذيع: الأستاذ محمد الهادي الحسني! باعتباركم أنكم إعلامي كبير، لا شك أنكم مهتمون بالجانب الإعلامي: فضيلة الشيخ الخضر حسين - إلى جانب أنه عالم - كان قد أسس بعض المجلات... مجلة «السعادة العظمى»، مجلة «الشبان المسلمين»، مجلة «نور الإسلام»، مجلة «الهداية الإسلامية»، وغيرها، وكنت اطلعت له على مقال له في مجلة «الهداية الإسلامية» في المجلد السابع، كان قوياً في كتابته، وكان رقيقاً، كان إعلامياً يوصل المعلومة إلى قارئها من حيث لا يدري؟

الأستاذ الحسني: بسم الله الرحمن الرحيم. يظهر لي أولاً بالتعليق على «السعادة العظمى» حتى خاله محمد المكي بن عزوز قال له: هذه مستواها عالي كثيراً ـ عندما راسله ـ. لكن يظهر لي هناك أمران: يريدان أن يثبت؛ كما يقول المثل العربي: (إن في بني عمك رماحاً)، يريد أمرين: هذا تحليل، وليس نتيجة دراسة واستنتاج، يريد أن يضع المنبهرين بمجلة «المنار» أننا يمكن أن ننشئ منارنا هنا، ويمكن أن يضع الذين يعارضون اتجاهه وتياره بأن ما أعرضه عليكم فيه جدوى، وفيه فائدة من حيث المبنى، ومن حيث المعنى، يعني: من حيث الشكل، وإلا من حيث المضمون.

لكن صراحة نقول: إنني لم أطلع على كل ما كتب، لكن «السعادة العظمى» قرأتها من أولها إلى آخرها، والكثير منها استغلق عليَّ فعلاً، حتى الذين جاؤوا من بعده، وأتيحت لهم ظروف للانفتاح، لم يصلوا إلى مستوى دقة كثير من المقالات تقرؤها في الجرائد في الثلاثينات والأربعينات، لا ترقى أبداً لمستواها. ويبدو لي أن هذه اللغة مطواعة له، يكتب في الشعر، يكتب في الدين، يكتب في الأمور الاجتماعية، في الأخلاق، فمستواه لا ينزل، لا يُسِفّ، هذا يعني: أن فيه الاستعداد الفطري، وفيه اكتساب، الرجل درَس وقرأ... هذا درسٌ لنا ولأبنائنا الشبان: أن الثقافة لا تأتي من صحيفة، ولكن من أمهات الكتب، أن تقضي معها الأوقات. فتقدر أن تقول ما يقول ابن مالك على ابن معطي. حتى ولو الذين جاؤوا بعد الشيخ الخضر حسين نبغوا وكتبوا، ولكنه الرائد له الريادة، فهو أول من أصدر مجلة في شمال إفريقيا، ولذلك ـ كما قال ابن مالك ـ فهو مستحق التفضيلة بهذه الريادة. ولكن حتى الريادة، من طبيعة الأشياء: أن الرائد دائماً يكون عمله فيه نقص،

ولكنه كان في مستوى رفيع جداً وعالي.

وننبه على فكرة: الشيخ الخضر لم يدرس على الشيخ الطاهر بن عاشور، بل درسا معاً، وهما زميلان، وإنما الشيخ ابن باديس تتلمذ على الاثنين.

الدكتور الطالبي: الأسلوب الجديد عنده في الصحافة والكتابة نتحرى فيه أمرين: الأمر الأول: المحسنات اللفظية، والأسلوب اللفظي. والأمر الثاني: المضامين. مضامين جديدة تتناول الحياة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والأخلاقية، والدفاع عن اللغة العربية. هذا شيء مهم، وحرر الصحافة بشمال إفريقيا بهذا الأسلوب، وابن باديس حررها هنا. وأتى بأسلوب جديد يخالف أسلوب القدماء..

المذيع: الدكتور عويمر! كأني بالرجل يتقن الفنون الثلاثة: علم البيان، علم المعاني، وعلم البديع.

الدكتور عويمر: بسم الله الرحمن الرحيم. قضية الصحافة في المشروع الإصلاحي للشيخ محمد الخضر. هو لم يدخل الصحافة كصحافي، هو عالم ومصلح، واستغل هذه الآلة الجديدة التي ابتكرت في الغرب وسيلة يستطيع من خلالها أن يوصل أفكاره إلى شعوب، وإلى أقوام، وإلى المسلمين، لا يستطيع أن يحققها من خلال الكتب، أو من خلال المسجد. هذا الخطاب الذي يحمله يمكن أن يمر عن قناة ووسيلة أنجح.

وعندما يكتب الشيخ الخضر المقالة، يكتب وهو يحافظ على هويته، هويته المثلى، هوية العالم، هوية المفكر، ولا يتقمص شخصية الصحافي. بدليل: أن هذه الصحافة في الحقيقة هي صحافة علمية. هو لم يؤسس جريدة، هو أسس مجلة، المجلة هي علم، هي كتاب. المجلة طابعها أنها تحمل

مقالات ليست مقالات صحفية، ولكن مقالات علمية بشكل مبسط.

الأستاذ مواعدة: المجلة ـ أحياناً ـ كان يكتبها وحده كاملة. العدد الأول يحدد وجهة المجلة وسياستها. فنجده كتب العدد الأول كاملاً فيه مجموعة من الاستطلاعات، هو رجل كان يريد إصلاح المجتمع من خلال نظرته للشريعة. فاستعمل كل الوسائل: المجلة، والجرائد، والمحاضرات، والكتب، واللقاءات. في كل المجالس يتحدث عن الإسلام، والشريعة، وإصلاح المجتمع. حتى اللقاءات الخاصة في البيوت، وإلى آخره.

المذيع: أتحول إليك الدكتور عويمر مرة أخرى. ما لاحظته من خلال أعمال الخضر حسين أنها تنقسم إلى شقين: هناك الجانب الإصلاحي الذي تناول الشريعة، وهناك الجانب اللغوي. وربما حذا في دربه هذا حذو محمد عبده، أليس كذلك؟

الدكتور عويمر: بسم الله الرحمن الرحيم. في الحقيقة أن الشيخ محمد الخضر حسين ابنُ زمانه، لا يمكن أن نفصل أي عالم من زمانه، فليس هناك فاصل بين الاهتمام باللغة، وبين الاهتمام بالإصلاح، فاللغة هي وسيلة.

وكما تفضل الدكتور عمار الطالبي أن هذه اللغة كانت مهددة، لا ننسى أنه في فترة العشرينات والثلاثينات قامت صيحات داخل العالم العربي تنادي إلى القضاء على اللغة العربية، وتعميم ونشر العامية، وفيه جدال وسجال كبير في داخل الأزهر، وفي الساحة الثقافية العربية، وخاصة بعد أن حاول كمال أتاتورك أن يقضي عليها، ويضع اللغة اللاتينية بدل اللغة العثمانية المكتوبة بالحروف العربية.

إذن. فإن مسألة اللغة كانت مطروحة بقوة في العالم العربي، وهي

موضـوع اشـتغل به المصـلحون، اللغـة والهوية والتربية والتاريـخ والقـرآن والتفسير، كل هذه المواضيع دخل منها العلماء والمصلحون في بداية النصف الأول من القرن العشرين للاشتغال بالإصلاح، ومحاولة تغيير هذا المجتمع الإسلامي.

فليس هناك فاصل بالاهتمام باللغة العربية؛ بحيث يهتم باللغة العربية فترة معينة، ثم يشتغل بقضايا اجتماعية وسياسية، ثم يعود إلى اللغة العربية، فلا أرى فاصلاً، وإنما فيه تكامل. هذه النظرة هي نظرة شمولية تكاملية إلى القضايا الأساسية المطروحة على الساحة الفكرية... وهذه هي رسالة المفكر، كلما طرحت قضية شـائكة ومهمة في المجتمع، لا بدَّ أن يتصـدى لها، ويناقشها، ويقدّم تصوره حول هذه المشكلة، خاصة إذا تزاحمت الأفكار، وغلبت الأفكار الخاطئة الأفكار الصحيحة، وكان هذا هو دور الشيخ محمد عبده، ودور الشيخ ابن باديس، ودور الشيخ محمد الخضر حسين.

المذيع: نتحول إلى فضيلة الشيخ الدكتور عمار الطالبي. يبدو من أن الذي يدرس فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، من الوهلة الأولى، يبدو أنه كان حضارياً، أي: بكلمة أخرى: حدثياً؛ أي: بمعنى أنه كان مسايراً إلى ما يحدث في الغرب، وهكذا العلامة محمد الخضر حسين، أليس كذلك؟

الدكتور الطالبي: أعتقد بأن محمد الخضر حسين متأثر بابن خلدون، كما كان ابن باديس أيضاً، ويدرِّسه لطلبته. وابن خلدون رجل واقعي، ويهتم بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وليس رجلاً يحلق في المستوى الخيالي. وهذه الواقعية التي أكسبته هذا المنهج التجريدي التاريخي النقدي.

نجد أن هناك قدراً مشتركاً ـ كما أشار الإخوان ـ: محمد عبده لم

يهتم بإصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية، اهتم بإصلاح اللغة، فرجع، وأصدر قرارات في التعليم بالأزهر، وأدخل «نهج البلاغة» و«شرحه»، كما أدخل العديد من الكتب ـ أيضاً ـ من عبد القادر الجرجاني، ومنها: «مقدمة ابن خلدون»، عرضها على الأزهريين، وبعضهم امتنع من تدريسها. والشيخ له هذا الجانب ـ أيضاً ـ، اهتم باللغة، وبالقياس اللغوي، وبمصادر اللغة. وهو أول من أراد أن يجعل الحديث حجة في اللغة العربية، الحجة في الشعر الجاهلي، وصدر الإسلام، والجماعة الذين رووا عن العرب في البادية، وعن المناطق البعيدة عن التأثر بالرومان والفرس.

وابن خلدون أتى بمنهج جديد في التاريخ، نقد الأخبار، ولم يقبل كثيراً من الروايات التاريخية التي تعتمد على الخرافة، وعلى ما لا حجة فيه ولا سند. وهو يريد أن يعيد المؤرخين إلى الناحية الواقعية، وإلى الأسباب، كما أنه أكد في دراسة الظواهر الاجتماعية، منهج واقعي يقوم على المشاهدة، وليس على التخيل. وفيه شبه بين ابن خلدون والشيخ الخضر: ابن خلدون كان يرحل ويكتب، وهذا الرجل كان يرحل، رحّالة ينتقل في بلاد الله، وكلاهما استقر به المقام في مصر، وانتهى أمره في البلاد المصرية، ودفن هناك.

فهذا المنهج الواقعي الاجتماعي والتربوي لابن خلدون؛ لأن ابن خلدون تحدث عن التربية، وتأثيرها في تكوين الذهنيات العلمية، وأما صاحبنا الشيخ محمد الخضر حسين، فهو متصل بالتربية العلمية في النوادي، ويخاطب الشباب، ويعطيهم التوجيهات، إن في الواقع، وإن في التاريخ، وإن في السلوك الأخلاقي والسلوك اللغوي.

فكان الرجل لا يتكلم عن التربية، وإنما يطبقها. نجد ـ مثلاً ـ: أن محمد عبده تكلم عن التربية، وتغيير المناهج في تونس، وحاول أن يطبق دراسته ومنهجه في الأزهر، إلا أنه فشل إلى حد ما. والشيخ الطاهر بن عاشور كتب «أليس الصبح بقريب» في التربية، نهج منهج محمد عبده، ولكن تفسيره يختلف عن تفسير محمد عبده. ابن عاشور رجل مهندس اللغة، ويأتي بأشياء مبتكرة لا تجدها في القواميس، رجل بحاثة، ويغوص في هذا.

والشيخ محمد الخضر حسين يناقش القدماء، ويناقش المحدثين في مناهجهم اللغوية، وآرائهم اللغوية، كما ناقش طه حسين، وله صولة وجولة في مصر، لا يسمع لمن ينتقده. ولم يخشى الشيخ الخضر القوى التي كانت وراء طه حسين. ولكن دافع بجرأة عن اللغة، وعن الشعر الجاهلي، واعتبره مصدراً من مصادر اللغة العربية يحتج به.

وتجوُّله في أوربا أعطى له بعداً حضارياً، ورأى أشياء لم يعهدها شيوخ الأزهر. ولعل تكلمه اللغة الألمانية ساعده على معرفة ما يكتبه الغربيون. ولذلك نحمد لشيخنا دفاعَه المستميت عن اللغة وصحة متونها وصحة أساليبها، والدفاع ضد كل من يحاول أن (يخربش) فيها.

المذيع: نتحول للدكتور مواعدة. فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين كان قد درس في جامع الزيتونة في عام ١٨٨٩م، وفي ذلك الوقت كان جامع الزيتونة منارة تضاهي جامع الأزهر الشريف؛ أي: بمعنى أن الخضر حسين لما انتقل إلى مصر، كان قد شبع علماً، أليس كذلك؟

الأستاذ مواعدة: ملاحظة أحببت الرجوع إليها. هل كان يعرف ما يدور في الغرب؟ أعتقد أن الشيخ الخضر حسين ومن معه كانوا يواجهون تيارين

متناقضين، والاثنان سلبيان، أحدهما: الغرب الذي كان يشكك في الحضارة العربية الإسلامية واللغة، وله أنصاره، والتيار الآخر: التقليد والانغلاق. هناك تياران متناقضان، وليسا في صالح الأمة العربية الإسلامية؛ لأنه إذا انتصر أحدهما على الآخر - لا سمح الله - لا يمكن لهذه الأمة أن تواصل وتحافظ على هويتها. طبعاً جامع الزيتونة جامع معروف، ولكن الإطار الزيتوني وقتها كان إطاراً تقليدياً، ولذلك نجد الشيخ الخضر حسين اعتبرها قضية جوهرية، ومع علاقته بالطاهر بن عاشور، هما كانا معاً يقودان هذا التيار، وهو تيار للمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني، كان هذا الهاجس هو تطوير التعليم، درس في جامع الزيتونة، ولكنه وجد أن هذا الإطار إذا بقي على هذه الصورة، لا يمكن أن يساهم في التطوير والمحافظة على الهوية، خاصة إزاء هذه الهجومات من جانب الاستعمار الغربي، وما حوله من مثقفين وأنصار، ومن جانب أن الإطار التقليدي ليس قادراً على هذه المواجهة. هنا يأتي دوره في إصلاح النظام التعليمي.

أعطيك مثالاً: وهو ما زال في طور الدراسة، وجه الشيخ الخضر رسالة، قال: لماذا الإنشاء غير موجود في التعليم؟ وأهمية القلم عنده في توجيه الإصلاح أساسية؛ لأن الذي ساعده في الإصلاح هو الإنشاء والتحرير والكتابة الجيدة.

المذيع: نتحول إلى الدكتور نجيب بن خيرة من جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة. ربما حتى لا أقول بأن الرجل كان متصلباً، بل كان متشبثاً بأسلوب فكره، وبهويته، وبدفاعه عن القضية الإسلامية. لذلك زُجَّ به في السجن، أليس كذلك؟

الدكتور بن خيرة: زُجَّ بالعلماء في السجون في أواخر الحكم العثماني في بلاد العالم الإسلامي، وخاصة في مصر والشام، وليس الشيخ محمد الخضر حسين لوحده. كثير من العلماء بقسنطينة عارضوا نماذج رديئة للحكام العثمانيين الأواخر، الذين كانت سياستهم السبب في سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية. وهذا السجن ضريبة يدفعها كل عالم حر، وكل أبيٍّ شهم، عندما يعرض آراءه بقوة، ويريد أن يواجه تيارات التغريب، بل الامتيازات التي كانت تعطى للدول الأجنبية في العالم الإسلامي، هذه الامتيازات التي وقف ضدها العلماء الأحرار؛ لأن هذه الامتيازات الأجنبية هي التي كانت في العالم الإسلامي مطايا ذُلُلاً ركبها الاستعمار، ودخل بها، ووجد الأبواب مشرعة أمامه للدخول إلى بلاد العالم الإسلامي.

لذلك؛ الشيخ محمد الخضر حسين، سواء في بلاد الشام، أو غيرها، ظل صليب الرأي، شامخاً في مواقفه؛ مما جعله يدفع ثمن ذلك بدخوله إلى السجن في بلاد الشام، وهي فترة ليست طويلة جداً، وإنما هي فترة قليلة، بعدها غادر إلى مصر، واستقر به المقام هناك. كانت مصر أكثر حرية من بلاد الشام من ناحية التيارات الفكرية والوطنية والثقافية، والرأي والرأي الآخر.

الدكتور الطالبي: اتهم في الشام بالمؤامرة ضد السلطة التركية، مع أنه ـ في واقعه ـ يريد أن يجمع بين العرب والأتراك، ويتشبث بالخلافة العثمانية، ويدافع عن الجامعة الإسلامية، ولكن هذا خلط للأوراق، واتهم باطلاً.

المذيع: نتحول إليكم الأستاذ محمد الهادي الحسني: بما أنكم إعلامي،

الشيخ محمد الخضر حسين ربما إتقانهُ لثلاث لغات ـ كما بلغني أمس: أنه يتضمن اللغة الألمانية، والتركية، والفرنسية ـ هذا ما مكنه على التفتح على الحضارة الغربية، والإعلام الغربي، وما جعل هذا الرجل يكون متمكناً إعلامياً؟

الأستاذ الحسني: هو هكذا ـ كما أشار الإخوة ـ هو لم يهيئ نفسه ليكون إعلامياً؛ كما أنه لم يقرأ عن الإعلام... القضية في رأيي ليست قراءة فن من الفنون، فالإنسان إخلاصُه، وإيمانه بالقضية التي يدافع عنها، وإخلاصه لها. ولذلك لو غير الشيخ الخضر حسين، ربما يستنكف أن يعترف بأنه ينهج نهجاً خاطئاً. أما الشيخ الخضر، انتقد نفسه عندما حضر درس الشيخ عبد القادر المجاوي في «جوهرة التوحيد» ماذا يقول؟ يقول: نستحسن من دروس هذا الشيخ: اقتصاره في كل فن على تقرير مسائله التي يشملها موضوعه، وعدم خلط بعضها ببعض، وقد كنت ـ عافاكم الله ـ ممن ابتلي درسه باستجلاب المسائل المختلفة الفنون، وأتوكأ على أدنى مناسبة، حتى أفضى الأمر إلى أن لا أتجاوز في الدرس شطر بيت من «ألفية ابن مالك» ـ مثلاً ـ، ثم أدركت أنها طريقة منحرفة المزاج، عقيمة عن الإنتاج، وأقلع عنها.

فالرجل كان بين أمرين: الشيء الذي يهمه، وأعز شيء عنده هو الإسلام، ولغة هذا الإسلام، ويرى أن هذا الشيء العزيز الثمين النفيس يتعاوره خصمان: خصم من الداخل، والآخر من الخارج، وكلا الخصمين ـ حتى الخصم الداخلي ـ مدعوم من الخارج الذي هو ذو بأس شديد. عندما يجد (مارسينيون) إلى جانبه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ويكيد للغة العربية.

لكن الجوهر الذي نستفيده من الشيخ محمد الخضر حسين وأمثاله، هؤلاء الذين بفضلهم ـ والحمد لله ـ الأمة أولاً. زرع رغم ما أحاطه من مصاعب وقوى، وربما لو رأى أحد هذه القوى تناوشه من كل جانب، ربما ييأس ويستسلم. أما هذا الرجل الشيخ الخضر، يواجه علي عبد الرازق، وما أدراك بعائلة ثرية مدعومة؟! ويواجه طه حسين، وهو لا عصبة له. فالشيخ ثقته بنفسه، ثقته بمصير الأمـة قويـة، وبعض الناس وقفوا مع الشيخ؛ لأنهم يعرفون أنه يحاول ويدافع عن مشروع مشترك للأمة كلها.

ولكن النقطة التي نحب أن أشـير إليها: هي السـجن. في هذه الفترة ظهرت نبتة، جرثومة، ميكروب، هي: القومية الطورانية. ولهذا جنح كل الجزائريين الموجودين في المشرق، والذين قرأت عنهم وعرفتهم، نبذوا ضد هذه الفكرة دون أن يمسوا الدولة العثمانية، حاربوا جماعة الطورانيين القومية التركية، لكنهم ـ في الوقت نفسه ـ حافظوا، ودعوا إلى الجامعة الإسلامية، ويتردد أسـماء الشـيخ محمد الخضر حسـين، وصالح الشريف، وغيرهم، حتى الأمير خالد في المؤتمر العربي في عام ١٩١٣م لم يحضر مع الذين حضروا في فرنسا، وبعث برسالة قال: أرجو أن لا يكون هذا المؤتمر ضد الدولة العثمانية، ننتقد تجاوزات المسؤولين الحكام والولاة في الأقاليم، أما أن نضرب الدولة العثمانية، فهذا سيقلب الأمر علينا.

المذيع: نتحـول إلى الدكتور عويمر. ما يلحظـه القارئ ـ في تاريخ تلك الحقبة التي كان قد عاش فيها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين ـ: أنه كان مستنداً للحركات التحررية في المغرب العربي بصورة أخص، فكان قد سـاعد الجهاد في ليبيا، واتصـل بالزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي،

وربما تلقى عبد الكريم الخطابي توجيهات، أو ربما نصائح من قِبَل الشيخ الخضر حسين، وحتى إن الشيخ الخضر كتب كتاباً عن تاريخ الاحتلال في تونس، يبدو لي أن الرجل كان سياسياً ـ أيضاً ـ؟

الدكتور عويمر: نعم، بالنسبة للشيخ محمد الخضر حسين، أنا لا أقول: سياسي، وإنما أقول: المصلح السياسي، أو المفكر السياسي. وهو لم يؤسس حزباً، ولم يدخل الانتخابات، وإنما كان يطرح أفكاراً سياسية، ويدافع عن إصلاح السياسة. وكان أستاذ السياسة الشرعية في جامعة الأزهر عدة سنوات.

واهتمامه بقضايا المغرب العربي، سواء بالاحتلال البريطاني لليبيا، أو بحرب الريف في المغرب، أو مؤتمر أفخارست في تونس، أو الاحتفالات بالذكرى المئوية في الجزائر، والظهير البربري في المغرب عام ١٩٣٠م، كل اهتماماته بهذه القضايا ليست اهتماماً بما تحمله هذه الكلمة من معنى، وإنما السياسة جزء من نشاطه، بمعنى: أنه يقدم تصوراً لهذه القضايا، ويساندها. لا يساندها فقط بخطاب، أو كلام مكتوب في الجرائد أو الكتب، وإنما أيضاً بتأسيس جمعيات. فهو عندما أسس جمعية «الهداية الإسلامية» في القاهرة في جانفي ١٩٢٢م، وأسس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، هذه المؤسسات جعلها منابر لكل الزعماء السياسيين المغاربة، وغيرهم الذين كانوا في مصر، ومن بينهم: الحبيب بورقيبة، الذي عندما دخل مصر اعتُقل للتأكد من جنسيته، فتدخل الشيخ محمد الخضر حسين، وكان عنده وزن لدى السلطة المصرية، فأفرج عنه، وكان يبيت في دار الشيخ حتى هيأ له مكاناً للإقامة.

و ـ أيضاً ـ الشيخ محمد الخضر حسين هو الذي استقبل الزعيم عبد الكريم

الخطابي عندما جاء ماراً بمصر وأرادت فرنسا أن ترجعه من منفاه إلى المغرب، فكثير من الزعماء زاروه في الباخرة، وتعاونوا على تهريبه من الباخرة الفرنسية حتى لا يذهب، ويقع تحت الإقامة الجبرية في المغرب، ومن بينهم كان الشيخ الخضر في استقباله.

وكان الزعيم الخطابي عضواً في (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، ويوجد بيانات ونشريات كلها تحمل إمضاءات الأمير عبد الكريم الخطابي، والحبيب بورقيبة، ومحيي الدين القليبي، والشاذلي المكي، والبشير الإبراهيمي، والفضيل الورتلاني.

فهو دائماً يعتبر النضال من أجل التحرر قضية من القضايا الأساسية في مشروعه الإصلاحي، الإصلاح ليس فقط إصلاح الأفكار، وإصلاح الأنظمة، وإنما كان عنصر التحرر في مشروعه الإصلاحي.

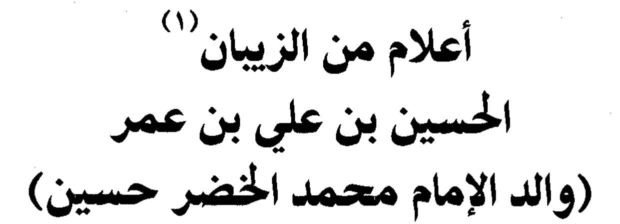
وكان يستعمل منابر أخرى؛ مثل: جمعية (الشبان المسلمين) التي كان العضو المؤسس لها في مارس ١٩٢٧م. وأنا قرأت للدكتور أبي القاسم سعد الله: أنه في جمعية الشبان المسلمين كنا نتدرب على العمل العسكري.

فكان الشيخ الخضر، هذا الرجل كان حقيقة فعالاً في المجتمع، كان يحمل هموم هذه الأمة عبر عمره الطويل، هذا الرجل الموسوعة علمياً، وهذا الرجل الشامل نضالياً.

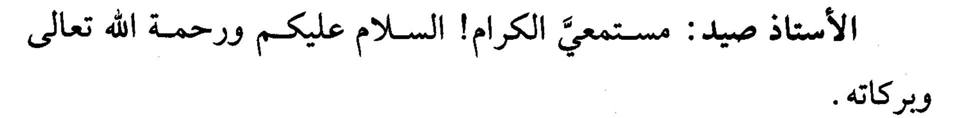
المذيع: أعلن انتهاء الندوة.







أعلام من الزيبان[1]
الحسين بن علي بن عمر
(والد الإمام محمد الخضر حسين)



الأستاذ صيد: مستمعيَّ الكرام! السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

مرحباً بكم في حلقة جديدة من برنامجكم الأسبوعي (أعلام من الزيبان)، هؤلاء الأعلام الذين شرّفوا المنطقة بعملهم وعلمهم، منهم من مكث في الزيبان حتى توفي، ودفن فيها، ومنهم من هاجر إلى دول عربية أخرى، وذلك نظراً لأسباب سياسية واجتماعية.

من هؤلاء الأعلام: رجل عالم، وولي صالح من بلدة «طولقة»، ولد ونشأ وترعرع في هذه البلدة، ثم شاء له القدر الإلهي الهجرة إلى تونس الشقيقة، التي عاش فيها إلى آخر حياته.

هذا العالم ـ مستمعيَّ الأفاضل ـ هو الشيخ العالم الصالح الحسين بن علي بن عمر الطولقي النفطي والتونسي، ولأجل التعرّف عليه، والوقوف على أهم المحطات التاريخية في حياته، استضفتُ حفيدَه الأستاذ الفاضل علي الرضا الحسيني، وهو أديب وشاعر ومؤلف معروف، أصله من «طولقة»،

---

(١) برنامج إذاعي من إعداد وتقديم الأديب الأستاذ عبد الحليم صيد من إذاعة مدينة «بسكرة» جرى على الهواء مباشرة في ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٧م الساعة السابعة مساءً.

وولد سنة ١٩٣٢م في دمشق عاصمة سورية، وما يزال مقيماً بها.

للأستاذ الحسيني العديد من التآليف التاريخية، والروايات الأدبية، والدواوين الشعرية، أذكر منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: «محمد المكي ابن عزوز حياته وشعره» ـ وديوان شعر بعنوان «تونسيات»، كما أن له كتاباً عن الشيخ محمد بن عزوز البرجي، وآخر عن زاوية الشيخ علي بن عمر في «طولقة».

الأستاذ الفاضل علي الرضا الحسيني! مرحباً بك في «بسكرة»، وإذاعة بسكرة.

الأستاذ الحسيني: بسم الله الرحمن الرحيم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. .

الحديث عن هذا الناسك المربي حديث يطول، ولكن سنختصر ما أمكننا الحديث عنه.

هو العالم الزاهد المرَبِّي السالك، شيخ شيوخ الطريقة الخلوتية، والرجل الفاضل الكامل، ولد عام ١٢٤٦ للهجرة في مدينة «طولقة» ما يعادل سنة ١٨٣٠ ميلادية، وتوفي عام (١٣٠٩هـ ـ ١٨٩٣م) في مدينة تونس.

هذا التقي النقي الصالح كان هَمُّه في الحياة أن يدعو الناس إلى الموعظة الحسنة، واشتهر بسعيه لتأليف القلوب بالحسنى، والدعوة إلى الخير، ومساعدة الفقراء، إلى جانب هدفه السامي في نشر الطريقة الخلوتية في القطرين الجزائري والتونسي.

صحيح أنه انتقل إلى «نفطة»، وأقام بتونس، لكن له إقامات ورحلات متعددة إلى الجزائر، ويعرف كل الولايات الجزائرية، ومن الممكن أن نقول:

إن إقامته في الجزائر هي أكثر من إقامته في تونس.

الأستاذ صيد: أي بعد هجرته من الجزائر لم ينقطع عنها؟

الأستاذ الحسيني: يقضي في الجزائر الأشهر الطوال، وهو يدعو إلى الطريقة، ويصلح بين الناس، ويبث العلم والفضيلة. ولد ـ كما قلنا ـ في مدينة «طولقة» بالجنوب الجزائري في بلاد الزاب، والدُه الولي الصالح الصادق الشيخ علي بن عمر صاحب الزاوية المشهورة، وفي رحاب تلك الزاوية ـ التي يتردد فيها ذكر الله ليلاً ونهاراً ـ كانت ولادته، وفيها تعلم القرآن الكريم، وأخذ عن كبار الشيوخ والعلماء، وخاصة علامة عصره الشيخ محمد المدني بن عزوز، أخذ عنه علوم التوحيد، والفقه، واللغة، والأدب. وفي ذاك البيت الطاهر نشأته، وتدرّجه ومعيشته التي يحيط بها الإيمان من كل جانب.

انتقل إلى مدينة «نفطة» عام ١٢٥٩هـ برفقة شيخه مصطفى بن عزوز، واعتنى الشيخ عناية فائقة به، وأسكنه إلى جواره، واعتمد عليه في بناء الزاوية وعمرانها، وأدى فريضة الحج معه، واتخذه صاحباً ومعاوناً ورفيقاً في السفر والإقامة، ومبعوثاً له إلى كافة المريدين والمحبين في أنحاء البلاد، يظهر ذلك ملياً من رسائل الشيخ مصطفى بن عزوز إلى الشيخ الحسين، كان يراسله في أية ولاية جزائرية.

أعطيك فكرة عن هذا الرسائل: من الرسائل المخطوطة للشيخ مصطفى ابن عزوز ـ التي بعث بها إلى أهل «سوف» في الجزائر ـ يتحدث فيها عن أخلاق الشيخ الحسين، ومدى محبته واحترامه له: «الحمد لله. وصلى الله على سيدنا محمد كثيراً كثيراً. من محبكم في الله خديم الخلق مصطفى بن

عزوز مقدّم علي بن عمر إلى كافة أهل المحبة الصافية في وطن «سوف».
عمَّركم الله آمين، وأحسن عافيتكم دنيا وآخرى، وبعد:

بلغنا أن السيد وابنَ سيدنا ذا الرأي الرشيد، والرأي المستقيم، الأجلّ الذّاكر سيدي الحسين بن مولانا الزاهد الصادق بربه، مولانا علي بن عمر بلغكم، وفرح به وطن «سوف» كله، جازاكم الله خيراً، وأحسن إليكم، وأنكم لم تقصّروا جميعاً، وحُقّ لكم ذلك؛ لأنه ولد المصطفى ﷺ أولاً، وثانياً ولد القطبِ الأكبر، والغوثِ الأشهر مولانا علي بن عمر ـ رحمه الله ـ».

هذه أمثولة من الرسائل التي كان يرسلها إلى الشيخ الحسين في أنحاء القطرين.

الأستاذ صيد: طيب، أستاذنا الحسيني! زاوية «نفطة» التي أسسها الشيخ مصطفى بن عزوز، نريد أن نعرف بعض النشاطات التي كانت تقوم بها، على اعتبار أن مؤسسها جزائري.

الأستاذ الحسيني: صحيح. هذه الناحية كانت تحتاج من سنوات إلى التحقيق والتوسع في معرفتها. استطعت من خلال البحث في الوثائق القومية الموجودة في المركز القومي بتونس أن أصل إلى أشياء عجيبة عن هذه الزاوية.

قد يكون من الظاهر: أن غاية هذه الزاوية: الدعوة إلى الدين، وإلى الطريقة، ولكن تبين لي أنها ليست فقط للتعليم، إنما اتخذ التعليم الديني غطاء لما كانت تهدف إليه هذه الزاوية من الأعمال الجهادية للجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، فكانت محطة. تعرف أن المُدافع والمجاهد يحتاج إلى خط خلفي يستريح فيه، ويتهيأ فيه، وأسس هذه الزاوية لهذه الغاية.

حتى إن القنصل الفرنسي في تونس، هناك وثائق أرسلها بخطه إلى وزير خارجية فرنسا في باريس، يقول فيها ويؤكد: أن هذه الزاوية خطر على الوجود الفرنسي في الجزائر، وهناك تقارير أكثر من واحد.

الأستاذ صيد: مما يؤكد كلامكم هذا: أن المؤرخ الكبير في الجزائر الدكتور يحيى بوعزيز ـ رحمه الله ـ ذكر في كتابه «ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين» أن زاوية «نفطة» ـ زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز ـ كانت ملجأ للهاربين والمضطهدين والمطلوبين من الجزائريين الذين هربوا من الاستعمار الفرنسي.

وحتى نربط الكلام بموضوع حلقتنا اليوم، وهو الحسين بن علي بن عمر، فقد كان هذا الشيخ الذراع الأيمن للشيخ مصطفى بن عزوز.

نواصل الحديث عنه: هل أضاف شيئاً جديداً إلى جانب الزاوية، أم لا؟

الأستاذ الحسيني: لديَّ بعض الرسائل التي كان يرسلها له الشيخ مصطفى، وأجد بين السطور أشياء لم يكتبها الشيخ مصطفى، ويفهم عليه الشيخُ الحسين. مثلاً: يقول له في إحدى رسائله: «أرسلنا لك عشرة أحمال من الجمال». ما اشتغل الشيخ مصطفى بالتجارة، ولا الشيخ الحسين غايتُه التجارة، والحمولة غير معروفة، «أرسلت لك مع فلان عشرة أحمال إلى المنطقة الفلانية في الجزائر، أو سبعة أحمال... وهكذا».

أفترض إما أنها سلاح، أو ربما مواد تموينية تعين الثوار المجاهدين..

ثم لا ننسى أن كثيراً من الإخوة الجزائريين درسوا في «نفطة»: الشيخ العربي التبسّي، وعاشور الخنقي، والشيخ العربي كمجاهد وعالم، ومن كبار جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، تربّى في «نفطة».

أما عن أخلاق الشيخ الحسين، فقد قال فيه الشيخ محمد المكي بن عزوز بن الشيخ مصطفى: «كان طلق المحيا، جميل الملتقى، عارفاً بمقتضيات الأحوال، ليّن الجانب، كان ذا فطنة قوية، غيوراً على أهل الله».

أحببت أن أذكر هذه الأوصاف؛ لأخذ صورة عن هذا الرجل الصالح.

«حازماً في أموره، منصفاً، صاحب بلاغة في مراسلاته، ملاطفاً في مخاطباته، مهاباً، معظَّم الجانب، حريصاً على إطفاء الفتن، مثابراً على إزالة الشحناء».

كان من مهمة رجال الدعوة الصالحة الصادقة المعتدلة أنهم يصلحون بين الناس وبين الأعراش، وخاصة في القبائل التي تصل فيها الأحقاد إلى درجة قد يستخدم فيها السلاح والقوة، وكان يتدخل الشيخ الحسين في هذا الخلاف، ويجري الموضوع صلحاً.

الأستاذ صيد: وذلك نظراً لمكانته الاجتماعية.

الأستاذ الحسيني: مثلما يقولون في الشام: إنه «تنطبش برأس كام خاروف» تذبح بعض الخرفان، وتتم الوليمة، فتزول الفتنة بين العشيرتين، وهذا نوع من إصلاح ذات البين، ويُستغنى عن القضاء، وإطالة الأعمال في القضاء.

الأستاذ صيد: إذن، أستاذ الحسيني! هناك زاوية «نفطة»، وأظن أن الشيخ الحسين أنشأ زاوية أخرى، أو مسجداً تقام فيه الصلوات في «نفطة».

الأستاذ الحسيني: بعد وفاة شيخه أحبَّ أن يترك زاوية مصطفى بن عزوز لأبناء الشيخ مصطفى، وهذا كرم أخلاق منه، وحتى لا يكون هناك

شـيء ما، فإن لكل شـيخ من شـيوخ الزاويـة طريقـه في الدعوة، وأسـلوبه الخاص به.

فانتقل إلى مكان آخر مقابل الزاوية، واتخذ له مسجداً، وفي هذا المسجد الذي مازال قائماً حتى الآن في «نفطة» ولد في دار إلى جانبه الشيخُ محمد الخضر حسين، وما زال مدخل الدار نفس الدار والمسجد، وقد زرت هذا المسجد مراراً.

الأستاذ صيد: إذن، كل هـذه الأعمـال التي تحدثنـا عنها تنبئ: أن هـذه الشـخصية العلمية والدينية والاجتماعيـة كانت تتمتـع بهذه الصـفات الجليلة.

(فاصل موسيقي).

الأستاذ صيد: ما زلنا معكم ـ مستمعيَّ الكرام ـ مع شخصية هذه الحلقة، وهو الحسين بن علي بن عمر الطولقي. وبعد أن تعرفنا على جوانبه العلمية، وومضات من حياته الاجتماعية ـ أيضاً ـ، والدور الذي كان يقوم به بالإصلاح بين ذات البين.

أستاذي الكريم الحسيني! ننتقل إلى الجانب العلمي في شخصية هذا الرجـل. لا شـك أنه كان رجـلاً عالماً ومؤلفاً، فما هي الآثـار التي تركهـا وراءه؟

الأستاذ الحسيني: في الواقع لم يترك آثاراً كثيرة؛ لأنه كان منصرفاً إلى التوجيه والإصلاح، إنما ـ حسـب ما وصـل إلينا ـ له رسـالة لطيفة في التصوف، سماها: «فاكهة الحلقوم في نبذة قليلة من أحوال القوم»، رسالة في التصوف، فيها نوع من الهداية.

لكن الشيخ لم يكن له آثار علمية كبيرة كأولاده ـ مثلاً ـ الذين تفرغوا للكتابة. هؤلاء الرجال الصالحون ـ غالباً ـ ما يكتفون بالتوجيه في اللسان. هذه الرسالة طويلة، ولكن أحب أن أقدم بعضاً منها.

الأستاذ صيد: هذه الرسالة أين نشرتها؟

الأستاذ الحسيني: نشرتها في كتاب: «أعلام زاوية مصطفى بن عزوز»، وجعلتـه هو من أحـد الأعـلام. وأغلب أعـلام زاوية مصطفى بن عزوز هم جزائريون، ومن ولادات الجزائر، إلا النادر منهم.

ما كان هناك فرق بين تونس والجزائر، أو بين «نفطة» و«بسكرة»؛ أعني: أن الواحد كان يغادر صباحاً إلى نفطة، ويتغذى، ويعود إلى واد «سوف»، ويتعشى، ويبيت في «طولقة»، أو «بسكرة»؛ لقرب المسافة، وطبيعة وحدة العشائر.

وجدت كثيراً من العائلات في «نفطة» من أصول جزائرية من «بسكرة»، يأتي أحدهم، ويتزوج من بسـكرة، ويعيـش في نفطة، أو العكـس. هناك علاقات وثيقة بين البلدين، وكأنهما مدينة واحدة. وبودّي أن تتم التوءمة بينهما.

الأستاذ صيد: هذه الرسالة كم عدد صفحاتها؟

الأستاذ الحسيني: عدد الصفحات لا تتعدى العشرين، هذه الرسـالة وجدتها ناقصة، ويقول أبو القاسم سعد الله: إنه وجدها كاملة في مخطوطات المغرب.

الأستاذ صيد: ولكن الأستاذ أبا القاسم سعد الله ينسبها إلى الأب، وهو علي بن عمر.

الأستاذ الحسيني: هذا خطأ. ومن المؤكد أنها للشيخ الحسين. من المؤكد للابن، والحكم بيننا قول الشيخ نفسه: «وبعد: فيقول العبد الفقير المضطر، الحسينُ بن علي بن عمر» إذن، هي لسيدنا الحسين. ويقول: «المقصود من كتابة هذه الرسالة: التعريفُ على سبيل الاختصار لمن أراد أن يعرف أحوال السند ورجاله».

تعرف ـ الأستاذ عبد الحليم ـ أن هناك أربع عشرة زاوية حصرتها في تونس، تابعة لزاوية «نفطة». يعني: أن الشيخ مصطفى ما قَصَر عمله على نفطة فقط، إنما انتشرت حتى العاصمة.

حتى إن سيدي الحسين أسس زاوية في العاصمة تونس، وعاش فيها الشيخ، وهاجر من نفطة إلى تونس وأولاده صغار، والشيخ الخضر عمره أربع عشرة سنة.

الأستاذ صيد: لعل هذه الهجرة سببها القرب من جامع الزيتونة.

الأستاذ الحسيني: السيدة حليمة بنت الشيخ مصطفى بن عزوز كانت ترغب أن يدرس أولادها في جامع الزيتونة، وهي السيدة التي أشرفت على تربية أولادها، وتعليمهم من الصغر، وتلقينهم مبادئ علوم الدين واللغة.

هناك طرفة لطيفة من المناسب أن نقولها في هذا اللقاء: إن السيدة حليمة والدةَ الإمام الخضر كانت تُرَبِّت على كتفه وهو صغير، وتقول: إن شاء الله يا أخضر، تكبر وتروح الأزهر. وهي قالت له ذلك عندما كبر، فاستجاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعاء تلك الأم النقية الصالحة. وأصبح الشيخ الطولقي الأصل، المولد نفطة، الدراسة في تونس، ثم انتقل في أنحاء

العالم من دمشق إلى إستنبول إلى برلين، وكان جهاده الكبير فيها، وهذا يحتاج إلى شرح طويل، ثم عاد إلى دمشق، وانتقل إلى القاهرة، وإذ به يصبح شيخاً للأزهر، وهذا دليل على أن الله تعالى يكرم أولياءه في حياتهم، إلى جانب ما هو مكتوب لهم من الجزاء في الآخرة.

الأستاذ صيد: يذكر الأستاذ نويهض في كتابه: أن للشيخ الحسين كتاباً آخر اسمه: «دقائق النكت».

الأستاذ الحسيني: لم أطلع على هذا الكتاب، وإن كان قد سمعت به.

الأستاذ صيد: إن للشيخ الحسين تراجم في كثير من الكتب، له ترجمة في كتاب «معجم المؤلفين»، وغيره، وهذا دليل على أنه علم من الأعلام.

الأستاذ الحسيني: الشيخ الحسين علم من أعلام التصوف في عصره، وهو معروف.

الأستاذ صيد: يعني: أنه جمع بين العلم والتصوف.

الأستاذ الحسيني: أقول: إنه في التصوف أكثر، من أجل أن نكون صادقين في جلستنا.

هو رجل صالح فاضل، تقي نقي، إنما هو في التصوف متعمق، بينما أولاده أحرزوا التقدم البعيد في العلم، والإمام محمد الخضر حسين انتقل إلى دمشق سنة ١٩١٣م مع كافة العائلة، ووضع هدفه أن تكون القاهرة إقامته، وميدان نشاطه العلمي والسياسي، وأن خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز كان قد سبقه في الهجرة إلى إستنبول، ووصل إلى رتبة علمية عالية، كادت أن توصله إلى شيخ الإسلام في تركيا، وكان مدرساً في دار الحديث

التي هي بمثابة جامعة إستنبول اليوم، كما كان مدرساً في جامع (الفاتح)، ومساجد أخرى، وكان مقرباً من السلاطين من ناحية الاستشارات الدينية هو والشيخ إسماعيل الصفايحي، والشيخ صالح الشريف.

الأستاذ صيد: نعود الآن إلى أبناء الشيخ الحسين، من هم الأبناء الذين تركهم؟

الأستاذ الحسيني: منهم: الشيخ محمد الجنيدي، رجل فاضل صالح، وهو مدفون هنا في «طولقة» في زاوية سيدي علي بن عمر، والرجوع إلى الأصل فضيلة إن لم نقل فريضة، وأعتقد أن أغلب الشيوخ الذين هاجروا كانوا يرغبون بالعودة إلى المغرب، وكثير منهم عاد إليه، لكن إذا ارتبط بأسرة خارج المغرب، ولا سيما إذا استولد أولاداً، صار من الصعوبة العودة إلى بلده الأصلي.

ثم من أبناء الشيخ: الإمام محمد الخضر حسين، الذي وصل إلى إمامة الأزهر.

والأخ الآخر هو: الشيخ محمد المكي بن الحسين، عالم اللغة الشهير، وقد أصدرتُ له ثمانية كتب في اللغة من تأليفه، كان ينشر في الصحافة التونسية والمصرية، ولاسيما في مجلة «الهداية الإسلامية».

والشيخ المكي بن الحسين أقام أربع سنوات في دمشق، ودرّس في المعهد السلطاني، وله دراسات في بعض مجلات دمشق، وكلها دراسات لغوية، ولم يكتب بغير اللغة، كانت كل أبحاثه منصرفة إلى اللغة.

لقد زرت مرة تونس، وسألت: أين آثار العم الشيخ المكي بن الحسين؟ فقيل لي: في مدرسة في سيدي البشير، وهو حي من أحياء تونس، وقد ضاقت

الدار عن هذه الأوراق، فأرسلناها إلى المدرسة. وانتقلت إلى المدرسة التي رحب مديرها، ووجدت في إحدى الغرف المهملة أكواماً من الأوراق، بدأ السوس يقرضها، وكلها مخطوطة غير مطبوعة، فنقلتها جميعاً إلى مكان آمن، وأصلحت فيها، وأصدرت له من الكتب: «عادات عربية ـ نوادر في اللغة ـ نوادر في الأدب ـ أسماء لغوية ـ أمثال عربية ـ حكم وأخلاق عربية ـ كلمات للاستعمال ـ لغويات ـ المستدرك»، وكل كتاب يزيد عن مئتي صفحة.

ومن أبنائه ـ أيضاً ـ: محمد العروسي، وعلي بن عمر، وعبد العلي، وله ولدان توفيا صغيرين: العروسي، وعبد اللطيف.

الأستاذ صيد: هذا مجهود كبير تُشكر عليه، وأريد أن أنتقل بك إلى الوالد الكريم، وهو ابن الشيخ الحسين ـ أيضاً ـ الأستاذ زين العابدين ـ رحمه الله ـ.

الأستاذ الحسيني: والله! أنا أخجل أن أتحدث كثيراً عن الوالد، والواقع أنه يحرج الإنسان أن يتحدث عن والده؛ لأنه في الشام قبل شهر دُعيت من قبل هيئة تبحث عن أعلام الرجال، وطلبوا مني أن أعمل محاضرة عن الشيخ الوالد زين العابدين، فقلت لهم: أفضِّل أن تجدوا شخصاً آخر يتحدث عنه؛ لأنني قد أخجل من قول الحقيقة كلها.

الأستاذ صيد: إن الذي أعرفه عن والدكم: أنه مؤلف كبير، ولغوي ونحوي، وله مؤلفات كثيرة، له معاجم في الصرف، وفي النحو، وفي اللغة، وغيرها.

الأستاذ الحسيني: سأقول لك عناوين مؤلفاتهِ: «المعجم المدرسي ـ المعجم في الكلمات القرآنية ـ المعجم في النحو والصرف ـ دروس الوعظ

والإرشاد ـ الدين والقرآن ـ القرآن القانون الإلهي، وغيرها».

وسأترك لك الحكم والقول في الوالد.

الأستاذ صيد: هل قيل في الشيخ الحسين رثاء من بعض الشعراء؟ حبذا لو نسمع شيئاً منه.

الأستاذ الحسيني: رثاه الكثيرون من شعراء تونس، منهم: العلامة الشيخ محمد الصادق المحرزي، والشاعر أحمد الأمين بن عزوز، والشاعر الحسين بن الشيخ، والشاعر أحمد الأديب، وغيرهم.

ولعل أهم المرثيات: مرثية للعلامة محمد المكي بن مصطفى بن عزوز، أسمعك منها بعض الأبيات:

ما ثَمَّ موعظةٌ لكلِّ مُشاهِدِ ... مثل المنيَّةِ وهي أَرْصَدُ راصدِ

وهو اليقين المشبهُ الشكَّ الذي ... عنه تَغافَلْنا كأزهدِ زاهدِ

كمْ من أبٍ وأخٍ ونَجْلٍ منجب ... وأخي ودادٍ من رفاقِ شدائدِ

واراهُمُ المرُّ القسيُّ وراح في ... لهوٍ عن المنبوذِ تحت جلامدِ

يغدو المغفَّلُ باتِّباعِ جنازةٍ ... ويَبيت معتنقاً لصدرِ خرائدِ

يا وَيْحَ مَنْ وافاهُ يومُ حِمامِهِ ... ولقلبه غُلُفٌ كغُلْفِ الراقدِ

والفوزُ للمتأهبينَ على رجا ... مثل الرِّضا الأسنى الحُسَيْنِ الماجدِ

حاوي الفضائلِ من زكا جرثومةً ... من آلِ بيتٍ للمكارمِ شائدِ

جَمُّ الخلالَ الفاخراتِ يَحوطُها ... زينُ التواضعِ من شَكورٍ حامدِ

كم نالَ مضطرٌّ به ما يرتجي ... كم أرشدَ المحتارَ حسنَ مواردِ

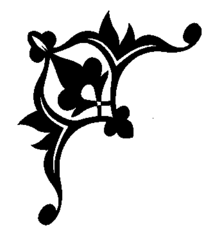
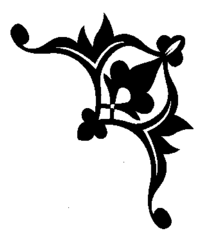
فجزاؤه عدنٌ ومن هو في الورى ... زرعَ الرشادَ يكون أنجحَ حاصدِ

آهٍ علــى تلــك اللطافــةِ والوفــا ... آهٍ علــى الحــزمِ النبيــهِ الــسائدِ
آهٍ علــى مرضــي الأحّبــة أنــسهم ... آهٍ علــى حــامي الــذّمار الزائــدِ
أبَنيــهِ صــبراً والرّضــا عنــد القــضا ... ســبَبٌ لرضــوانِ الإلــهِ الواحــدِ
الخطــبُ خطــبٌ هائــلٌ لا مسّكم ... أَسَــفٌ يَــشُقُّ مــن ارتحــالِ الوالــدِ
سيروا على منهاج أصــلِكُمُ الــذي ... منه سرَتْ في الناس خيْـرُ محامـدِ
لا تُــشغلوا أوقــاتكم بتأسّــفِ ... عمَّنْ ثـوى الفـردوسَ بـين فرائـدِ
ربَّ البريّــةِ كُــنْ لــه فــي رَمْــسهِ ... وابعثْ له بالفـضل بُـشرى الـواردِ
وارْحَمْه رحمــةَ مــن تحــبُّ ورَقِّــهِ ... في ظِلِّ عَرْشٍ يـومَ حـشرٍ حاشـدِ
وأَنِلْــهُ فــي الجنّــاتِ عَيْــشاً ناعمــاً ... بــدلاً عــن الفــاني بــأفخر آبــدِ
فجزيــلُ فــضلِكَ لا يُحــدّ نهايــةً ... لا ســيّما فــي مُرْتجيــكَ الوافــدِ

الأستاذ صيد: في الختام نشكر الأستاذ علي الرضا الحسيني على هذه الإضاءة التي قدمنا فيها عالماً نقياً من «طولقة» في الجزائر، وامتدت آثاره ومعارفه إلى تونس.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



بعض عناوين الصحافة الجزائرية عن الملتقى

* العلامة محمد الخضر حسين يعود إلى بسكرة[1].

* الملتقى الوطني للعلامة محمد الخضر حسين ببسكرة: الجزائري الوحيد الذي تقلد مشيخة الأزهر[2].

* بسكرة تحتفي بأول جزائري نال مشيخة الأزهر[3].

* العلامة محمد الخضر حسين موضوع الملتقى الوطني: «بسكرة عبر التاريخ»[4].

* انطلاق فعاليات الملتقى الوطني السادس «بسكرة عبر التاريخ»[5].

* بحضور عدة مشايخ أزهريين، بسكرة تذكر شيخ الأزهر الجزائري محمد الخضر حسين[6].

---

(١) صحيفة «البلاد»، العدد ٢٤٦٠، تاريخ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٢) صحيفة «البلاد»، العدد ٢٤٦٤، تاريخ ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٣) صحيفة «النصر»، العدد ٢٤٦٤ الصادر تاريخ ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٤) صحيفة «الأحرار»، العدد ٢٩٩٣، تاريخ ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٥) صحيفة «الفجر»، العدد الصادر في ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٦) صحيفة «الشروق»، العدد ٢١٨٠ الصادر في تاريخ ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٧م.

* بمبادرة من الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، انطلاق فعاليات الملتقى الوطني السادس «بسكرة عبر التاريخ»[١].

* شيخ الأزهر محمد الخضر حسين يعود إلى موطنه[٢].

* بسكرة تتذكر شيخ الأزهر محمد الخضر حسين[٣].

* انطلاق ملتقى عن العلامة محمد الخضر حسين[٤].

* اختتام ملتقى شيخ الأزهر محمد الخضر حسين ببسكرة ـ هدد باستنفار الشعب لزلزلة الحكومة ـ وبورقيبة اقترح نقل جثمانه عبر طائرة خاصة[٥].

❐ ❐ ❐

---

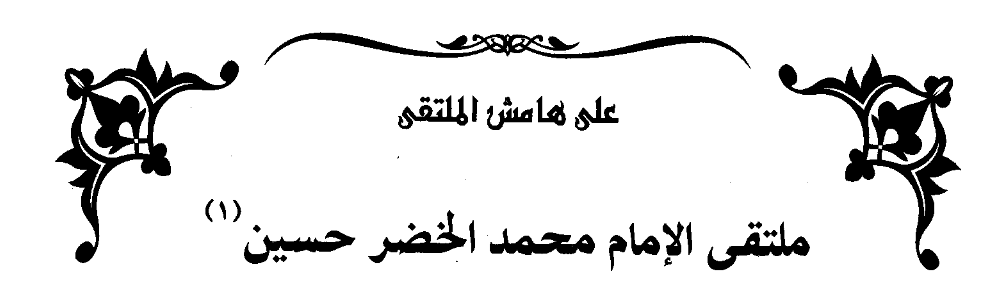
(١) صحيفة «الأيام»، العدد ٦٨٥، الصادر في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٢) صحيفة «الشعب»، العدد ١٤٤٥٦، الصادر في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٣) صحيفة «المساء»، العدد الصادر في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٤) صحيفة «الفجر»، العدد الصادر في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٧ م.

(٥) صحيفة «الشروق»، العدد الصادر في ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧م.



ملتقى الإمام محمد الخضر حسين[1]

للأستاذ محمد الهادي الحسني

كتبتُ في جريدة «الشروق» اليومي في ٢٨/٢/ ٢٠٠٧م مقالاً عرَّفت فيه الشباب بأحد أعلام الجزائر الذين ولدوا خارجها، وعاشوا خارجها، ودفنوا خارجها؛ بسبب اللعنة الفرنسية التي نزلت على هذا الوطن، لم يكن ذلك العَلَم إلا الإمام محمد الخضر حسين، الذي رفعه الله بالإيمان والعِلْم، وبوَّأه علمُه أرفعَ منصب ديني في العالم الإسلامي، وهو مشيخة الأزهر الشريف، من غير رغبة فيها، ولا سعي إليها.

وقد دعوت في ذلك المقال إلى عقد ملتقى عن هذا الإمام؛ بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته ـ رحمه الله ـ، ولم أكتف في الدعوة إلى الملتقى بما كتبت، بل افترصت عدة فرص، التقيت فيها بعض الإخوة المسؤولين على مؤسسات دينية وثقافية، فأعلنت لبعضهم، وأسررت لبعضهم، فأعرض بعضهم، وأعطاني بعضهم من طرف اللسان حلاوة، وألقى معاذيره، ووعدني بعضهم خيراً، وما أظنه موفياً بما وعد، ولعله قال لمن حوله بعدما غادرته:

(١) جريدة «الشروق»، العدد ٢١٨٣، الصادر يوم الخميس (٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧م، الموافق ١٨ ذي الحجة ١٤٢٨هـ)، الجزائر.

ماذا قال آنفاً؟ ومهما يكن، فإنا لوعده لمنتظرون.

وأحمد الله أن صيحتي التي أذّنت بها في «الشروق اليومي» لم تكن صيحة في واد، ولم تكن نفحة في رماد، وَعَتهْا أُذُن خيرٍ واعية، هي: أُذُن (الجمعية الخلدونية) بمدينة «بسكرة» التي لم يثنها قلّة ما بيدها من إمكانات، وما يعترضها من مثبطات من عقد ملتقى دولي عن الإمام محمد الخضر حسين في أيام ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ من هذا الشهر، وقد دعت إليه ثلّة من العلماء ومن الأساتذة من داخل الوطن، ومن خارجه؛ لاستعراض حياة هذا الإمام الغنية، ومناقشة جوانب شخصيته الثرية، فقد علم الله خيراً في هذه الجمعية، فأدّخر لها هذه المزية، وحتى لو وفّى من وعد بما وعد، فهي حائزة بالسبق تفضيلا، مستحقة الثناء الجميلا، ومن لا يشكر الناس، لا يشكر ربَّ الناس؛ كما صحَّ عن أخيَر الناس ﷺ.

لقد استسمَنَتْني هذه الجمعية، فتكرمت بدعوتي للمشاركة في هذا الملتقى، وحَمَّلتني أثقالاً مع أثقالي، فعهدت إليَّ بتناول الكلمة، وحددت لي موضوعاً يقصر عنه باعي، ويضؤل أمامه متاعي، وهو: «الإمام محمد الخضر حسين مصلحاً».

إن احتفاءنا بهذا العالم الجليل وأمثاله، قديماً وحديثاً، والتذكير بجليل أعمالهم، والإشادة بجميل فعالهم، إنما هو للتأكيد على ما قاله الشاعر الفحل محمد العيد آل خليفة، وهو:

إنّ الجزائرَ لم تزلْ في نَسْلها ... أمّاً وَلوداً خصبةَ الأرحامِ

وإنها بلد الرأي الحصيف، لا بلد الرأي السخيف، وبلد الجهاد الشريف، لا بلد العمل العنيف، وبلد الشُّمِّ الأماثل، لا بلد الأراذل، فإن طفا هؤلاء

على حين غفلة من أهلها الكرام، فمثلهم كمثل الزبد الرابي الذي يحتمله السيل، لهم نَشَب(1)، وما لهم نسب ولا حسب، وسيذهب ذلك الزبد جُفاء، وأما الدرّ النفيس الذي ينفع الناس، فهو في الأعماق كامن، وسيجلّيه الله لوقته.

لقد علم الإمام محمد الخضر حسين، وآمن أن الله ـ جلّ وعلا ـ سائلُه يوم يقوم الناس: «ماذا عمل فيما علم؟»، ولذلك ملأ حياته عملاً صالحاً، فما إن تخرج من جامع الزيتونة ـ أتمّ الله نوره ـ حتى راح يبلِّغ ما ورثه من ميراث محمد ﷺ من علم نافع، وحكمة بالغة، وأوتي رشداً، فلم يقعد مع القاعدين، ولم يتخلف مع الخوالف؛ متعللاً بظاهر الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة: ١٠٥]، بل عمل بما فَقِهه منها ثاني اثنين، صِدّيقُ هذه الأمة، الذي رُوي عنه: أنه قال في شأن هذه الآية: أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، يوشك الله ﷻ أن يعمّهم بعقابه» انظر: «تفسير ابن كثير» دار الأندلس (ج٢ ص٦٦٧).

ولهذا كان شعار الإمام محمد الخضر قوله:

ولولا ارتياحي للنِّضالِ عن الهدى　　　لفتَّشتُ عن وادٍ أعيشُ بـه وَحْـدي

لا يتسع المجال لتفصيل القول في آراء الإمام محمد الخضر حسين

---

(1) النّشب: المال والعَقَار.

الإصلاحية التي بسطها، وأبدأ فيها وأعاد، في كتبه ومقالاته الكثيرة، ومنها: «رسائل الإصلاح»، و«الدعوة إلى الإصلاح». ولكني أودُّ التنبيه إلى نقطتين أنا مقتنع بهما: أولاهما: أن الإصلاح لا يَشْنأُ ـ كما يشاع ـ التصوفَ السنّي الخالي من البدع والخرافات والشطحات، وأن التصوف السنّي لا يشنأ الإصلاح.

وقد كان محمد العيد آل خليفة ـ رحمه الله ـ متصوِّفاً أوَّاهاً، وكان في الوقت نفسه أحد عُمُد الإصلاح، الدّاعي إليه، المجادل عنه، حتى شُرِّف بلقب: (حسَّان الحركة الإصلاحية)؛ تشبيهاً له بحسّان بن ثابت ﷺ.

ودليل آخر على أن الإصلاح لا يعادي، ولا يعارض التصوف السنّي: هو هذا الإمام محمد الخضر حسين، الذي ينتسب إلى عائلة صوفية، ونشأ في أجواء التصوف الصافي، لم يجد في صدره حرجاً من اعتناق الإصلاح، والدعوة إليه، ولهذا وجدت رموز الإصلاح في الجزائر، وقادته؛ كالإمامين: ابن باديس، والإبراهيمي، لا يجدان حرجاً ولا تناقضاً عندما يُكْبِران الإمام محمد الخضر حسين، ويشيدان به.

ومما قاله الإمام ابن باديس ـ تعليقاً على مقال للإمام محمد الخضر ـ:

«دعاني إلى كتابة هذا: مقال نفيس نشرته مجلة «الهداية الإسلامية» بقلم أستاذنا العلامة الجليل محمد الخضر بن الحسين الطولقي الجزائري، التونسي، ثم المصري. . . وأحببت أن تكون مقدمتي هذه الصغيرة أمام ذلك المقام الكبير تذكرة لجلوسي لتلقي «تهذيب المنطق» بين يدي الأستاذ بجامع الزيتونة، وسماع دروس من صدر «تفسير البيضاوي» بدار الأستاذ بشارع باب منارة من تونس الخضراء».

ويضيف الإمام ابن باديس قائلاً: «ولا يخفى أن الأستاذ ـ أبقاه الله ـ ابن أخت العلامة الجليل الشيخ المكي بن عزوز ـ رحمه الله ـ، وكلاهما من أبناء الطرقية، ولكن العلم سما بهما إلى بقاع التفكير والهداية والإصلاح. ولكليهما ـ أحسن الله جزاءهما ـ كتاباتٌ في التحذير مما عليه الطرقية اليوم، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح، وإلى القراء الكرام نص مقال الأستاذ ـ أبقاه الله ـ، وهو من ذلك الطراز». (انظر: الشهاب، ج٨، مجلد ١٥، سبتمبر ١٩٣٩م) وهذا آخر مقال كتبه الإمام ابن باديس في الشهاب؛ لأنها توقفت في هذا التاريخ. وقد عثر على هذا المقال في مطبعة الشهاب.

وأما الإمام الإبراهيمي، فقد كتب عن مجالس العلم في دمشق عندما كان مقيماً بها قبل عودته إلى الجزائر في عام ١٩٢٠م، وذكر: «أن واسطة العقد في تلك المجالس: الأستاذ الجليل، والأخ الوفي الشيخُ الأستاذ محمد الخضر حسين ـ مدَّ الله في حياته ـ». (آثار الإمام الإبراهيمي، ج٣، ص٥٦٦. والمقال منشور في ٢٤ جانفي ١٩٤٩م في جريدة البصائر).

ولو رأى الإمامان ابنُ باديس والإبراهيمي في أقوال الإمام محمد الخضر حسين وأفعاله ما يوجب النقد، لما ترددا في ذلك، وهو ما فعلاه مع الإمام محمد الطاهر بن عاشور، على قيمته العلمية، ومكانته الدينية، عندما اعتبر أحد مواقفه مناصرة للبدعة، منابذة للسنّة (انظر: آثار الإمام ابن باديس، ج٣، ص٢٧٠ ـ ٢٨٥. وآثار الإمام الإبراهيمي، ج١، ص٢٢١ ـ ٢٢٦).

أما النقطة الثانية، فهي أن الإصلاح لا يجعل الإسلام عِضين، ولا يراه تفاريق، بل يعتبره شاملاً، فيه العقيدة، والعبادة، والمعاملات، والتربية، والسياسة، والحرب. فالذين ينفون السياسة عن الإسلام يجهلونه أو يَكْفُرونه.

والذين يرون الإصلاح عقيدة وعبادة وتربية فقط، يتجنّون عليه.

وها هو ذا الإمام محمد الخضر حسين الذي لا يرتاب أحد في سعة علمه، وانفتاح ذرعه، يخوض لُجج السياسة، فيكتب عن الحرية، ويتصدى لمن زعم أن الإسلام لا شأن له بالحكم وسياسة أمور الناس، ولا يكتفي في ذلك بالقول والكتابة، ولكنه يضرب بسهمه في تأسيس الجمعيات والهيئات السياسية، ويجري الاتصالات مع الدول، والمؤتمرات والمنظمات السياسية، ويؤمن بالحرب لدفع الظلم، وردّ العدوان، واسترجاع الحقوق المغتصبة، من غير تهوّر بإلقاء الناس إلى التهلكة، وزجِّهم في معركة لم يُعَدَّ لها، ولم تتَّخذ أسبابها.

إن الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين وأمثاله من العلماء المصلحين فكرة ثابتة؛ لأنها لبّ الدين، وغايته، ولكن وسائل الإصلاح تتعدد بتعدد ميادينه، وتتجدد حسب الظروف المحيطة والإمكانات المتوفرة، والكيِّس من فَقِه ذلك، وعمل على ضوء ذلك الفقه.

لقد كان الإمام محمد الخضر حسين يجمع في انسجام تام، وفي تناغم جميل بين الإصلاح، السلفية المتنوِّرة، والتصوف السنّي، وهذا ما يحتاجه المسلمون في كل عصر، وخاصة في هذا العصر.

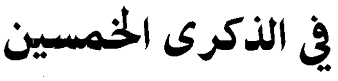
أمطر الله شآبيبَ رحمته على هذا الإمام الجليل، الذي لم يحضر ذكراه أحد من كبار المسؤولين؛ ربما لانشغالهم بالإعداد لـ ... ولعل عدم حضورهم من علامات قبول الله لهذا الصالح، وأمارات رضوانه عنه.



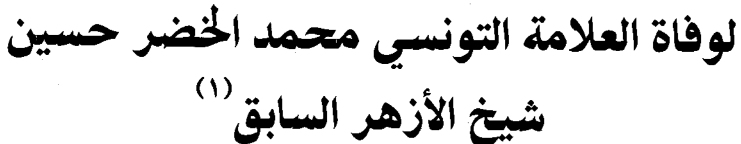




على هامش الملتقى



في الذكرى الخمسين



لوفاة العلامة التونسي محمد الخضر حسين

شيخ الأزهر السابق[1]

الأستاذ محمد مواعدة[2]

مرت خلال الأسبوع الأول من فيفري ٢٠٠٨م، الذكرى الخمسون لوفاة العلاّمة التونسي محمد الخضر حسين شيخِ جامع الأزهر السابق (٢ فيفري ١٩٥٨ ـ فيفري ٢٠٠٨).

وفي هذا الإطار تعتزم (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) بإشراف رئيسها المثقف، والجامعي المتميز الدكتور كمال عمران، تعتزم تنظيمَ ندوة علمية خلال هذه السنة بمشاركة باحثين تونسيين وجزائريين ومشارقة للتعريف بهذه الشخصية العلمية التي تجاوزت الحدود، وبلغت أوج الشهرة والمجد العلمي والثقافي خلال النصف الأول من القرن الماضي.

ولا يحتاج إلى تأكيد أهمية منصب علمي مثل مشيخة جامع الأزهر الشريف، هذه المؤسسة الدينية والعلمية التي كان مجرد الدراسة فيها، والتعلم

---

(١) جريدة «الصباح» التونسية، العدد الصادر في ٢٤ فيفري (شباط) ٢٠٠٨م.

(٢) الأستاذ محمد مواعدة من كبار الباحثين والكتاب التونسيين، له مؤلف مشهور «محمد الخضر حسين حياته وآثاره».

بها يعتبر شهادة امتياز وتقدير.

ومما يستحق الإشادة في هذا المجال: أن الشيخ محمد الخضر حسين لم يطلبها ويعمل من أجلها، بل جاءته هذه الخطّة ساعية إليه من خلال الوفد الوزاري الذي أرسله إليه الرئيس جمال عبد الناصر في سبتمبر ١٩٥٢م بقيادة الوزير الشيخ الباقوري عارضاً عليه تولي هذه الخطة، فاعتذر، فألحَّ عليه، وهو صديقه القديم بما معناه: إن الثورة تهدف إلى بناء مجتمع جديد، وهو أحد جنودها، ولا يمكن له أن يعتذر عن المساهمة في هذا البناء...

فقبل عندئذ تولي مشيخة الأزهر، وبقي يباشرها إلى سنة ١٩٥٤م، ثم استقال منها متعللاً بكبر سنه... لكن السبب الحقيقي كان اختلافه مع مجلس قيادة الثورة في قضايا عديدة، منها: وضع المحاكم الشرعية.

ومما يذكر عنه في هذه المرحلة من حياته: أن اللواء محمد نجيب قد زاره في بيته ـ بحكم العلاقة القائمة بين الرجلين قبل الثورة ـ، ثم طلب منه بعضُ الأصدقاء القيام بزيارة اللواء نجيب في مقر مجلس قيادة الثورة، فكان جوابه: «شيخ الأزهر لا ينتقل إلى مقر السلطة... بل على السلطة أن تنتقل إليه؛ لأنها هي التي تحتاجه».

*** حياته ثرية ونشيطة:**

إن كل من تعرف على هذه الشخصية ـ من خلال البحث والدراسة ـ يتبين غزارة حياتها وثراءها، إذ هو العالم في القضايا الشرعية، وفي اللغة، والأدب، وهو الشاعر، والمحاضر، والرحالة، وكاتب المقالة، والمناضل المغاربي السياسي.

فقد قال عنه أحد علماء الأزهر الكبار ـ الشيخ اللبان ـ عند إلقائه درساً

في «القياس في اللغة العربية»، وهو البحث الذي تأهل به للدخول إلى هيئة كبار العلماء. . . وهي أعلى هيئة علمية بالجامع الأزهر. قال الشيخ اللبان: «هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج؟!».

ونظراً إلى أن هذا العلامة هو كما قال عنه أحد زملائه: «هو رجال في رجل»؛ فإننا في هذه المناسبة ـ الذكرى الخمسين لوفاته ـ سنكتفي بالإشارة بإيجاز إلى بعض الجوانب[1]:

١ ـ جذور هذه الشخصية وأصول عائلته هي أصول جزائرية من بلدة «طولقة» من منطقة الزاب على الحدود التونسية. . . وهي منطقة واحات النخيل المجاورة لمنطقة الجريد بالجنوب التونسي. . . وهو ما يجعل المتجول في إحدى هذه الواحات لا يستطيع التفريق بين هاتين المنطقتين: نخيلاً، بشراً، عادات، أنواع الأطعمة والمأكولات. . . إلخ.

٢ ـ انتقل جده للأم الشيخ مصطفى بن عزوز إلى بلدة «نفطة» خلال النصف الأول من القرن ١٩م، واستقر بها، وبنى بها زاويته الشهيرة القائمة إلى اليوم. . . وانطلاقاً منها قام بنشر الطريقة الرحمانية.

قد أشار الشيخ إبراهيم خريف (والد الأديبين البارزين: مصطفى خريف، والبشير خريف) في كتابه «المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد» ـ (مخطوط) إلى الحظوة الكبيرة، والعناية الفائقة التي استقبل بها علماء «نفطة» ورجالها الشيخ مصطفى بن عزوز.

---

(١) محمد مواعدة: «محمد الخضر حسين: حياته وآثاره»، ط١ ـ تونس ١٩٧٤م، قريباً طبعة جديدة مفصلة في جزأين.

وكان لهذا الشيخ مكانة خاصة ومتميزة لدى العلماء والشيوخ في مختلف أنحاء البلاد التونسية، وكذلك لدى سلطة البايات، وهو ما أهله للقيام بدور فاعل للوساطة بين باي تونس وعلي بن غذاهم، أشار إليها بتفصيل ابن أبي الضياف في ج٥ من كتاب «الإتحاف».

٣ ـ كان ـ أيضاً ـ جد محمد الخضر حسين للأب علي بن عمر من علماء «طولقة» وشيوخها، وله ـ حالياً ـ زاوية باسمه في هذه المدينة، هي من أكبر الزوايا التي زرتها أخيراً بمنطقة الزاب... وبها مكتبة ثرية جداً بالمخطوطات العلمية والأدبية النادرة... ويشرف على شؤونها عالم جليل هو الشيخ عبد القادر عثماني.

٤ ـ إذن كانت العائلة التي ينتسب إليها علامتنا من أعظم العائلات وأعرقها علماً وورعاً... إذ ـ إضافة إلى ما ذكرنا ـ فإن الشيخ محمد بن عزّوز والد الشيخ مصطفى بن عزوز... هو العالم والورع المتصوف المعروف بـ «نور الصحراء»، وزاويته الشهيرة قائمة إلى اليوم.

ومن أبرز أبناء هذه العائلة ـ أيضاً ـ الشيخ المكي ابن عزوز (خال محمد الخضر) الذي كان من علماء جامع الزيتونة، وأحد قضاة مدينة «نفطة»... والذي ارتحل فيما بعد إلى «الآستانة» واستقر بها للتدريس... وكان من أبرز وجهائها إلى أن توفي بها، ودفن هناك.

٥ ـ ولد الشيخ محمد الخضر حسين بمدينة «نفطة» يوم (٢٦ رجب سنة ١٢٩٣هـ/ ٢١ جويلية سنة ١٨٧٣م)، واسمه الأصلي: محمد الأخضر ابن حسين، وقد حدث تحوير في الاسم على مرحلتين:

الأولى: منذ طفولته، عندما أبدل لفظ «الأخضر» بـ «الخضر»؛ تيمناً

بـ «الخضر» الذي رفعه القرآن إلى درجة الأنبياء، ويحظى عند رجال التصوف بمكانة خاصة.

أما التحوير الثاني الذي حدث في صيغة الاسم، فبحذف لفظ «الابن»، وذلك عندما هاجر إلى المشرق العربي، واستقر بـ «دمشق، ثم القاهرة» مسايرةً لأسلوب المشارقة في التسمية؛ مثل: طه حسين...

٦ ـ تلقى تعلمه الابتدائي «بنفطة» على يد خاله الشيخ محمد المكي ابن عزوز، وعلى مؤدبين وشيوخ من أبرز مؤدبي وشيوخ «نفطة» في ذلك العهد.

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة «نفطة» التي كانت تسمى بالكوفة الصغرى (في كتب الرحالة العرب)، ومنطقة الجريد عامة: توزر، دقاش، كانت كلها زاخرة بالعلماء والأدباء والشعراء.

٧ ـ عندما بلغ محمد الخضر سن ١٣ من عمره انتقلت العائلة سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٦م) إلى العاصمة تونس؛ لتمكينه وإخوته من مواصلة الدراسة بجامعة الزيتونة... وكان خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز مدرساً متطوعاً بالجامع الأعظم، وصاحبَ منزلة وتقدير لدى أبرز شيوخ هذه المؤسسة العلمية.

٨ ـ تخرج محمد الخضر حسين من جامع الزيتونة بنجاحه في شهادة التطويع سنة (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، وكان لهذه المرحلة الزيتونية من حياته شديدُ التأثير في مساره العلمي والفكري والأدبي، أشاد به في عديد المناسبات. (انظر كتابه: «تونس وجامع الزيتونة»)، وخاصة انبهاره وتعلقه بشيوخه الكبار:

- الشيخ سالم بو حاجب (ت: ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م).

- الشيخ عمر بن الشيخ (ت: ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

- الشيخ محمد النجار (ت: ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

أشار العلامة محمد الخضر حسين إلى مراحل حياته في مناسبات عديدة، وهي ثلاثة:

- المرحلة التونسية:

وقد امتدت طيلة ٤٠ سنة، من ولادته بمدينة «نفطة» بالجريد سنة ٨٧٣م إلى هجرته النهائية إلى المشرق العربي سنة ١٩١٢م.

وقد قال العلامة محمد الفاضل بن عاشور عن هذه المرحلة التأسيسية لشخصية صاحبنا:

تميزت هذه المرحلة الأولى من حياته التي قضاها بتونس بالتعلم والتثقف، فتكونت شخصيته، ونضجت أفكاره، واشتهر في الأوساط العلمية باعتداله، وهدوء طبعه، وخلوص نيته، وسعة علمه، وبراعة قلمه.

ولئن باشر التدريس بالجامع الأعظم خلال هذه المرحلة، وكذلك بالمعهد الصادقي، وتقلد خطة القضاء بمدينة «بنزرت» تلبية لطلب صديقه الحميم العلامة محمد الطاهر بن عاشور، ثم استقال منها سريعاً؛ لعدم تلاؤم شخصيته وبيئته العائلية والعلمية مع ضوابط الوظائف الرسمية وحدودها، وانشغاله الأساسي بالعلم والأدب والثقافة درساً وتعلماً وتعليماً.

لئن قام بكل ذلك وبغيره خلال هذه المرحلة التونسية، فإننا نعتقد - تأكيداً لما قاله العلامة محمد الفاضل بن عاشور - أن من أهم ما يستحق الإشادة والذكر في هذه المناسبة الخمسينية:

أ ـ بداية بروزه في مجال الدعوة إلى إصلاح المجتمع الإسلامي من خلال المسامرات والمحاضرات والتي من أشهرها:

ـ «الحرية في الإسلام»: التي ألقاها بنادي (جمعية قدماء الصادقية) سنة ١٩٠٦م، ونشرت سنة ١٩٠٩م، ونالت اهتمام جميع الأوساط العلمية والثقافية في ذلك العهد.

ـ «حياة اللغة العربية»: والتي ألقاها بنادي الجمعية نفسها خلال سنة ١٩٠٩م.

ب ـ إصدار مجلة «السعادة العظمى»[١]، والتي هي في نظرنا أهم إنجاز قام بتحقيقه في مرحلته التونسية، والتي قال عنها العلامة محمد الفاضل بن عاشور: «. . . كان ظهورها في معمعة تلك الخلافات كطلوع الحكم العادل، تنزهت به المجادلات عن الفحش، وتطهرت من الهمز واللمز، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصي».

ويقصد شيخنا ابن عاشور بهذا القول: محاولةَ مجلة «السعادة العظمى»، وبالتالي صاحبها الشيخ محمد الخضر حسين التعاملَ بهدوء ورصانة مع الخلاف الذي كان وقتها محتدماً بين الإصلاحيين والمحافظين حول قضايا فكرية ودينية عديدة؛ مما جعل أصحاب التيارين وأنصارهم «المتطرفين» يخاصمون المجلة، وصاحبها، (وهو موضوع يحتاج إلى بحث خاص). . . باستثناء صديقه الوفي العلامة محمد الطاهر بن عاشور. وقد كانت بينهما

---

(١) نجاة الحامي بوملالة: مجلة «السعادة العظمى»، بحث جامعي متميز عن هذه المجلة وظروف صدورها وتوجهاتها الدينية والفكرية.

مودة استمرت طيلة حياتهما. . . هذه المودة التي تبرز في الرسائل التي كان يوجهها إمام الجامع الأزهر إلى إمام الجامع الأعظم جامعِ الزيتونة. . .

وأغتنمُ هذه المناسبة؛ لأشير إلى أن هذه المودة والوفاء والتقدير قد لمستها شخصياً خلال إعداد كتابي عن الخضر حسين والجلسات العديدة التي خصصها لي المرحوم العلامة محمد الطاهر بن عاشور ببيت ابن عاشور العامر بالمَرْسى. . . وتمكيني من معلومات وتدقيقات علمية وتاريخية نادرة لم تكن متوفرة لغيره من العلماء والشيوخ والمؤرخين. . . فله منا ـ رحمه الله ـ كامل الثناء والتقدير، ولهذه العائلة ـ آل ابن عاشور ـ التي مكنت تونس والعالم الإسلامي ـ وما زالت ـ من خيرة العلماء والباحثين في عديد المجالات العلمية والثقافية والفكرية والقانونية. . . إلخ.

ج ـ العناية البارزة بمجال الإصلاح الديني والاجتماعي والتربوي:

وقد تجلى ذلك بالدعوة إلى الإصلاح من خلال المحاضرات والمسامرات والمقالات. . .

أما في الميدان التربوي، فقد كان منشغلاً بإصلاح التعليم الزيتوني منذ حياته الطالبية. . . وبعد تخرجه من الجامع الأعظم كان من بين شيوخ الزيتونة وعلمائها العاملين على تطوير التعليم مضموناً وأسلوباً ومنهجاً.

وفي هذا الإطار شارك في تكوين جمعية (تلاميذ جامع الزيتونة) سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، إضافة إلى نخبة من العلماء، في مقدمتهم: العلامة محمد الطاهر بن عاشور. . . وخلال سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) انحلت هذه الجمعية وتكونت جمعية جديدة باسم (الجمعية الزيتونية)، تولى رئاستها الشيخ ابن عاشور، وعضويتها العلماء: الطاهر النيفر، محمد رضوان، محمد النخلي،

محمد الخضر حسين، أبو حسن النجار. . .

وفي هذا الإطار الإصلاحي التربوي يتنزل كتاب (أليس الصبح بقريب) لشيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور.

ـ المرحلة السورية:

وهي المرحلة الثانية من حياة العلامة محمد الخضر حسين، والتي امتدت طيلة ٨ سنوات، من سنة (١٩١٢م إلى سنة ١٩٢٠م).

وقد كانت ـ حسب تعبير العلامة محمد الفاضل بن عاشور ـ مرحلة التنقل والترحال والاكتشاف. . . والنضال السياسي.

وتجدر الإشارة ـ في هذا الإطار ـ إلى أن أسباباً عديدة دفعت بالشيخ الخضر حسين إلى الهجرة إلى المشرق العربي، منها: انتقال عائلته إلى دمشق، والاستقرار بها سنة ١٩١١م، وهي حالياً من أشهر العائلات علماً وورعاً وقيمة ثقافية، وفي مقدمة هذه الأسرة التونسية السورية: الأستاذ الكبير والمحامي المتميز والأخ العزيز علي الرضا الحسيني التونسي، الذي سخّر جهوده العلمية والمعرفية، وكل إمكانياته المادية لتحقيق وجمع ونشر آثار عمه العلامة الخضر حسين، وكذلك آثار والده الشيخ زين العابدين بن الحسين، وأعمال آل عزّوز، والحسين، وهي الجهود التي من أجلها قلّده الرئيس زين العابدين ابن علي وساماً ثقافياً متميزاً، ومن أجلها استحق كامل التقدير من أبرز الجامعيين والمثقفين العرب والمسلمين المعنيين بتراث هذه الأمة، وبرجالها الأجلاء مثل: علامتنا محمد الخضر حسين.

قد كانت هذه المرحلة السورية مليئة بالنشاط العلمي والثقافي، والتنقل والترحال، وبالخصوص بالنضال السياسي.

ونظراً إلى ضيق المجال، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى أبرز ما تميزت به هذه المرحلة:

١ ـ منذ حلوله بالعاصمة السورية دمشق، واستقراره عند إخوته وعائلته، واصلَ نشاطه العلمي والثقافي بالتدريس بالمدرسة (السلطانية)، وهي من أبرز المعاهد العلمية، ومن أشهر من درّس بها الإمام محمد عبده.

كما واصل إلقاء المحاضرات في الجامع الأموي، وكتابة المقالات بالصحف السورية.

ومن الجدير بالذكر: أن قدومه إلى الشام وجد حظوة كبيرة لدى العلماء والمثقفين السوريين.

٢ ـ كان من أبرز الداعين إلى تمتين الروابط بين العرب والأتراك في إطار الأمة الإسلامية، وسخّر جهده الإعلامي والثقافي في هذا الإطار، وهو ما عبر عنه في قصيدته الشهيرة: «بكاء على مجد ضائع».

٣ ـ كان حاكم سورية في تلك المرحلة التركي جمال باشا المعروف بتعسفه وجبروته، وقد أدخل العديد من العلماء والمفكرين السجن، منهم: الشيخ الخضر حسين.

وعند إطلاق سراحه ـ بعد ثبوت براءته ـ عاد إلى التدريس والمحاضرات العلمية والثقافية.

٤ ـ سافر إلى عاصمة الخلافة العثمانية الآستانة؛ حيث عمل منشئاً عربياً بوزارة الحربية.

٥ ـ كان استقرار خاله وأستاذه الشيخ محمد المكي بن عزوز بالآستانة، والمكانة التي كان يتمتع بها لدى الباب العالي، ولدى أبرز العلماء والساسة

بعاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ، كل ذلك ساعد الخضر حسين على حصوله على ثقة الباب العالي؛ مما جعل السلطة التركية تعهد له مهمة في ألمانيا التي كانت في الحرب العالمية الأولى حليفة لتركيا ضد فرنسا.

٦ ـ سافر الخضر حسين إلى ألمانيا، واستقر ببرلين صحبةَ عدد من العلماء المسلمين، منهم: الشيخان: صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي. وكان الهدف من هذه البعثة العلمية: تحقيق رغبة السلطة العثمانية في تكوين تنظيمات ثورية شعبية من المغاربة المقيمين بألمانيا ضد الاستعمار الفرنسي في بلدان شمال إفريقيا.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى صلة الشيخ الخضر حسين بالأخوين المناضلين: محمد، وعلي باش حامبة، واتفاقهم مع بقية المغاربة المقيمين وقتها بالآستانة وبرلين على ضرورة الدفاع عن الخلافة الإسلامية، ومجابهة الاستعمار الفرنسي.

وفي هذا الإطار يندرج تكوين (اللجنة التونسية الجزائرية) التي وجهت إلى مؤتمر الصلح المنعقد بباريس سنة ١٩١٧م تقريراً مفصلاً تحت عنوان: (مطالب الشعب الجزائري التونسي)، وبإمضاء مجموعة من المناضلين المغاربيين، منهم: محمد باش حامبة، محمد الخضر حسين، صالح الشريف...

٧ ـ عندما سقطت تركيا في أيدي الحلفاء، عاد الشيخ الخضر صحبة عدد من زعماء الحركة الإسلامية من ألمانيا إلى الآستانة، ومنها إلى دمشق. وقد أثر هذا الحدث في نفسه التأثير البالغ؛ لما كان يعلقه من آمال عريضة على الباب العالي في مساعدة القضايا الوطنية التحريرية بالعالم العربي، وخاصة بشمال إفريقيا، وكذلك لما كان يؤمن به من ضرورة تدعيم الخلافة

الإسلامية وتقويتها؛ لما في ذلك من دعم للدين الإسلامي، وتقوية له.

٨ ـ عند عودته إلى دمشق واصلَ نشاطه العلمي والثقافي والإعلامي، كما وقع تعيينه عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشـق، الذي عقد جلسته الأولى يوم ٣٠ جويلية ١٩١٩م. وبقي عضواً عاملاً بهذا المجمع مدة إقامته بالعاصمة السورية، ثم أصبح عضواً مراسلاً عند انتقاله إلى القاهرة، واستقراره بها سنة ١٩٢٠م.

٩ ـ عند احتلال الجيـش الفرنسـي لسـورية إثر معركة ميسـلون يوم ٢٤ جويلية ١٩٢٠م، أصبحت إقامة الخضر حسين بدمشق معرضة للخطر، وهو المتابَع من السلطات الفرنسية من تونس، ثم لنشاطه السياسي بالآستانة وبرلين. ولذلك برغم حنينه إلى وطنه تونـس، فقد قرر الانتقال إلى مصر، والاستقرار بها. فقد كانت القاهرة مقر الجامع الأزهر، وكعبة العلماء والباحثين، ولذلك قـال في مقدمـة كتابـه «نقض كتـاب الإسـلام وأصـول الحكـم»: «وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وأخذت البلاد العربية والتركية هيئة غير هيئاتها، هبطت مصر، فلقيت على ضفاف وادي النيل علماً زاخراً، وأدباً جماً».

ـ المرحلة المصرية:

هذه المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة العلامة محمد الخضر حسين امتدت طيلة ٣٧ سنة، من سنة ١٩٢٠م إلى وفاته سنة ١٩٥٨م. وهي المرحلة التي أطلق عليها الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بمناسبة أربعينية الشيخ الخضر في مارس ١٩٥٨م: «مرحلة المجد الثقافي والشهرة العلمية».

ولذلك كانت من أغزر مراحـل حياته إنتاجـاً علمياً وثقافياً وإعلامياً،

وأبرزها مكانة وشهرة وفاعلية. وبرغم هذه الأهمية، فإننا نكتفي بالإشارة إلى ما يلي:

١ ـ تنقسم هذه المرحلة بدورها إلى ثلاث فترات:

أ ـ ما قبل توليه مشيخة الأزهر (١٩٢٠م ـ ١٩٥٢م).

ب ـ مدة توليه مشيخة الأزهر (١٩٥٢م ـ ١٩٥٤م).

ج ـ بعد استقالته من الأزهر إلى وفاته (١٩٥٤م ـ ١٩٥٨م).

٢ ـ مما يستحق الذكر في أيامه الأولى بالقاهرة هو: اعتماده على نفسه، وهو الوحيد البعيد عن الأهل والأقارب والأصدقاء، وتحمله لشتى الأتعاب والمشاق... فقد كان ذا شخصية قوية، وأنفة وكبرياء، وشعور بعزة النفس... ولا غرابة، وهو سليل عائلة علم وورع، وتجرَّد لخدمة الإسلام وقيمه وأهدافه الإنسانية.

وقد اختار شعاراً لحياته:

ولَوْلا ارتياحي للنِّضالِ عنِ الهُدى ‏ ‏ ‏ ‏ لفتَّشتُ عن وادٍ أعيشُ به وحدي

ومن المعلوم بداهة: أن الذين يختارون طريق النضال من أجل أهداف وطنية وإنسانية عالية، ويسخّرون حياتهم ووجودهم كله لتحقيق هذا المطمح النبيل، هؤلاء يكونون دائماً عن وعي عميق بما يستحقه ذلك من تضحيات، وما يطرحه من استعداد لتحمل التبعات، مهما كانت شاقة وقاسية.

٣ ـ منذ أيامه الأولى بالقاهرة قام بالاتصال بالطلبة المغاربة بالجامع الأزهر، ورُواقُ المغاربة بهذه المؤسسة العلمية ما زالت آثاره بارزة إلى اليوم، برغم زوال الرواق نفسه، وبقية الأروقة الأخرى. كما تمكن من الحصول على خطة مصحّح ومراجع النصوص بدار الكتب المصرية بتدخل من صديقه

الحميم الذي بقي يُكِنُّ له كامل التقدير والاعتراف بالجميل إلى آخر حياته، وهو العلامة أحمد تيمور.

وهذا الاعتراف هو الذي جعل الشيخ محمد الخضر حسين يوصي بدفنه في مقبرة آل تيمور بالقاهرة بجانب صديقه الوفي. وقد زرتُ شخصياً هذه المقبرة خلال زيارتي الأخيرة للقاهرة في جانفي الماضي ٢٠٠٨م، حيث لاحظت قبر المرحوم علامتنا ضمن المبنى المخصص للعائلة، بل وفي مقدمة قبور أسرة تيمور، وبمبنى ضخم مكتوب عليه العديد من الآيات القرآنية، وفي أعلاه لوحة رخامية تُشيد بصاحب القبر، وبقيمته العلمية، وخاصة مشيخة الأزهر.

٤ ـ خلال السنوات الأولى من هذه المرحلة ساهم في تأسيس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية) التي تألفت من عدة شخصيات مغاربية؛ من تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا، وقد تحمل مسؤولية رئاستها. وكان هدفها: الرفع من مستوى هذه الجاليات مادياً واجتماعياً وثقافياً.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى: أن اهتمام الشيخ الخضر حسين بالمغرب العربي وقضاياه قد استمر طيلة حياته، ومساعدته للزعماء المغاربة ولعلمائه تواصلت إلى آخر أيام حياته.

٥ ـ كانت له مساهمات هامة وفاعلة في المناظرات، بل الصراعات الفكرية والدينية والأدبية خلال هذه المرحلة المصرية، وأبرز هذه المساهمات:

أ ـ تأليفه كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، الصادر في أفريل ١٩٢٥م، إثر صدور قرار إلغاء الخلافة في مارس ١٩٢٤م.

وقد كان لنقض الخضر حسين الصدى الكبير في الأوساط الإسلامية، وخاصة في مصر. ونال حظوة متميزة لدى الملك فؤاد ملك مصر. وقد كان حاكم مصر يسعى إلى اغتنام الفرصة لتحل القاهرة محل الآستانة عاصمة للأمة الإسلامية.

ب ـ تأليفه كتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، الصادر سنة ١٩٢٦م.

وقد نال هذا الكتاب ـ أيضاً ـ شهرة كبيرة، وخاصة لدى علماء الأزهر، ورجال الدين عموماً.

وقد قال العلامة محمد الفاضل بن عاشور عن هذا الكتاب: إن الدكتور طه حسين يعتبر كتاب الشيخ محمد الخضر حسين من أهم الردود، وأشدها حجّة.

٦ ـ إن المتابع لنشاط الشيخ محمد الخضر حسين ـ طيلة حياته الزاخرة بالأعمال الجليلة ـ يلاحظ مدى اهتمامه بتكوين الجمعيات في مختلف مجالات الإصلاح الديني والاجتماعي والتربوي والسياسي.

وفي هذا الإطار نراه يقوم بتأسيس «جمعية الهداية الإسلامية» بتاريخ ٦ جانفي ١٩٢٨م، وذلك صحبة نخبة من أبرز، العلماء، منهم: الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر، والشيخ عبد الحليم النجار.

لم تكتف هذه الجمعية بتنظيم المحاضرات والمسامرات، وتكوين الفروع داخل مصر وخارجها. بل قامت بإصدار مجلة «الهداية الإسلامية» الشهرية، وذلك منذ أكتوبر ١٩٢٨م.

ومن الملاحظ: أن هذه المجلة تنشر أخباراً عن تونس، كما تقوم بالتعريف

بأبرز الشخصيات العلمية؛ مثل: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتنشر ـ أيضاً ـ بحوثاً ومقالات لعلماء تونسيين، أمثال: الشيخ ابن عاشور، والشيخ محمد النيفر، وكان من مراسليها الشيخ محمد المكي بن الحسين.

وقد نالت هذه المجلة حظوة خاصة لدى علماء الإسلام مغرباً ومشرقاً، نذكر منهم: الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» الذي حثّ المسلمين على قراءتها... ومما قاله عن الشيخ الخضر حسين: «هو صديقنا الأستاذ التونسي الزيتوني الأزهري، العالم الفاضل، الكاتب الخطيب المتفنن» (مجلة «المنار» م ٢٩، ج٩، ص٧٢٠).

... هذا برغم أن العلاقة بين العالمين الخضر حسين، ورشيد رضا لم تبق على هذا الود؛ إذ انقلبت إلى خصومة فكرية وشخصية لاذعة، بدأها صاحب «المنار»، ولم يتجاوزها صاحب «السعادة العظمى» و«الهداية الإسلامية»، وهذه قضية تحتاج وحدها إلى مقال تحليلي ليس هذا مجاله.

٧ ـ إن تواصل نشاط الخضر حسين، وكثافة هذا النشاط العلمي والثقافي والإعلامي أكد حضوره البارز والمتميز في المجتمع المصري، وخاصة لدى علماء الأزهر.

ولذلك وقع انتدابه للتدريس في قسم التخصص بهذه المؤسسة العلمية سنة ١٩٢٧م بصورة مؤقتة، ثم بصورة رسمية سنة ١٩٢٨م عندما أصبح صديقه الشيخ المراغي شيخاً للأزهر.

وفي هذه المرحلة من حياته العلمية، أصدر الأزهر مجلة «نور الإسلام» (محرم ١٣٤٩هـ/ جوان ١٩٣٠م)، التي تولى الشيخ الخضر رئاسة تحريرها.

٨ ـ تأسيس «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة بمرسوم ملكي أصدره الملك

فؤاد الأول في ١٤ شعبان سنة (١٣٥١هـ/ ١٣ ديسمبر ١٩٣٢م).

ثم صدر مرسوم ثان تَمَّ بموجبه تعيين الأعضاء العاملين بالمجمع، وهم من أبرز العلماء والمستشرقين، منهم:

«الشيخ محمد الخضر حسين، الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، والمستشرقون: هملتون جيب، ونالينو مارسينيون. . .

وقد ترأس الشيخ محمد الخضر لجنة اللهجات، وشارك في أعمال عدة لجان علمية، وألقى عديد البحوث نشرت بمجلة المجمع؛ كما مَثَّل هذه المؤسسة اللغوية في مؤتمرات دولية عديدة.

٩ ـ أصبح الشيخ محمد الخضر عضواً بهيئة كبار العلماء سنة ١٩٥٠م إثر تقديمه بحث «القياس في اللغة العربية»، وهي أكبر هيئة علمية في مصر.

وخلال مناقشة اللجنة لصاحب البحث، قال الشيخ اللبّان رئيس اللجنة عبارتَه المشهورة التي ما زال شيوخ الأزهر يرددونها إلى اليوم، وقد سمعتها منهم شخصياً خلال زيارتي الأخيرة إلى الجامع، واستقبالي من طرفهم بتقدير لن أنساه. وقد شاركت بالمناسبة في نقاش علمي بكلية اللغة العربية يوم ١٦ جانفي ٢٠٠٨م.

أما عبارة الشيخ اللبّان، والتي أشرتُ إليها في بداية هذا المقال، فهي: «هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج؟!».

١٠ ـ تولى خطة شيخ الجامع الأزهر ـ كما أشرت إلى ذلك في بداية المقال ـ في سبتمبر ١٩٥٢م. هذا وقد تحصل على الجنسية المصرية خلال سنة ١٩٣٢م حتى يتمكن من تحمل مسؤوليات في مؤسسات وهيئات علمية مصرية مثل هذه الخطة.

وقدم استقالته من مشيخة الأزهر في جانفي ١٩٥٤م لكبر سنه؛ إذ تجاوز الثمانين من العمر، ولتدهور حالته الصحية، ولخلافات عديدة بينه وبين مجلس قيادة الثورة، وهو العالم الجليل صاحب الشهرة الكبيرة، والشخصية القوية، والكبرياء والأنفة، والذي لا يخشى في قول الحق لومة لائم، ولو كان سلطاناً متسلطاً.

ومما يذكر عنه في أثناء توليه مشيخة الأزهر قوله: «إن الأزهر أمانة في عنقي، أُسلِّمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذ لم يتأتَّ أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل له نقص»، وكان كثيراً ما يردد: «يكفيني كوب لبن، وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدها العفاء».

١١ ـ واصل بعد الأزهر نشاطه في (المجمع اللغوي)، وفي (هيئة كبار العلماء)، وكتابة المقالات والبحوث الدينية في بعض المجلات؛ مثل: «لواء الإسلام» التي صدر له فيها آخر مقال. وقد وافته المنية، ورجعت نفسُه إلى ربها راضية مرضية بعد ظهر يوم الأحد (١٣ رجب سنة ١٣٧٧هـ، فيفري ١٩٥٨م).

وقد نعاه العلامة محمد علي النجار بكلمة تأبينية، مما جاء فيها:

«. . . إن الشيخ اجتمعت فيه من الفضائل ما لم تجتمع في غيره إلا في الندرى؛ فقد كان عالماً ضليعاً بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤونهم، حفيظاً على العروبة والدين، يردّ ما يوجه إليهما، وما يصدر من الأفكار منابذاً لهما، قوي الحجّة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم. . .» (محاضر جلسات مجمع اللغة العربية، ج٢١، القاهرة).

لقد فارق عالمنا هذا إلى العالم الآخر، وقد تـرك من جليـل الأعمال والآثار الشيء الكثير الكثير؛ مما أغنى المكتبة العربية والإسلامية، وبالتالي حضارة هذه الأمة بكنوز لا تفنى، وموارد لا تنضب.

حرصنا في هذه المناسـبة ـ الذكرى الخمسـون لوفاة العلامة محمد الخضـر حسـين ـ على التعريف بإيجاز شـديد بهذه الشـخصية التي نشـأت على أرض تونس ـ بنفطة ـ وواصلت حياتها بثبات ومثابرة جعلتها تبلغ أعلى الدرجات العلمية في مجالات عديدة، في مغارب العالم العربي والإسلامي ومشارقه.

على أن هنالك جوانبَ عديدة تستحق الإشارة والتحليل إزاء هذه الشخصية، وخاصة منها الجوانب التي حولها خلاف بين الباحثين، منها: جنسيته، علاقته بالزعيم الحبيب بورقيبة، وموقفه من الإصلاح الاجتماعي والديني والسياسي، نضاله السياسي. . . إلخ.

لكن المجال لا يسمح بذلك، وفي الوقت نفسه نرى لزاماً علينا للأمانة والتاريخ ضرورة الإشارة إلى بعضها على الأقل، وبإيجاز شديد، وتوضيح القليل مما يشوبها من غموض.

*** الخضر حسين والزعيم بورقيبة:**

مرت العلاقة بين الزعيم التاريخي الحبيب بورقيبة والعلامة الزيتوني الأزهري محمد الخضر حسين بحالات مد وجزر، تعود أسبابها إلى عوامل عديدة لا يسـمح المجال بتعدادهـا وتحليلها، لذلك سـنكتفي بالإشارة إلى ما يلي:

تناول بورقيبة شـخصية الخضر حسين بالحديث في مناسبات عديدة

ومختلفة، أحياناً بالاحترام والتقدير، وأحياناً أخرى بالتنقيص والاحتقار ـ مع الأسف ـ.

والمهم في هذا الإطار: أن أول مناسبة جمعت بين الرجلين كانت زيارة بورقيبة إلى المشرق، وتوقفه بمنطقة السلُّوم على الحدود الليبية المصرية، وعدم تمكنه من دخول الأراضي المصرية؛ لجهل حرس الحدود المصريين بالزعيم الوطني التونسي في تلك الفترة، وإشارته لهم بمعرفته بالشيخ التونسي الخضر حسين، ونظراً إلى العلاقة المتينة التي كانت تربط وقتئذ وزير الداخلية المصري وبين الخضر حسين، وضمان علامتنا في زعيمنا الوطني، ومساندته له، تمكن بورقيبة من دخول مصر، والاتجاه إلى بيت الخضر حسين.

وخلال زيارتي إلى القاهرة (جانفي ٢٠٠٨م) أكَّدت لي شخصياً زوجةُ الخضر حسين الأخيرة: أنهما استقبلوا الزعيم بورقيبة في بيتهم ليلاً، وبقي معهم عدة أيام إلى أن أوجدوا له مقراً للإقامة، كما أكدت لي: أن الشيخ الخضر كان شديد الاحترام والتقدير للزعيم الوطني والمناضل الكبير الحبيب بورقيبة.

لكن هذا التقدير المتبادل لم يستمر على هذه الحال، ونترك التفاصيل التاريخية والدينية إلى الفصل الذي سنخصصه لهذه القضية في الطبعة الجديدة القادمة لكتابنا عن الخضر حسين.

ومن بين هذه التفاصيل: ما دار في اللقاء الذي دعانا إليه الزعيم بورقيبة إثر صدور كتابنا المذكور سنة ١٩٧٤م، والذي حضره نخبة من الجامعيين التونسيين، نذكر منهم: أساتذتنا وأصدقاءنا الأفاضل: المنجي الشملي، وعبد القادر المهيري، وجعفر ماجد. . . إلخ، إضافة إلى السيدين المحترمين:

الشاذلي القليبي، ومحمد الصياح.

على أن ما يمكن الإشارة إليه بإيجاز شديد جداً في هذه المناسبة هو: أن ما سمعناه مباشرة من الزعيم بورقيبة عن الإسلام وشيوخه، والخضر حسين أحدهم، وهو موضوع اللقاء، يساهم إلى حد كبير في توضيح الكثير من الجوانب؛ مما يجعل ما نقرؤه حالياً من تحاليل وكتابات عن بورقيبة والإسلام يحتاج إلى كثير من التصحيح والتدقيق... وهذه قضية أخرى قد نعود إليها في مناسبة لاحقة.

وعودة إلى العلاقة بين بورقيبة والخضر حسين: فبرغم تأرجح موقف الزعيم من العلامة الزيتوني الأزهري بين التقدير والاحترام والإشادة حيناً، ومحاولة الاستنقاص حيناً آخر، فإن بورقيبة لم يتردد بمجرد علمه بوفاة الخضر حسين من تكليف سفير تونس بالقاهرة السيد الطيب السحباني وقتئذ من السعي إلى نقل رفات المرحوم لدفنها بتونس، لكن وصية الخضر حسين بدفنه بجانب صديقه الحميم أحمد تيمور بمقبرة التيمورية بالقاهرة حالت دون ذلك.

*** المحافظ «المصلح»:**

من الجوانب الخلافية بين الباحثين: موقع العلامة الخضر حسين من الإصلاحيين والمحافظين في المجتمع الإسلامي، فهل هو محافظ متزمت منغلق ومتعصب، وبالتالي هو معارض عنيد لكل إصلاح ديني واجتماعي وسياسي في المجتمع الإسلامي، أم هو مصلح يمكن اعتباره من بين المصلحين العاملين على تطوير الأمة الإسلامية في مختلف المجالات الدينية والاجتماعية والفكرية والسياسية؛ مثل: الأفغاني، وعبده، وخير الدين التونسي، والطاهر الحداد؟

ودون الدخول في تفاصيل لا يسمح المجال بذكرها، وهي عديدة جداً ومعقدة، فإننا نكتفي بالتأكيد، وهذا هو موقفنا الثابت نتيجة درس وتمحيص لهذه الشخصية العلمية الفذة، التأكيد على: أن العلامة الخضر حسين ليس من الصنف المحافظ المنغلق المعارض لكل إصلاح وتطوير، وليس ـ أيضاً ـ من الصنف الإصلاحي على غرار زعماء الإصلاح المعروفين، إنه في منزلة بين المنزلتين؛ كما يقال عند المعتزلة.

ولهذا السبب عارضه أنصار التيارين معاً عند صدور مجلة «السعادة العظمى»، ولم يجد سنداً إلا صديقه الوفي العلامة محمد الطاهر بن عاشور؛ إذ هو مثله المصلح المعتدل؛ فقد ساعده على مواصلة إصدار المجلة، والتي اضطرت إلى التوقف ـ حسب رأينا ـ لأسباب مادية؛ كما يبدو في أعدادها الأخيرة، وبالخصوص العدد المزدوج ١٩ و٢٠، وعدد ٢١ الأخير الصادر في جانفي ١٩٠٥م.

وللمزيد من التدقيق، وضمن ترتيب «المنزلة بين المنزلتين»، هل هو «محافظ مصلح»، أم «مصلح محافظ»، ما دام أنه ليس «محافظاً صرفاً»، ولا «مصلحاً صرفاً»؟

إننا نعتقد أنه محافظ مصلح، ـ وخاصة في المجالين الديني والاجتماعي ـ أكثرَ منه مصلحاً محافظاً. . . وهذا لا يقلل أبداً من شأنه، بل إنه ما كان يتميز به من وضوح في المواقف، ومن جرأة في التعبير عنها، والتدليل عليها: إن كل ذلك يؤكد ما يستحقه من مكانة وقيمة علمية ودينية وفكرية على مستوى الأمة الإسلامية جمعاء.

ويجدر التذكير ـ في هذا الإطار ـ بمجهوده المتميز في مجال الإصلاح،

والدعوة إليه ـ حسب مفهومه وتصوره له ـ بالتآليف والكتابة والمسامرات والمحاضرات في مختلف المحافل الدينية والاجتماعية والتربوية، وخلال جميع رحلاته المتعددة في البلاد الإسلامية مغرباً ومشرقاً.

*** هل هو: تونسي... أم جزائري... أم مصري؟**

خلال الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ٢٠٠٧م قامت (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية) بمدينة «بسكرة» بالجزائر الشقيقة بتنظيم ندوة علمية موضوعها: «العلامة محمد الخضر حسين الطولقي الجزائري»، وذلك بالرعاية السامية لمعالي وزير الثقافة، والسيد والي بسكرة.

وأغتنم هذه المناسبة للإشادة بجهود الجمعية الثقافية النشيطة بإشراف رئيسها الباحث والإعلامي المتميز الأستاذ فوزي مصمودي، وهي جهود قلما نجد مثيلاً لها على الساحة الثقافية العربية.

وقد شرفتني هذه الجمعية بالدعوة إلى المشاركة في هذه الندوة العلمية صحبة الأخوين العزيزين: الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن أخي الخضر حسين، وناشرُ آثاره، والأستاذ الدكتور مجاهد توفيق الجندي مؤرخ الأزهر، وأستاذ كرسي الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وعضو العديد من الهيئات العلمية العربية والإسلامية.

وقد شارك في هذه الندوة نخبة من خيرة الباحثين والجامعيين الجزائريين، وقد كانت ـ فعلاً ـ من أهم اللقاءات العلمية العربية التي شاركتُ فيها خلال هذه السنوات.

وإضافة إلى عنوان الندوة: «العلامة محمد الخضر حسين الطولقي الجزائري»؛ أي: من بلدة «طولقة» من منطقة الزاب... لاحظت أن هذه الندوة

قد سبقتها ندوات سابقة خلال سنوات مضت، وتأكدتُ من مدى تمسك الإخوة في الجزائر الشقيقة بجزائرية العلامة محمد الخضر حسين. ونظراً إلى دراستي الشاملة والمتواصلة لهذه الشخصية المتميزة، ونظراً إلى إيماني العميق والدائم بأن العلم لا يعرف المجاملات، فقد أكدت في البحث المطول الذي قدمته في هذه الندوة على الجوانب التاية :

١ ـ إن أصول محمد الخضر حسين وجذوره العائلية هي فعلاً جزائرية.

فجده للأم الشيخُ الجليل مصطفى بن عزوز صاحب الزاوية الشهيرة بمدينة «نفطة»، وهو ـ فعلاً ـ من منطقة الزاب؛ حيث توجد زاوية والده الشيخ الورع (نور الصحراء) محمد بن عزّوز.

وكذلك جده للأب الشيخ علي بن عمر هو ـ أيضاً ـ من «طولقة»، وزاويته قائمة حالياً بإشراف الشيخ عبد القادر عثماني العالم الجليل، وعضو المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر الشقيقة. وقد وجدنا منه ومن عائلة الخضر حسين الأصيلة بطولقة وبرج ابن عزوز خلال زيارتنا لهذه الزاوية (ديسمبر ٢٠٠٧م) كامل التبجيل والاحترام، فلهم منا جليل الشكر.

٢ ـ لكن محمد الخضر حسين شخصياً ولد بمدينة «نفطة» التونسية، ونشأ بها، وتربى وتلقى تعليمه القرآني والابتدائي العام بها إلى أن بلغ سن ١٣ من العمر، ثم انتقل إلى العاصمة، ودرس بجامع الزيتونة المعمور إلى آخر المرحلة التونسية من حياته؛ كما أشرنا إليها بشيء من الإيجاز والتدقيق في هذا المقال.

٣ ـ إن الشيخ الخضر بقي متعلقاً بوطنه تونس طيلة مراحل حياته، سواء عند انتقاله إلى سورية، أو الآستانة، أو برلين، وأخيراً استقراره بالقاهرة.

ويبرز هذا التعلق المتين والدائم في كتاباته وأشعاره في ديوانه «خواطر الحياة»، وفي متابعاته الدقيقة لما يجري في وطنه من أحداث. كما يبرز ـ أيضاً ـ في مراسلاته المتعددة والمتوالية مع صديقه العلامة الطاهر بن عاشور. وقد أكدت لنا هذا الموقف زوجتُه الفاضلة عند زيارتنا لها ولابنها (من زوجها الثاني) المستشـار القانوني رئيس محكمة جنوب القاهرة حالياً الأخ الفاضل أحمد البطران.

هذا برغم حصول الشيخ الخضر على الجنسية المصرية سنة ١٩٣٢م، وتحمله لعديد المسؤوليات العلمية، وفي مقدمتها: مشيخة الأزهر، هذه الخطة الرفيعة والمتميزة التي لا يتحملها إلا علماء مصر، وكبارُ شيوخها، وهو ما أثاره بقدر كبير من الاسـتفزاز والتوتر الشـيخ محمد رشيد رضا صاحب «المنار» عند بروز خلافه الشديد مع الخضر حسين.

على أن ما يستحق الإشادة بهذه المناسبة هو: تقدير علماء مصر وكبار رجالها في مختلف المجالات للعلامة التونسي (هذا البحر الذي لا ساحل له)، وهو ما لاحظتهُ خلال زيارتي الأخيرة للقاهرة، وللأزهر الشريف.

٤ ـ قام الشيخ الخضر بزيارتين إلى الجزائر خلال سنتي (١٩٠٣ ـ ١٩٠٤م)، ولئن لم نعثر على نص رحلته الأولى، فإن رحلته الجزائرية الثانية التي نشرها في الأعداد الأخيرة من «السعادة العظمى» لم يشر فيها أبداً إلى جذوره الجزائرية، ولا إلى زيارة موطن أجداده وأهله، وهو ما أثار استغرابنا خلال دراسة هذا الجانب من حياة علامتنا الجليل.

٥ ـ وبهذه المناسبة يجدر التذكير بمدى اعتزاز أهل «نفطة» بالشيخ الخضر، وبوالده (سـيد الحسين) صاحب المسجد المعروف بحي الشرفة،

جوار حي المواعدة، وتجلى هذا الاعتزاز بتكوين جمعية سنة ١٩٤٧م هي (جمعية شباب الخضر حسين النفطي) (هكذا)، والتي كانت تُعنى بالتلاميذ والطلبة المعوزين، وبمساعدتهم على مواصلة دراستهم في أحسن الظروف.

كما تجلى هذا الاعتزاز بحدث لن أنساه أبداً، وهو: أننا بعد أسابيع قليلة من وفاته ـ رحمه الله ـ في ٢ فيفري ١٩٥٨م، قمنا نحن تلاميذ تلك الفترة بتنظيم ندوة ألقيتُ فيها بحثاً عن حياة هذا العلامة، وهي أول محاضرة ألقيتها في حياتي، ولم أتجاوز ٢٠ سنة... وحضرتْها نخبة مدينة «نفطة»، وفي مقدمتهم: المعلمون الذين درسنا عنهم في المرحلة الابتدائية، وما زلنا نذكرهم بكل الاحترام والتقدير.

ولا شك أن هذا الاعتزاز هو الذي دفعني إلى إعداد بحث جامعي ـ بإشراف الأستاذ الفاضل المنجي الشملي ـ عن هذا العلامة، والذي صدر في كتاب سنة ١٩٧٤م.

وفي ختام هذا المقال التعريفي ـ بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة محمد الخضر حسين ـ يجدر التأكيد على: أن هذا العلامة مثلُ علامتنا التونسي النشأة والتكوين الأساسي ابنِ خلدون، وأمثالهما كثيرون، وخاصة بين الشعبين الشقيقين تونس والجزائر، وما يجمعهما من تواصل تاريخي ونضالي وثقافي، اهتم به المثقف الموسوعة الدكتور محمد صالح الجابري، الذي نعتبره ـ دون منازع ـ المرجعَ الثقة في هذا المجال، ومؤلفاته وأبحاثه الغزيرة والممتعة لأكبر دليل على ذلك، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠م ـ ١٩٦٢م)، الصادر بكل من تونس والجزائر سنة ١٩٨٣م.

وبالخصوص كتابه «التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس» الصادر عن دار الحكمة بالجزائر سنة ٢٠٠٧م، والذي جاء في بداية مقدمته: «الصلات الفكرية والثقافية بين تونس والجزائر تعتبر نموذجاً فريداً وطريفاً لما يمكن أن ينشأ من صلات حميمة بين قطرين شقيقين، كما تعتبر مثالاً نادراً لعلاقات الجوار الإيجابي الخصيب بين الأقطار العربية التي تجمع بينها حدود مشتركة».
إن هذا التواصل الحضاري والثقافي يدعم أسسه رجالٌ مثل: الخضر حسين الجزائري الأصول، التونسي النشأة والتكوين والبروز، المشرقي الإسلامي الشهرة والمجد؛ حسب عبارة العلامة محمد الفاضل بن عاشور. هؤلاء هم جسور هذا التواصل مما يجعلهم يتجاوزون الحدود العائلية والجغرافية إلى الفضاءات الحضارية والثقافية الرحبة واللانهائية.

ولذلك، فلا غرابة أن يتواصل الاهتمام بالخضر حسين، وبعلمه وآثاره، ودوره الديني والفكري في الجزائر، وتونس، ودمشق، والقاهرة، وأن تنعقد الندوات العلمية هنا وهناك؛ فالرجل هو (رجال في رجل)، وهو (بحر لا ساحل له...)، يتسع للجميع، ويستوعب الجميع، ويحتضنهم، وما يختزنه من كنوز وجواهر يمكِّن الجميع من إثراء معارفهم وترسيخ هويتهم الحضارية.

❑ ❑ ❑



بسكرة عاصمة الثقافة باحتفالها بالإمام محمد الخضر حسين إمام العالم الإسلامي، وأستاذ الشيخ ابن باديس[1]

الدكتور عمار الطالبي
نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
والأستاذ بجامعة الجزائر

الثقافة روح الأمة، ودمها الذي يجري في عروقها، تحيا بحياتها، وتندرس باندراسها، وهذه المدينة العريقة في التاريخ، مدينة «بسكرة» تنشأ فيها جمعية تحمل اسم مؤرخ لامع، وعالم اجتماع مازال نجمه يهتدي به الباحثون، ويلجأ إلى نوره الدارسون، هي: (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية)، تقوم بما لم تقم به مؤسسة ثقافية كبيرة من مؤسساتنا، فتعيد لبسكرة مجدها، وتحيي ذكراها، وتبعث تراثها.

وها هي ذي تذكِّر الجزائريين بعلَم من أعلامها الشامخة، وإمام من أئمة المسلمين، وداعية من دعاة الحرية والإصلاح، هو: الإمام الشيخ محمد الخضر حسين.

وليس هذا الإمام الذي نبتت شجرته في الزيبان في «طولقة» النخيل،

---

(١) مجلة «البصائر»، العدد ٣٧٢ الصادر في (٢١ ـ ٢٨ من ذي الحجة ١٤٢٨هـ/ ٣١ ديسمبر ٢٠٠٧ ـ ٧ جانفي ٢٠٠٨م) ـ الجزائر.

وعلا فرعها في سماء «نفطة» بالجنوب التونسي، وأضاء في الزيتونة المباركة بعاصمة تونس، وتألق في سماء الشام، وأشرق في مصر، فأصبح إماماً للأزهر، اختارته الثورة المصرية لأن يكون شيخاً للأزهر، يقوده في طريق الإصلاح والتغيير المثمر.

إنه العالم بالشريعة ومداركها، وباللغة العربية وآدابها، والصحفي المبدع، والداعية الصادق، والمناضل المدافع عن شرف الأمة وأوطانها، إنه رئيس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) التي أسسها بالقاهرة، وهو الشاعر، والمحاضر، لسان العربية في (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة، وبدمشق، بدراساته العلمية في تاريخ العربية ومصادرها، ومواردها ومتونها، ومنشئ (جمعية الهداية الإسلامية)، ومجلتها التي تحمل اسم الجمعية، ومنشئ أول مجلة عربية في تونس هي «السعادة العظمى».

ولولا جهود ابن أخيه الأستاذ المحامي الشاعر علي الرضا الحسيني ـ حفظه الله ـ في جمع آثاره ونشرها، لذهبت أدراجَ الرياح، وأتت عليها الأرضة «سوسة الكتب»، وحرم الناس من ثمراتها، ولذلك كرّمت هذه الجمعية هذا العمل الجليل الذي أنجزه، فأحسنت الصنع.

كان لوالي «بسكرة» فضل بمساعدة هذه الجمعية التي يرأسها الشاب النشط، المتّقد حماسة وجدية، فقامت بتنظيم هذا الملتقى الكريم، الذي حضره باحثون: من تونس: «الدكتور محمد مواعدة»، ومن سورية: «الأستاذ علي الرضا الحسيني»، ومن مصر: «الدكتور مجاهد توفيق»، ومن جامعات الجزائر: عدد من الباحثين الشباب، الذين نفخر بأبحاثهم الجادة التي قدموها، ولا ننسى فضل شيخنا الكبير، وإمام بسكرة العظيم، فضيلة الشيخ عبد القادر

عثماني، الذي جمع هذه الوفود، وأكرم وفادتها، على عادته في الكرم الجمّ، والهمة العالية، جمعنا في زاويته العامرة بطلاب القرآن، وحفاظه، وزرنا مكتبته الغنية بالمخطوطات والمطبوعات، التي لا يبخل بها على الباحثين والدارسين؛ كما يفعل الآخرون الذين يضنّون بما لديهم من مخطوطات تفنى وتبيد، ولا ينتفع بها مستفيد، فلنعمَ الزاويةُ، ولنعم شيخُها ومكتبتها.

وإمامنا هذا الذي احتفلت به «بسكرة» إمام عظيم في خلقه، عظيم في جهاده، عظيم في علمه، أستاذ للشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي درس عليه «تفسير البيضاوي» في منزله بتونس، كما درس عليه المنطق في جامع الزيتونة الأعظم، وعلق في آخر مقال كتبه (سبتمبر ١٩٣٩م) على مقال للشيخ محمد الخضر عن (أولي الأمر)، وأشار إلى فضله ونبله وعلمه، وأنه جزائري، تونسي، مصري، من منبت صوفي أصيل، ومن مورد الشريعة الغراء.

وأنا أقول: إن صوته ونضاله وأعماله وصل صداها إلى الهند، وقد أشاد الشيخُ الهندي الجليل «أبو الحسن الندوي» بفضله، فهو إمام العالم الإسلامي بلا منازع، ناضل من أجل وحدته، ودافع عن الجامعة الإسلامية، وعن القرآن والعربية، فناقش طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» ونقضَه، كما نقضَ كتاب الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، ورد عليه، ولم يخش في ذلك كله لومة لائم، فارتفع ذكره، واشتهرت شخصيته في مصر وغيرها، وشاركه في ذلك صديقه الحميم العلامة محمد الطاهر بن عاشور، صاحب «التحرير والتنوير»، فنقض ـ أيضاً ـ كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وأبطل دعاواه بأسلوب علمي رصين، كما أبطل شيخنا الإمام محمد الخضر دعاوى طه حسين، وما أثاره علي عبد الرازق من شكوك.

فهنيئاً للجمعية الخلدونية بهذا العمل الجليل، وبهذا النشاط المتواصل، وهنيئاً لوالي «بسكرة» السيد ساعد أقوجيل، الذي لازم حضور المحاضرات، وتابعها بكل عناية، وهنيئاً لسكان «بسكرة» على هذا الشباب الذي يلمع في سمائها، من شعراء مبدعين، وباحثين جادين، وهم جيل جديد يبشر بمستقبل مشرق وضّاء، وإني شخصياً أقرأ فيهم صفحة جديدة واعدة في تاريخنا الثقافي، تحمل الأمل في حسن العمل، ومجال الإبداع في كل فن.

وليس هذا غريباً عن «بسكرة» التي تزهو بواحتها الأخّاذة، وبنخيلها الذي يغذو هذا الشباب، ويعلو بهم مراتب المعرفة، وينمي عقولهم، ويثمر الحلو الجميل من الإبداع.







ربيع في الشتاء[1]

الأستاذ محمد الهادي الحسني

استعجلت الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية ببسكرة فصل الربيع، فاستقدمت أربعة أيام منه إلى فصل القرّ والصرّ.

إذا كان ربيع البحتري كاد أن يتكلم، فإن الأيام الخلدونية الربيعية قد تكلمت، لا بالأزهار الفوّاحة، والنسيم العليل، ولكن بالعلم النافع الذي يغذي العقول الجائعة، والأدب الطريف الذي يطرب النفوس الحزينة، والشعر اللطيف الذي يشرح الصدور الحرجة، والقول الحسن الذي ينعش الأرواح الذابلة.

كنت أسمع بالجمعية الخلدونية، فأحسبها كإحدى الجمعيات التي كثرت أسماؤها، وقلَّ غَناؤها، تصحو أياماً، وتسْبت أعواماً، وتصوم دهراً، وتنطق نُكراً، فلما حضرت ملتقاها (الخلدونية) السادس الذي خصصته للإمام محمد الخضر حسين، أصيل مدينة «طولقة»، رأيت منها العمل المنهجي السليم، والسعي الدائب الجاد، والغيرة الصادقة على تراثنا، والحرص الشديد على إحياء أمجادنا، والعناية الفائقة بتدوين تاريخنا، حتى ظننت أنها لا تنام

---

(١) جريدة «الشروق»، العدد ٢١٨٨ الصادر في (٣/١/ ٢٠٠٨م ـ ٢٥ من ذي الحجة ١٤٢٨هـ).

ولا تُنيم، فعذراً للقائمين على تلك الجمعية العاملة عن ذلك الظن السيئ، والعذرُ عند كرام الناس مقبول...

يشرف على هذه الجمعية النشيطة ويسيِّرها نخبة من الشباب الطموح المتسلح بالعلم، المتخلق بالحلم، المتدرع بالعزم، ولهذا لم يستنكف كبار السن فيها أن يكونوا ـ برغم سعة علمهم، وغناء تجربتهم ـ تابعين لأولئك الشبان، يمدونهم بصالح الدعوات، ويساندونهم بصادق التوجيهات، ويباهون بما يحققونه من إنجازات.

لقد أضاف أولئك الشبان الكرام البررة إلى جمال أم قرى الزيبان جلالَ الفكر، وطيب الذكر، وحلال السحر، فنالوا محبة الحميم، وانتزعوا احترام الخصيم، فلا يشنؤهم إلا من في قلبه مرض، وفي نفسه غرض.

تظهر جِدِّية هذه الجمعية، ويبدو عملها المنهجي فيما أقامت ـ لحد الآن ـ من ندوات وملتقيات وطنية ودولية، ومنها: بسكرة عبر التاريخ، والمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان، وتاريخ الحركة الوطنية بمنطقة الزيبان، والعلامة عبد الرحمن الأخضري، وعقبة بن نافع الفهري.

كما تتجلى جديتها فيما نشرته من كتب قيمة عن تاريخ المنطقة وأعلامها، ومنها: «تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة، وأعلام من بسكرة، وزهير الزاهري، وملحمة الزيبان، وغيرها»، ولم تنس هذه الجمعية فضل السابقين، فكرّمت ثلة من علماء الجزائر الذين خدموها بإخلاص، وناضلوا بصدق، لا يريدون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً، ومنهم: بقية السلف الصالح رمضان محمد الصالح، تلميذ الإمام ابن باديس، وخليفة الإمام الإبراهيمي في إدارة مدرسة دار الحديث بتلمسان، ومؤسس التعليم الديني في الجزائر المستقلة،

وأول مُحْيٍ لتراث الإمام ابن باديس. . . والأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي أحيا تاريخ الجزائر الثقافي، وأرّخ لحركتها الوطنية. . . والمرحوم الدكتور يحيى بو عزيز، والشيخ الفاضل عبد القادر عثماني. . .

إن نجاح هذه الجمعية يعود ـ في رأيي ـ إلى الانسجام الذي يسود بين مسيِّريها، فهم لا يتنافسون إلا في الجديات، ولا يسارعون إلا في الخيرات، لا يزدهيهم مدح، ولا يثبطهم قدح، كلٌّ قد وثق في نفسه وفي إخوانه، وكل قد علم مكانه ودوره، فلا سعي لنيل شهرة، أو إحراز لقب، أو تحقيق مكسب، فهمُّهم الدائم، وشغلهم الشاغل هو: تحريك الركود، وإيقاظ الرقود، ولذلك فلا تعرف منهم رئيساً من مرؤوس، ولا تميز تابعاً من متبوع، وميزتهم جميعاً أن كل واحد منهم ذو فكر جوَّال، ولسان قوَّال، وقلم سيَّال، يحسن إذا خطب، ويتقن إذا كتب، راحتهم في التعب، ولذتهم في النصَب.

لقد خصصت الجمعية بمناسبة ذكرى وفاته الخمسين[1]، وقد ألقيت في الملتقى عدة محاضرات من قبل أساتذة من الجزائر، وتونس، وسورية، ومصر، تناولت جوانب من شخصية الإمام، وإن لم توفِّها حقها؛ لتعدد جوانبها، وثرائها، ولضيق الوقت، ولعدم توافر كتابات الإمام في الجزائر.

وأغتنم هذه الفرصة لأُشيد بشخصيتين كريمتين لهما فضل كبير يُذكر ويُشكر، أولهما: الأخ الدكتور محمد مواعدة، من تونس الشقيقة، والأستاذ علي الرضا الحسيني الذي تتبع حياة الإمام محمد الخضر حسين، وهو مقيم بدمشق، ويتمثل فضلُه في حصر نشاطه، ووقف حياته على آثار الإمام

(١) توفي الشيخ محمد الخضر حسين يوم ٢ فبراير ١٩٥٨م.

جمعاً ونشراً، وقد طبع منها ـ حتى الآن ـ بضعاً وثلاثين أثراً ما بين كتاب ورسالة، ونطمع أن يزيد.

ولا يتم فضل هذا الأستاذ، ويكمل عمله إلا إذا سعى لإدخال هذه الكتب القيمة إلى الجزائر؛ باتخاذ وكيل لمؤسسته «الحسينية» في الجزائر، أو ـ على الأقل ـ بالمشاركة في معرض الكتاب الدولي.

وهل تستطيع «بسكرة» صبراً على الشعر؟

وأنَّى لها ذلك، وقد نسبت إليه، فقيل: «بسكرة الشعر»[1].

ولهذا لم يجد المنظمون للملتقى مناصاً من تخصيص الجزء الأكبر من أمسية الخميس (٢٧/١٢/ ٢٠٠٧م) لثلة من الشعراء الشبان، الذين أحسنوا الغوص في بحور الشعر، وروَّضوا قوافيه، فأطربوا الآذان، وهيَّجوا الأشجان، ونبهوا الأذهان، فلا فُضَّت أفواههم، ولا عقمت قرائحهم.

وفي صباح يوم الجمعة (٢٨/ ١٢) توجه الركب إلى بلدة «بنْطيوس» لزيارة ضريح العلامة عبد الرحمن الأخضري، والترحم على روحه، وهو من أعلام القرن العاشر الهجري (١٦م)، له تآليف قيّمة في البلاغة، والمنطق، والفقه، أشهرها: «الجوهر المكنون. . .»، و«السلم المرونق»، و«الدرة البيضاء»، وقد وجدنا الضريح على غير ما تصورنا، ولو قُدِّر الرجل حق قدره، وعرفت قيمته العلميّة، لأقيم بجوار الضريح معهد علمي ينسِل إليه طلاب العلم من كل حدب، ويضم مؤلفاته وما كتب عنه.

إذا صحت العزائم، وصدقت النوايا، فما زال في الأمر مستدرك،

---

(١) سليم كرام ـ ملحمة الزيبان (ص٢٦).

وما على البلدية وكبراء المنطقة إلا السعي لدى أولي الأمر لإقامة صرح علمي ومركز ثقافي، فتحيا بهما «بنطيوس»، وتعود سيرتها الأولى في أيام الشيخ عبد الرحمن الأخضري.

ثمَّ يمَّم الجمع تلقاء مدينة «طولقة»، وبالتحديد إلى الزاوية العثمانية (زاوية علي بن عمر) التي أسست في عام ١٧٨٩م[١]، فكانت لبنة التمام، ومسك الختام.

كان في استقبال الزائرين فضيلة الشيخ عبد القادر عثماني شيخ الزاوية، وعضو المجلس الإسلامي الأعلى، وقد استولى على مجامع القلوب بتواضعه، وطلاقة وجهه، ودماثة خلقه.

يتميز الشيخ عبد القادر بأنه لا يحيط نفسه بهالة من الغموض كما يفعل كثير من أدعياء التصوف، فمظهره ينبئ عن مخبره، وقد انعكس ذلك على مريديه، فلا تراهم يتصرفون أمامه كأنه هبط من كوكب آخر؛ لأنه علّمهم أنه - مثلُهم - ابنُ امرأة تأكل القديد.

وقد زار الوفد مكتبة الزاوية الزاخرة بآلاف الكتب المخطوطة والمطبوعة، وتفضل الشيخ فكان مرشداً ودليلاً، شرح للزوار ما تحتويه المكتبة، منبِّهاً إلى بعض الكتب المتميزة في موضوعها أو منهجها، فالزاوية زاوية علم، لا زاوية رقص السَّمَاح[٢].

وقد أكرم الشيخ ضيوفه، فأقام لهم وجبة غداء، وأبى إلا أن يظل

---

(١) تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة - فوزي مصمودي، (ص٢٣٥).

(٢) رقصة يستعملها بعض المشايخ الذين جعلوا الذكر مكاء وتصدية. (انظر: المنجد في اللغة، مادة: سمح).

واقفاً يطوف على ضيوفه، ويؤنسهم بلطف حديثه، معتبراً ذلك شرفاً له.

وتمتاز الزاوية العثمانية باتساع رحابها، ونظافة أرجائها، وجمال تنسيقها، فهذه أزهار، وتلك أشجار، ويتوسط ساحتها نافورة ماء، قد أدينا صلاة الجمعة في مسجدها البسيط النظيف، ثم ودَّعَنا الشيخ بمثل ما استقبلنا به من اللطافة والبشاشة، ملحاً على إعادة الزيارة جميعاً أو أشتاتاً.

وأما الأمر الذي أدهشنا وعقدَ ألسنتنا، فهو ما رُقِم في لوح الإعلانات في مدخل الزاوية، وهو أن «الزاوية لا تقبل هدايا ولا عطايا، لا من الأشخاص، ولا من الهيئات».

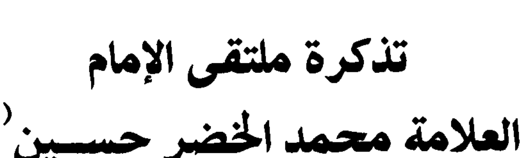
وهذه بدعة حسنة انفردت بها هذه الزاوية؛ لأن أكثر الزوايا ليس لها من عمل إلا جمع المال، دون إلقاء بال لمصدر ذلك المال، أمن حرام هو أم من حلال، حتى صح فيها قول القائل: «إنها فراج لجمع الخراج».

وقد اقترحت أن يتبرع الحاضرون بما استطاعوا من كتب لمكتبة الزاوية، يستفيد منها الباحثون الذين يقصدونها لإنجاز أبحاثهم، ولم يعترض الشيخ على هذا الاقتراح.

بارك الله في عمر الشيخ الجليل، ومتَّعه بسمعه وبصره ما أبقاه، وهدى به إلى الصراط المستقيم، والخلق القويم، وعَمَر زاويته بالذكر الحكيم.

وشكر الله للجمعية الخلدونية سعيها، وجعلها نوراً تنير «بسكرة»، وتضيء ما حولها، وجعل اسمها للخلود، وأعضاءها للخُلْد، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي مثله فليتنافس المتنافسون.





تذكرة ملتقى الإمام العلامة محمد الخضر حسين[1]

للدكتور محمد بن سمينة
جامعة بن يوسف بن خدة ـ الجزائر

كنت قد حللت بمدينة «بسكرة» ـ في زيارة إلى الأهل ـ يوم ٢٤ ديسمبر المنصرم، وكنت وأنا بمدخل المدينة قد لفت نظري الإعلان عن عزم الجمعية الخلدونية ببسكرة على تنظيم ملتقى (الإمام العلامة محمد الخضر حسين) في الأيام (٢٥، ٢٦، ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧م)، فسعدت بهذه المصادفة الطيبة، وشعرت أن هذه الزيارة ستكون ـ إن شاء الله ـ مباركة ومثمرة؛ لأنها ستمكنني من حضور هذه التظاهرة الثقافية الهامة التي لم يكن لي سابقُ علم بها، مع أنني أحرص على أن لا تفوتني قراءة الصفحة الثقافية في بعض الجرائد، ومع ذلك، فقد فاتني الاطلاع على خبر الملتقى.

وقد يعود ذلك لأني لم أقرأ الجريدة ذلك اليوم، أو يعود لما يميز وسائل إعلامنا ـ بوجه عام ـ من ضعف عنايتها بما يجري في الحقل الثقافي والأدبي ـ بالمقارنة مع اهتمامها البالغ، وحرصها الكبير بما يجري في المجال الترفيهي (غناء كان ذلك، أو موسيقى، أو فلكلوراً، أو رياضة، وما إلى ذلك).

---

(١) مجلة «البصائر»، العدد ٣٧٥ الصادر في (١٣ ـ ٢٠ محرم ١٤٢٩هـ/ ٢١ ـ ٢٨ جانفي ٢٠٠٨م).

باستثناء ما كان من بعض الاهتمام بشيء من النشاط الثقافي الجاد هذه السنة، سنة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

ومهما يكن من ذلك، فقد حرصت على أن أحضر جلسات هذا الملتقى، وإن كنت غير مدعو لحضوره.

كان افتتاح الملتقى برعاية السيد والي ولاية «بسكرة»، وبحضور السلطات المحلية، وعدد من السادة الأساتذة المحاضرين والمدعوين، وجمعٍ من المواطنين المهتمين.

وكان السيد الوالي قد افتتح هذا الملتقى بكلمة ترحيبية، متمنياً لهذا الملتقى النجاح والتوفيق، ثم أعقبه رئيس الجمعية الخلدونية مرحباً بالحاضرين، شاكراً لهم استجابتهم للدعوة، ثم تلاه الشيخ عبد القادر عثماني رئيسُ الزاوية العثمانية بطولقة، ممثلاً لأسرة الشيخ محمد الخَضِر، فأشاد بعلم الشيخ، وجهاده وجهود أسلافه من رجالات الأسرة في خدمة الدين والعلم والوطن.

ثم جاء دور كلمة سماحة الشيخ عبد الرحمن شيبان رئيسِ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد تعذر عليه الحضور جسدياً ـ لمهامه وظروفه الصحية ـ إلى هذا الملتقى، ولكنه كان حاضراً بأفكاره وتوجيهاته بين الذين حضروه، فقد أناب عنه الدكتور عمار الطالبي في إلقاء كلمته التي نوه سماحته فيها بعلم الإمام محمد الخَضِر، مشيداً بجهوده، مقدراً إسهاماته، مُكْبِراً جهاده في خدمة الإسلام والعربية وقضايا الأمة.

ثم أُعطيت الكلمة للأساتذة المحاضرين الذين جاؤوا من عدد من جامعات الوطن، ومن بعض البلاد العربية الشقيقة: الأستاذ علي الرضا الحسيني

ابن أخ الإمام من سورية، والدكتور مواعدة من تونس، والدكتور مجاهد توفيق الجندي من مصر.

لقد تناول الأساتذة المحاضرون في هذا الملتقى بالدرس والتحليل جوانب عديدة من حياة الشيخ تتصل بشخصيته، وبما اضطلع به من مهام ومسؤوليات، وبما قام به من جهود وجهاد في مختلف المجالات العلمية والإصلاحية والفكرية والأدبية.

١ ـ معالم شخصية، وحياة جهاد في سطور:

يقول الشيخ محمد الخضر:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن وادٍ أعيش بـه وحـدي

ينتسب الشيخ محمد الخَضِر إلى أسرة عريقة في الدين والعلم والتصوف، من أهل مدينة «طولقة» ولاية «بسكرة». رحل والده الشيخ الحسين إلى تونس، واستقر بإحدى حواضرها مدينة «نفطة»، وفيها ولد ابنه الإمام محمد الخَضِر في (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٣م).

استهل تعلمه بنفطة، ثم انتقلت أسرته إلى تونس العاصمة، فأتم حفظ القرآن الكريم وتعليمه الابتدائي بها، ثم التحق بجامع الزيتونة العامر ١٨٨٩م، فتخرج منه بشهادة التطويع ١٨٩٨م، وهي أعلى شهادة علمية يمنحها جامع الزيتونة يومئذ للخريجين منه، وتعادل آنذاك شهادة الثانوية العامة (البكالوريا)، ولا تعادل شهادة الدكتوراه؛ كما جاء في كراس الملتقى الموزع على الحاضرين.

٢ ـ جهود الإمام وجهاده في الحياة العملية:

استهل الشيخ حياته العملية (العلمية والإصلاحية والاجتماعية والثقافية)

بالتدريس في جامع الزيتونة، وفي المدرسة الصادقية، ثم دخل ميدان الإعلام ١٩٠٤م، فأصدر مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة عرفتها تونس في تاريخها الحديث. ثم تولى ١٩٠٥م مسؤولية القضاء. وكان الشيخ إلى جانب هذه المهام يسهم في الميدان السياسي، ما جعله عرضة لمضايقات سلطات الاحتلال الفرنسي في تونس، فاضطر للارتحال إلى الشرق العربي، فنزل بدمشق الشام إبان الحرب العالمية الأولى، ولم يلبث أن اندمج فيها بحركة النهضة العلمية والفكرية والسياسية، فجعله ذلك متابعاً من سلطات جمال باشا حاكم دمشق، فزجَّ به في السجن، ولم يخرج منه إلا بعد عام ونيف، ثم سافر إلى ألمانيا. وفي أعقاب الحرب رجع إلى سورية، واستأنف بها نشاطه العلمي والإصلاحي، فعين عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق، وقد أدى به نشاطه ذلك أن حكم عليه الاحتلال الفرنسي في سوريا بالإعدام ١٩٢٠م. فنجاه الله من ذلك.

فارتحل إلى مصر، والتحق بالأزهر الشريف، فنال منه الشهادة العالمية ١٩٢٨م، وعين على إثر ذلك أستاذاً به في كلية أصول الدين.

اندمج الشيخ فيما تشهده مصر يومئذ من حركة علمية وفكرية نشطة، فأسس في السنة نفسها «جمعية الهداية الإسلامية»، ثم عين ١٩٣٢م عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. تفرغ في هذه الفترة إلى تأليف مجموعة من المصنفات، أسهم بها فيما يجري يومئذ في مصر من مناقشات وحوارات في الساحة الفكرية والأدبية.

وكان من بين مؤلفاته: كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» ضَمَّنه نقدَه لكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق.

وكتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» تصدى فيه بالرد على كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين.

كما أصدر في هذه الفترة ١٩٢٨م مجلة «الهداية الإسلامية»، ثم مجلة «نور الإسلام» في سنة ١٩٣٢م.

كان الشيخ قد ترقى بهذه المكانة العلمية السامية أعلى مرتبة علمية ودينية في العالم الإسلامي، وهي تعيينه على رأس مشيخة الأزهر الشريف ١٩٥٢م، فمكث في هذه المهمة يشرف على تسيير شؤون هذه المؤسسة، ويَسُوس أمورها قرابة حولين، فاضطربت الأوضاع العامة بعدهما في مصر، وكان قد بلغ من الكبر عتياً (تجاوز الثمانين من عمره)، فآثر حينئذ أن يقدم استقالة من هذه المسؤولية، فكان له ذلك، وأُعفي منها في شهر جانفي ١٩٥٤م. تفرغ الإمام بعد ذلك إلى استئناف نشاطه العلمي والإصلاحي الذي بدأ به حياته في شبابه، وظل ينهض بذلك إلى وفاته (في رجب ١٣٧٧هـ/ فيفري ١٩٥٨م) ـ رحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه إلى جانب عباده المؤمنين الصالحين المصلحين والشهداء الأكرمين ـ.

ترك الشيخ مجموعة من الأعمال العلمية والفكرية يرجع الفضل في جمعها وتصنيفها إلى ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني ـ جازاه الله عن ذلك أحسن الجزاء، وأجزل المثوبة ـ.





برعاية معالي السيدة وزيرة الثقافة
و السيد والي ولاية بسكرة
الجمعية الخلدونية للأبحاث و الدراسات التاريخية

شهادة تكريمية

تتشرف الجمعية الخلدونية للأبحاث و الدراسات التاريخية
بمنح هذه الشهادة إلى: الباحث الأستاذ علي الرضا الحسيني
بمناسبة تكريمه من قبل الجمعية وبرعاية معالي وزيرة الثقافة و السيد والي ولاية بسكرة
في إطار الملتقى الوطني السادس بسكرة عبر التاريخ الذي خصص للعلامة محمد الخضر حسين
الطولقي الجزائري (1873 _ 1958) شيخ الأزهر الشريف (سابقا)
أيام 25-26-27 ديسمبر 2007 ببسكرة.
مزيد من العطاء و التألق

رئيس الجمعية
فوزي مصمودي

فهرس الموضوعات

